جون لوكاريه

الجاسوس المستجير من البرد

ترجمة : شاكر حسن راضي

/http://arabicivilization2.blogspot.com
Amly

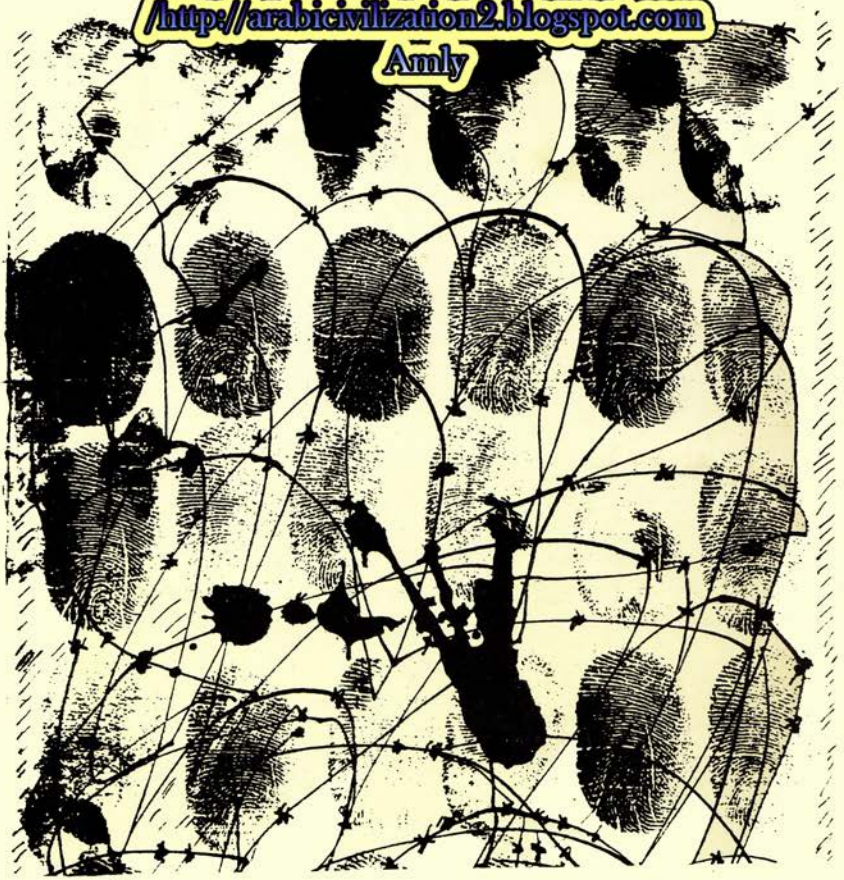

الجاسوس المستجير من البرد

جون لوكاريه

الجاسوس المستجير من البرد

رواية

ترجمة : شاكر حسن راضي

دار النسر للنشر والتوزيع ـ عمّـان / الأردن
دار الشمس ـ بغداد / العراق

Amly نهضة العرب

* إسم المؤلف : جون لوكاريه
* إسم المترجم : شـاكر حسن راضي
* إسم الكتـاب : الجاسوس المستجير من البرد
* الطبعة العربية الأولى : ١٩٩٥
* الناشر : دار الشمس ـ بغداد / العراق
دار النسر للنشر والتـوزيع ـ عمّـان / الأردن
* التوزيع : دار النسر للنشر والتوزيع
* الإخراج : دار النسر للنشر والتوزيع
* تصميم الغلاف : دار الشمس ـ بغداد

Amly نهضة العرب

http://arabicivilization2.blogspot.com
Amly

١ * نقطة تفتيش

ناول الأمريكي فنجان قهوة لـ ليماس وقال : " لِم لا تعود وتنام ؟ نستطيع الإتصال بك إن هو ظهر . "

لم يقل ليماس شيئاً ، وراح ينظر عبر شبّاك نقطة التفتيش على امتداد الشارع المقفر .

ـ " لايمكنك الإنتظار الى الأبد يا سيدي . ربما سيأتي في وقت آخر . نستطيع إبلاغ الشرطة للاتصال بالوكالة : تستطيع العودة الى هنا خلال عشرين دقيقة . "

قال ليماس : " لا ، يكاد الظلام يحلّ الآن . "

ـ " لكنك لا تستطيع الإنتظار الى الأبد ؛ فقد مرت تسع ساعات على الوقت المقرر . "

أضاف ليماس : " إنْ أردت الذهاب ، فاذهب . كنت طيباً جداً . سأبلغ كرامر بأنك كنت في غاية الطيبة . "

ـ " لكن ، كم ستبقى منتظراً ؟ "

ـ " الى أن يأتي . " سار ليماس الى شباك المراقبة ووقف بين الشرطيين الساكنين . كان منظاراهما موجهين نحو نقطة التفتيش الشرقية .

تمتم ليماس : " إنه ينتظر الظلام . أنا متأكد من ذلك . "

ـ " في هذا الصباح ، قلت إنه سيأتي مع العمال . "

استدار ليماس نحوه .

ـ " الوكلاء ليسوا طائرات . وليست لديهم جداول . هو لاهث ، هو هارب ، هو مرتعب . ومندت وراءه الآن ، في هذه اللحظة . لديه فرصة واحدة لاغير . دعه يختار وقته . "

تردد الرجل الأصغر ، راغباً في الذهاب لكنه لم يجد اللحظة المناسبة .

Amly نهضة العرب

دق جرس داخل السقيفة . وانتظروا في حالة حذر مفاجىء . وقال شرطي بالألمانية : " سيارة أوبل ريكورد سوداء . تحمل لوحة تسجيل اتحادية . "

همس الأمريكي : " أيمكنه التمييز الى هذا البعد في الغسق ، إنه يخمن ، " ثم أضاف : " كيف عرف مندت ؟ "

وهو واقف عند الشباك . " إخرس " .

غادر أحد رجال الشرطة السقيفة وسار نحو موضع الأكياس الرملية الواقع على مسافة قدمين من الحد الأبيض الممتد على الطريق كأنه الخط الخلفي لساحة تنس . وانتظر الآخر الى أن ربض زميله خلف التلسكوب في الموضع ، ثم أنزل منظاره ، وتناول خوذته السوداء من المشجب القريب من الباب ووضعها بعناية على رأسه . وفي مكان ما فوق نقطة التفتيش ، تدفقت الحياة في المصابيح النيونية ، ملقية شعاعاً مسرحياً على الطريق أمامها . وبدأ الشرطي تعليقه الذي كان ليياس يحفظه عن ظهر قلب .

ـ " تتوقف السيارة عند السيطرة الأولى . راكب واحد فقط . امراة . تساق الى سقيفة الـ فوبو لتدقيق الأوراق . " وأنتظروا صامتين .

قال الأمريكي : " ماذا يقول ؟ " . لم يرد ليياس . وبعد أن التقط منظاراً احتياطياً راح ينظر بثبات نحو نقاط السيطرة الألمانية الشرقية .

ـ " إكتمل تدقيق الأوراق . سمح لها بالمرور الى السيطرة الثانية " .

قال الأمريكي بإصرار : " سيد ليياس ، هل هذا رجلك ؟ يجب ان أتصل بالوكالة . "

ـ " إنتظر . "

ـ " اين السيارة الآن ؟ وماذا تفعل ؟ "

رد ليياس بإيجاز حاد : " تدقيق العملات . الجمارك . "

راح ليياس يرقب السيارة . كان هناك إثنان من رجال الـ فوبو عند باب السيارة ، أحدهما يتحدث والآخر ينتظر واقفاً على حدة . وكان هناك ثالث يجول حول السيارة متئداً . توقف عند صندوق السيارة . ثم عاد الى السائق . طلب المفتاح . وفتح الصندوق ، نظر في داخله ، وأغلقه وأعاد المفتاح ثم سار مسافة ثلاثين ياردة نحو الطريق الى حيث يقف خفير ألماني شرقي بين نقطتي التفتيش المتقابلتين ، كأنه ظل قصير بحذائيه الثقيلين وسرواله الفضفاض . وقف الإثنان يتحدثان معاً مدركين أنهما في وهج الضوء النيوني .

بإشارة روتينية ، أشاروا للسيارة بالأنطلاق . وصلت الى الحارسين في

Amly نهضة العرب

وسط الطريق وتوقفت مرة أخرى . دارا حول السيارة ، توقفا وتحدثا مرة أخرى ، وأخيراً ، سمحا للسيارة شبه مترددين بالمرور عبر الخط الى القطاع الغربي .

سأل الأمريكي : " هل تنتظر رجلاً يا سيد ليماس ؟ "

ـ " نعم . رجل . "

وبعد أن رفع ياقة سترته خرج ليماس الى ريح تشرين الثلجية . وتذكر الحشد حينئذ . إنه شيء ينساه المرء عندما يكون داخل السقيفة . هذه المجموعة من الوجوه الحائرة . تغير الناس لكن التعابير كانت نفسها . كان حشداً يشبه الحشد الأبكم الذي يتجمع حول حادثة طريق ، إذ لا أحد يعرف كيف وقع الحادث ، أو إن كان يجب نقل الجثة . وتصاعد دخان أو غبار من خلال أشعة المصابيح النيونية ، حجاب دائم الحركة بين أعمدة الضوء .

اتجه ليماس نحو السيارة وقال للمرأة : " أين هو ؟ " .

ـ " جاؤوا ليلقوا القبض عليه وهرب . أخذ الدراجة . لا يمكن أن يكونوا قد عرفوا بشأني . "

ـ " الى أين ذهب ؟ "

ـ " كانت لدينا غرفة قرب براندينبيرغ ، فوق حانة . كان يحتفظ ببعض الأشياء هناك ، نقود وأوراق . أعتقد أنه قد ذهب هناك . سيأتي . "

ـ " الليلة ؟ "

ـ " قال إنه سيأتي الليلة . لقد ألقي القبض على الآخرين جميعا ـ بول ، فيريك ، لاندسر ، وسالومون . لم يبق أمامه الكثير . "

حدّق ليماس فيها لوهلة في صمت .

ـ " حتى لاندسر ؟ "

ـ " الليلة الماضية . "

كان شرطي يقف الى جانب ليماس .

قال له : " عليك أن تبتعد من هنا . ممنوع أن تتوقف عند نقطة العبور . "

وبنصف أستدارة قال ليماس : " إذهب الى الجحيم . "

تصلب الألماني لكن المرأة قالت : " إركب . سنسير حتى الزاوية . "

ركب الى جانبها وسارا ببطء الى أن وصلا طريقاً جانبياً .

قال ليماس " لم أكن أدري أن لديك سيارة . "

ردت بلا مبالاة : " أنها سيارة زوجي . لم يبلغك كارل أبداً أنني كنت متزوجة ، أليس كذلك ؟ " ظل ليماس صامتاً . " أنا وزوجي نعمل في

Amly نهضة العرب

ـ " ذلك يعني أنكم لا تستطيعون إطلاق النار الى ان يجتاز المرء الحدود ؟ "

قال الرجل الأكبر : " لا نستطيع تقديم غطاء ناري يا سيد . . . "

أجاب ليماس : " توماس . توماس " . وتصافحوا ، وأفصح الشرطيان عن إسميهما أثناء مصافحته .

ـ " الحقيقة أننا لا نستطيع تقديم غطاء ناري . يقولون لنا ان حرباً تنشب لو فعلنا . "

قال الشرطي الأصغر : " هراء " ، وقد شجّعه الويسكي وأضاف : " لولا وجود الحلفاء هنا لكان الجدار قد سقط . "

تمتم الأكبر : " وكذلك برلين . "

فجأة قال ليماس : " لدي رجل سيعبر الليلة . "

ـ " من هنا ؟ عند نقطة العبور هذه ؟ "

ـ " إن إخراجه يستحق العناء . فرجال مندت يبحثون عنه . "

قال الشرطي الأصغر : " لا تزال هناك أماكن بالإمكان تسلقها . "

ـ " إنه ليس من ذلك النوع . سينجح في شق طريقه . فلديه أوراق إن كانت الأوراق سليمة حتى الآن . ولديه دراجة هوائية . "

كان هناك ضوء واحد فقط في نقطة التفتيش ، مصباح قراءة ذو ظل أخضر ، إلا أن شعاع المصابيح النيونية ملأ الكوخ كأنه ضوء قمر اصطناعي . وحل الظلام ، ومعه الصمت . وتحدثوا وكأنهم كانوا يخشون وجود من يسترق السمع . ذهب ليماس الى الشباك وانتظر ، الطريق امامه والجدار على الجانبين ، مشهد بشع قذر من أحجار رمادية وجدائل من الأسلاك الشائكة يضيئها ضوء أصفر باهت كأنه خلفية معسكر اعتقال . والى الشرق والغرب من الجدار يقع الجزء غير المستعاد من برلين ، نصف عالم من الحطام ، مقسوم الى بعدين ، جرفا حرب شديدا الانحدار .

فكر ليماس : تلك المرأة اللعينة ، وذلك الأحمق كارل الذي كذب بشأنها . كذب بحكم الواجب كما يفعل العملاء جميعاً في كل أنحاء العالم . تعلمهم الخداع ، لتغطية آثارهم ، لكنهم يخدعونك أنت كذلك . كان قد قدمها مرة واحدة فقط بعد العشاء في شارع شورز السنة الماضية . وكان كارل قد حقق لنفسه أكبر إنجاز له ، وأراد المشرف مقابلته . ودائماً ، كانت للمشرف حصته في النجاح . كانوا قد تناولوا العشاء سوية ـ ليماس والمشرف وكارل . وكان كارل يحب ذلك النوع من الأشياء . ظهر وكأنه تلميذ مدرسة الأحد ، نظيف ومتأنق ، حاملاً قبعته ، وكل ماله صلة بالاحترام .

Amly نهضة العرب

كان المشرف قد شد على يده لخمس دقائق وقال : " أريدك أن تعرف مدى سعادتنا يا كارل ، إننا في غاية السعادة " . راح لياس يراقب ويفكر ، سيكلفنا ذلك مائتين إضافيتين في السنة .

بعد الانتهاء من العشاء صافحهم المشرف مرة أخرى ، وأشار برأسه إشارة ذات مغزى موحياً ، وهو يدلف إلى سيارته التي يقودها سائق خاص ، بأن عليه أن يغادر معرضاً حياته للخطر في مكان آخر . ثم ضحك كارل وضحك لياس معه ، أنهوا الشامبانيا وظلوا يضحكون بشأن المشرف . بعد ذلك ذهبوا الى أولتر فاس ، فقد أصر كارل على ذلك وكانت إلفيرا بأنتظارهم ، وهي امرأة شقراء في الأربعين من عمرها ، صلبة مثل مسمار .

قال كارل : " أليك ، إنها أفضل أسراري المكتومة . " تميز لياس غضباً . ثم تشاجرا .

ـ " ما مدى معرفتها بالأمور ؟ ومَنْ هي ؟ وكيف قابلتها ؟ " عبس كارل ورفض الإجابة . وبعد ذلك سارت الأمور على نحو سيء . حاول لياس تغيير الروتين المعتاد ، بتغيير أماكن الالتقاء وكلمات السر ، إلا أن ذلك لم يرق لكارل . فقد فهم مقصد لياس ، و لم يعجبه ذلك .

قال : " إنْ لم تثق بها فقد فات الأوان على كل حال . " وفهم لياس الإشارة وصمت . لكنه صار حذراً بعد ذلك ، ولم يبلغ كارل الا بالقليل واستخدم المزيد من خدع التجسس . وكانت هي هناك ، في سيارتها ، تعرف كل شيء ، الشبكة بأكملها ، المنزل السري ، كل شيء . وأقسم لياس بألا يثق أبداً بوكيل مرة أخرى . ولم تكن تلك هي المرة الأولى التي يأخذ فيها على نفسه قسماً من هذا النوع . إتجه نحو الهاتف وزوّل رقم شقته . ردت على النداء السيدة مارثا . قال لياس : " فراو مارثا ، لدينا ضيوف في شارع دورير . رجل وامرأة . "

سألت مارثا : " متزوجان ؟ "

قال لياس : " تقريبا " ، فضحكت المرأة تلك الضحكة المخيفة. وحال وضعه السماعة استدار احد رجال الشرطة نحوه .

ـ " سيد توماس ! أسرع ! " . وسارع لياس الى شباك الرصد .

همس الشرطي الأصغر : " رجل يا سيد توماس " ، وأضاف : " على دراجه . " إلتقط لياس المنظار .

كان ذلك هو كارل ، فقد كان الشكل لا لبس فيه حتى على ذلك البعد ، ملتحفاً بمعطف مطري قديم دافعاً دراجته . فكر لياس ، لقد نجح ، لا بد أنه نجح ، فها هو يجتاز تدقيق الأوراق ، ولم يبق سوى تدقيق العملة

Amly نهضة العرب

والجمارك . وراح ليماس يرقب كارل وهو يضع دراجته على السياج ، ويشير نحو سقيفة الجمارك . بلا مبالاة . وراح يفكر مع نفسه ، لا تبالغ . وأخيراً خرج كارل ملوحاً بفرح للرجل الموجود عند الحاجز ، وتصاعد العمود المصبوغ بالأحمر والأبيض بطيئاً الى أعلى . كان يمر ، كان يتجه اليهم ، لقد نجح . لم يبق سوى شرطي الحدود في وسط الطريق ، والحظ ، والأمان .

في تلك اللحظة ، بدا أن كارل سمع صوتاً وأحس بخطر ما . نظر من فوق كتفه وبدأ يدوس على دواسة الدراجة بعنف ، منحنياً فوق المقود . كان لا يزال أمامه الخفير الوحيد على الجسر ، الذي استدار وراح يراقب كارل . وبعدها ، وبطريقة غير متوقعة كلياً ، سطعت مصابيح التفتيش ، بيضاء مشرقة ، ممسكة بكارل ، واضعة إياه في شعاعها كأرنب في ضوء سيارة .

ثم تلتها الصرخة المتقطعة لصفارة إنذار ، وصوت أوامر مجنونة . وأمام ليماس ، ركع الشرطيان على ركبتيهما ، وراحا يحدقان من خلال شقوق الأكياس الرملية ، وهما يحولان برشاقة ضاغط بندقيتيهما الآليتين إلى وضع الإطلاق السريع .

أطلق الخفير الألماني الشرقي النار ، بعناية فائقة بعيداً عنهما داخل قطاعه . وبدا أن الإطلاقة الأولى دفعت كارل الى الأمام فيما سحبته الثانية الى الخلف وكان لا يزال يتحرك بطريقة ما ، ما زال على الدراجة مجتازاً نقطة الحراسة وكان الخفير مستمراً في طلاق النار عليه . ثم تدلى ، تدحرج على الأرض ، وسمعوا بوضوح تام قعقعة الدراجة وهي تسقط . وتمنى ليماس من الله أن يكون قد مات .

Amly نهضة العرب

٢ * الميدان

راح يراقب مدرج مطار تمبلهوف وكأنه يغرق أمامه . لم يكن ليماس رجلاً تأملياً وهو ليس فلسفياً على وجه الخصوص . لقد عرف بأنه مقضي عليه ـ كانت حقيقة يومية سيعيش معها من الآن فصاعداً ، كما هو حال إنسان كتب عليه أن يعايش السرطان أو السجن . كان يدرك عدم وجود أي إجراء يمكن أن يسد الفجوة بين الماضي والحاضر . لقد واجه الفشل كما سيواجه يوماً الموت . بامتعاض ساخر وبشجاعة الرجل الوحيد . كان قد حاول أكثر من الجميع . وها هو مندحر الآن . يقال أن القلب يعيش طالما بقيت أسنانه ، و مجازياً ، كانت أسنان ليماس قد خلعت ، وكان مندت هو الذي خلعها .

قبل عشر سنوات كان بإمكانه أن يأخذ الطريق الآخر ـ كانت هناك وظائف مكتبية في تلك البناية الحكومية الغفل في ميدان كيمبرج وكان بإمكان ليماس أن يتقلدها وأن يحتفظ بها طوال ماكتب الله له من عمر . بيد أن ليماس لم يخلق على تلك الشاكلة ، كان بإمكانك أن تطلب من فارس خيل سباق أن يصبح كاتب مراهنات أكثر من أن تتوقع من ليماس هجران الحياة العملياتية من أجل المقاصد التنظيرية والمصلحة الذاتية السرية للحكومة البريطانية . كان قد بقي في برلين ، مدركاً أن قسم الأفراد قد أشر ملفه للمراجعة عند نهاية كل سنة . عنيد ، متصلب ، مزدر للتعليمات ، يقول لنفسه إن شيئاً ما سيتغير . فالعمل الأستخباري له قانون أخلاقي واحد ـ النتائج هي المقياس . حتى سفسطائيو الحكومة البريطانية منحوا ذلك القانون اعترافاً . وكانت النتائج في صف ليماس الى أن ظهر " مندت " . كان من الغريب أن يدرك ليماس بتلك السرعة أن " مندت " هو إشارة الانذار .

هانز ديتر مندت ، المولود قبل اثنين وأربعين عاماً في لايبزج . كان ليماس مطلعاً على ملفه ، ويعرف الصورة الملصقة على الجزء الداخلي من الغلاف ، ذلك الوجه القاسي الخالي من التعابير تحت الشعر الأشهب ، وكان يحفظ عن

Amly نهضة العرب

ظهر قلب قصة وصول " مندت " الى السلطة كرجل ثانٍ في دائرة الاستخبارات وكرئيس ناجح للعمليات . كان مندت مكروهاً حتى داخل قسمه . وكان لياس يعرف ذلك عن طريق المنشقين ، وعن طريق رايباك الذي عايش مندت بصفته عضواً في المجلس الأعلى للحزب الاشتراكي الموحد ـ وجلس معه في لجان أمنية ، وكان يمقته .

وكما أتضح ، كان ذلك صحيحاً لأن مندت قتله .

وحتى ١٩٥٩ كان مندت موظفاً صغيراً في دائرة الأستخبارات ، يعمل في لندن تحت غطاء بعثة الحديد والصلب الألمانية الشرقية . وعاد مسرعاً الى المانيا بعد قتله لاثنين من وكلائه لينجو بنفسه ولم يسمع عنه لأكثر من سنة . ولجأة ، عاد الى الظهور في المقر الرئيس لدائرة الاستخبارات في لايبزج كرئيس لقسم الطرق والوسائل المسؤول عن تخصيص العملات ، والمعدات والملاك للمهام الخاصة . وفي نهاية تلك السنة ، حدث الصراع الكبير على السلطة داخل دائرة الاستخبارات . فقد قلّص عدد ضباط الارتباط السوفيت ونفوذهم الى درجة كبيرة ، وطرد العديد من المحاربين القدماء لأسباب ايديولوجية وبرز ثلاثة رجال : فيدلر رئيساً للاستخبارات المضادة ، وجان الذي تسلم من مندت رئاسة قسم التسهيلات ، وفاز مندت بالجائزة ـ فقد أصبح نائب مدير العمليات في سن الحادية والأربعين . عندها ، بدأ الأسلوب الجديد . كان أول عميل فقده لياس فتاة . كانت مجرد حلقة ربط صغيرة في الشبكة . وقد أستخدمت في مهام جاسوسية . قتلوها في الشارع وهي تغادر دار سينما في برلين الغربية . ولم تعثر الشرطة على القاتل ، وكان لياس في البداية ميالاً الى شطب الحادث على أساس أن لا علاقة له بعملها . وبعد شهر ، عثر على حال في سكك الحديد في درسون ، وكان عميلاً مطروداً من شبكة بيتر غيلام ، عثر عليه ميتاً ومشوهاً الى جانب خط سكة حديد . وأدرك لياس أن الأمر ليس مصادفة . وبعد ذلك مباشرة ، ألقي القبض على عضوين آخرين من شبكة لياس وحكم عليهما بالاعدام بسرعة . وهكذا استمرت الحال : مثيرة للأعصاب وخالياً من الرحمة . والآن ، تمكنوا من كارل ، وغادر لياس برلين مثلما جاء ـ دون عميل واحد يستحق التقدير . وكسب مندت .

كان لياس رجلاً قصيراً له شعر قصير أشيب رمادي ، وبنية سبّاح . كان قوياً جداً . هذه القوة بدت جلية في ظهره وكتفيه ، وفي رقبته ، وفي التكوين الخشن ليديه وأصابعه .

Amly نهضة العرب

كان إنساناً عملياً في الملبس ، كما كان حاله في معظم الأشياء الأخرى ، وحتى النظارة التي كان يستعملها أحياناً كانت ذات إطار فولاذي . وكانت معظم بدلاته من النسيج الإصطناعي ، من قطعتين دون صدرية . وكان يفضل القمصان من الطراز الأمريكي ذات الأزرار الموجودة على أطراف الياقات وأحذية مخططة ذات نعل مطاطي .

كان له وجه جذاب مشدود العضلات ، ذو خط عنيد يمتد الى فمه الصغير . وكانت عيناه بنيتين صغيرتين ، تشبه عيون الإيرلنديين ، كما قال بعض الناس . كان من الصعب تحديد هوية ليماس . فلو صادف أن دخل الى نادٍ لندني فإن البواب لن يشك بالتأكيد في عضويته . وفي نادٍ ليلي برليني أعتادوا تقديم أفضل مائدة له . كان له مظهر رجل يمكنه خلق مشاكل ، رجل يحرص على أمواله ، رجل لم يكن جنتلماناً حقيقياً .

حسبته المضيفة رجلاً مهماً . وخمنت أنه من شمال إنجلترا وربما كان كذلك ، وظنته ، غنياً ، لكنه لم يكن كذلك وقدرت عمره بالخمسين ، وكان تخميناً قريباً الى الحقيقة . كما خمنت أنه كان أعزب ، وكان ذلك نصف الحقيقة . ففي مكان ما قبل زمن طويل ، حدث طلاق ، وفي مكان ما ، كان هناك أطفال ، وهم الآن في سني مراهقتهم ، يستلمون تخصيصاتهم من مصرف خاص في المدينة .

قالت المضيفة : " إذا كنت ترغب في كأس ويسكي آخر عليك أن تسرع . فسنكون في مطار لندن خلال عشرين دقيقة . "

ـ " لا مزيد . " لم ينظر اليها . كان ينظر من خلال الشباك الى حقول كِنت الخضراء ـ الرمادية .

أستقبله فاولي في المطار وقاده الى لندن بالسيارة . " المشرف منزعج جدا بشأن كارل . " قال ذلك وهو ينظر جانباً الى ليماس فأومأ ليماس برأسه . سأل فاولي ، " كيف حدث الأمر ؟ "

ـ " أطلقوا النار عليه . تمكن منذت منه . "

ـ " مات ؟ "

ـ " أعتقد ذلك الآن . من الأفضل أن يموت . كاد أن ينجح . ما كان عليه ابداً أن يسرع ، فلم يكن بإمكانهم التأكد ، لقد وصل رجال الأستخبارات الى نقطة التفتيش بعد أن سمح له . أطلقوا صفارة الإنذار وأصابه شرطي حدود قبل أن يصل الخط بعشرين ياردة . تحرك على الأرض للحظة . ثم خمد . "

Amly نهضة العرب

ـ " يا للنغل المسكين . "
قال ليماس : " بالضبط . "
لم يكن فاولي يحب ليماس ، ولو كان ليماس يعلم ذلك لما أهتم . كان فاولي رجلاً ينتمي الى النوادي ويرتدي أربطة عنقية مثلين ، وهو مدرب على مهارات الرياضيين ويتولى مرتبة خدمية في مراسلات الدائرة . كان يظن بأن ليماس مشتبه به وكان ليماس يظنه أحمق . سأله ليماس :" في أي قسم أنت ؟ "
ـ " الأفراد . "
ـ " أتحبه ؟ "
ـ " رائع . "
ـ " أين سيكون مكاني الآن ؟ مجمدٌ ؟ "
ـ " من الأفضل أن يبلغك المشرف يا فتاي العجوز . "
ـ " هل تعرف ؟ "
ـ " بالطبع . "
ـ " إذن ، لماذا بحق الجحيم لا تخبرني . "
رد فاولي : " آسف يا رجلي الكبير . " . فجأة ، كاد ليماس أن يفقد أعصابه . ثم فكّر بأن فاولي ربما كان يكذب .
ـ " حسناً ، قل لي شيئاً واحداً ، إن لم يكن لديك مانع ؟ هل عليّ أن أبحث عن شقة تعيسة في لندن ؟ "
حك فاولي أذنه : " لا أعتقد ذلك يا رجل ، لا . "
ـ " لا ؟ شكراً لله على ذلك . "
توقفا قرب ميدان كيمبرج عند عدّاد وقوف ، ودخلا معاً الى الصالة .
ـ " ليس لديك جواز دخول ، أليس كذلك ؟ من الأفضل أن تملأ قصاصة يا رجل . "
ـ " منذ متى كانت لنا جوازات مرور ؟ مكول يعرفني كما يعرف أمه . "
ـ " روتين جديد فحسب . فالميدان يتسع كما تعلم . " لم يقل ليماس شيئاً ، وأومأ برأسه لمكول ودخل الى المصعد دون جواز مرور .

هز المشرف يده بعناية فائقة كأنه طبيب يتفحص العظام .
قال معتذراً : " لا بد أنك متعب جداً . إجلس . " نفس الصوت الموحش ، نفس النهيق المألوف .
جلس ليماس على كرسي يواجه ناراً كهربائية خضراء زيتونية وقد استقر

Amly نهضة العرب

فوقها وعاء فيه ماء .

سأله المشرف : " هل تجد الجو بارداً ؟ " كان ينحني فوق النار وهو يفرك يديه . كان يرتدي كنزة صوفية تحت سترته السوداء . وتذكر ليماس زوجة المشرف ، امرأة ضئيلة غبية تدعى " ماندي" بدت وكأنها تظن أن زوجها كان يعمل في هيأة الفحم . وأفترض أنها هي التي حاكت الكنزة .

استمر المشرف قائلاً : " إنه جاف جداً ، تلك هي المشكلة . إدحر البرد وسيدحرك العطش . الأمران . بنفس مستوى الخطورة . " إتجه نحو المنضدة وضغط على زر . قال : " سنحاول الحصول على قهوة . المشكلة أن جيني في إجازة وقد أعطوني فتاة جديدة . الأمر في غاية السوء . " كان أقصر من الصورة التي حفظتها ذاكرة ليماس . أما باستثناء ذلك ، فهو مطابق للصورة . الترفع المتكلف نفسه ، الغرور المحافظ نفسه ، الرعب نفسه من الإصابة بتيارات البرد ، وتلك الدمائة التي تتحكم فيها صيغ شديدة البعد عما يعرفه ليماس . الابتسامة البيضاء الحليبية نفسها ، الاحتراس المبالغ فيه نفسه ، الالتزام نفسه بقواعد السلوك التي يتظاهر بالسخرية منها . التفاهة نفسها .

جلب علبة سجائر من المنضدة وأعطى ليماس واحدة .

ـ " ستجد الأمور باهظة جداً . " هز ليماس رأسه بدافع من المجاملة . وبعد أن دس السجائر في جيبه ، جلس المشرف .

ساد صمت . أخيراً ، قال ليماس : " لقد مات رايماك . "

رد المشرف : " نعم ، في الحقيقة . " وكأن ليماس طرح نقطة جيدة . " مؤلم جداً . على الأغلب . . . أظن أن تلك الفتاة نسفته ـ إلفيرا ؟ "

ـ " أظن ذلك . " لم يكن ليماس ينوي أن يسأله كيف عرف بشأن ألفيرا .

أضاف المشرف : " وقتَله مندت . "

ـ " أجل . "

نهض المشرف ودار حول الغرفة بحثاً عن منفضة سجائر . وجد واحدة ووضعها على نحو سمج بين كرسيهما .

ـ " كيف كان شعورك ؟ أقصد ، حين قتل رايماك ؟ لقد شهدت الحادث ، أليس كذلك ؟ "

هز ليماس كتفيه وقال : " انزعجت كثيراً . "

مال المشرف برأسه جانباً ، وأغمض عينيه نصف إغماضة : " بالتأكيد كان شعورك أكثر من ذلك ؟ "

Amly نهضة العرب

ـ " بالتأكيد كنت منزعجاً ؟ كان ذلك أمراً طبيعياً . "
ـ " كنت منزعجاً ، ومَنْ لا يكون كذلك . "
ـ " هل أحببت رايباك كانسان ؟ "
قال ليباس مبتسماً : " أعتقد ذلك . وأضاف " لا يبدو أن هناك جدوى من التطرق للموضوع . "
ـ " كيف قضيت الليل ، وما الذي بقي منه ، بعد أن قتل رايباك ؟ "
سأل ليباس بغضب : " إسمع ، ما هذا ؟ ما الذي ترمي اليه ؟ "
قال المشرف متأملاً : " كان رايباك الأخير ، الأخير في سلسلة حوادث قتل ، إذا لم تخني ذاكرتي ، فقد بدأت بالفتاة ، تلك التي قتلوها في وِدنج خارج دار السينما . ثم تلاها رجل درسون والاعتقالات في جينا . مثل الزنوج الصغار العشرة . والآن بول ، فيريك ، لاندسر ، كلهم موتى . وأخيراً رايباك . " وابتسم ابتسامة ساخرة . ثم قال : " ذلك معدل إنفاق ثقيل جداً . وتساءلت إن كنت قد نلت كفايتك ؟ "
ـ " ماذا تعني ـ كفايتي ؟ "
ـ " تساءلت إن كنت متعباً . مستهلكاً . " ثم خيم صمت طويل. وأخيراً ، قال ليباس : " الأمر متروك لك . "
ـ " علينا أن نعيش دون تعاطف ، أليس كذلك ؟ ذلك مستحيل بطبيعة الحال . يمثل أحدنا على الآخر ، كل هذه الصلافة ، لكننا في الواقع لسنا كذلك . أعني . . . لا يمكن للمرء أن يبقى خارجاً في البرد طوال الوقت . لابد أن يدلف المرء الى الداخل هرباً من البرد . . . هل تفهم ما أقصد ؟ "
فهم ليباس . شاهد الطريق الطويل خارج روتردام ، الطريق الطويل المستقيم الى جانب التلال ، وتيار اللاجئين السائرين على امتداده ، شاهد الطائرة الصغيرة على بعد أميال ، توقف الموكب ، ونظر اليها ، الطائرة تقترب ، تماماً فوق التلال ، شاهد الفوضى ، الجحيم الذي لا معنى له ، حين أخذت القنابل تسقط على الشارع .
قال ليباس أخيراً للمشرف : " لا أستطيع التحدث هكذا . ما الذي تريدني أن افعله ؟ "
ـ " أريدك أن تبقى في البرد أكثر قليلاً . " لم يقل ليباس شيئاً ، لهذا أستمر المشرف قائلاً : " إن أخلاقية عملنا ، كما افهمها ، قائمة على افتراض واحد ، ألا وهو : لن نكون معتدين أبداً . هل تعتقد أن هذا عدلاً ؟ "
أومأ ليباس برأسه . أي شيء لتفادي الكلام .
ـ " وهكذا نفعل أشياء كريهة ، لكننا في وضع دفاعي . ذلك عدل حتى

Amly نهضة العرب

الآن حسب ظني . نحن نقوم بأعمال مقيته كي ينام الناس العاديون هنا وفي أماكن أخرى بأمان في أسرتهم في الليل . فهل هذا إفراط في الرومانسية ؟ طبعاً ، نقوم أحياناً بأفعال شريرة جداً . " وكشر غضباً كتلميذ صغير وأضاف : " وعند مقارنة الأخلاقيات ندخل في مقارنات غير شريفة . على أية حال ، لا يمكنك مقارنة مثاليات جانب مع طرق الجانب الآخر ، هل تستطيع الآن ؟ "

كان ليماس ضائعاً . وكان قد سمع الرجل يتحدث الكثير من الهراء قبل أن يجمع شتاته ، بيد أنه لم يسمع شيئاً كهذا من قبل .

ـ " أقصد أن عليك أن تقارن طريقة بطريقة ، مثالاً بمثال ، أقول ، إنه منذ الحرب ـ وطريقنا وطرق خصومنا ، أصبحت متشابهة كثيراً . أقصد أنك لا تستطيع أن تكون أقل قسوة من الخصم لمجرد أن سياسة حكومتك ميالة الى الخير ، هل تستطيع الآن ؟ " ضحك بهدوء مع نفسه . وأضاف : " لن ينفع ذلك أبداً . "

فكر ليماس : بحق الله ، يبدو الأمر وكأنك تعمل لصالح كاهن لعين . ما الذي يرمي اليه ؟

أستمر المشرف : " هذا هو السبب ، إن علينا حسب اعتقادي أن نحاول التخلص من مندت . . . حقاً . " أكمل وهو يستدير منزعجاً نحو الباب ، " أين تلك القهوة اللعينة ؟ "

مضى المشرف الى الباب ، فتحه وتحدث الى فتاة غير مرئية في الغرفة الخارجية . أثناء عودته قال : " أعتقد فعلاً بأن علينا التخلص منه إن أستطعنا الى ذلك سبيلاً . "

ـ " لماذا ؟ لم يبق لدينا شيء في المانيا الشرقية . لا شيء على الإطلاق . لقد قلت لتوك أن رايباك كان الأخير . لم يبق لدينا شيء نحميه . "

جلس المشرف ونظر الى يديه لوهلة . وقال أخيراً ، " هذا ليس صحيحاً تماماً . لكنني لا أعتقد بأنني بحاجة الى أن أضجرك بالتفاصيل . "

هز ليماس كتفيه .

واصل المشرف : " قل لي ، هل تعبت من التجسس ؟ أعذرني لتكرار السؤال . أقصد أنها ظاهرة نفهمها هنا ، كما تعلم . مثل مصممي الطائرات . . . إجهاد معدني ، هذا هو التعبير على ما أظن . قل إن كنت كذلك . "

تذكر ليماس رحلة العودة الى الوطن ذلك الصباح وراح يتأمل .

أضاف المشرف : " إن كنت متعباً ، سيكون علينا إيجاد طريقة أخرى

Amly نهضة العرب

للتعامل مع مندت إن ما في ذهني شيء بسيط غير مألوف . "

دخلت الفتاة حاملة القهوة . وضعت الصينية على المنضدة وصبت القهوة في فنجانين . انتظر المشرف الى أن غادرت الغرفة .

قال مع نفسه : " فتاة سخيفة كهذه . يبدو من الغريب أنهم ليسوا قادرين على ايجاد فتيات أفضل بعد الآن . أتمنى لو أن جيني لم تذهب في إجازة في أوقات كهذه " . حرّك قهوته وقد لبسه الهم لحظة .

قال : " علينا فعلاً أن نخزي مندت . قل لي ، هل تشرب كثيراً ؟ ويسكي وأشياء من هذا القبيل ؟ "

كان ليماس قد أعتقد بأنه أعتاد على المشرف . . .

ـ " أشرب قليلاً . أكثر من الأغلبية . على ما أظن . "

هز المشرف رأسه متفهماً . " ماذا تعرف عن مندت ؟ "

ـ " إنه قاتل . كان هنا قبل سنة أو سنتين مع هيئة الحديد والصلب الألمانية الشرقية . كان لنا مستشار هنا في وقتها يدعى ماستون . "

ـ " بالضبط . "

ـ " وكانت لـ مندت عميلة ، زوجة رجل من وزارة الخارجية . قتلها . "

ـ " حاول قتل جورج سمايلي . وبالطبع هو الذي أطلق النار على المرأة . إنه رجل بغيض جداً . كان من جيل الشباب الذي سبق عهد هتلر وشيء من هذا القبيل . ليس بقريب على النوع المثقف من الشيوعيين . ممارس من ممارسي الحرب الباردة . "

رد ليماس بجفاء : " مثلنا . "

لم يبتسم المشرف : " كان جورج سمايلي يعرف القضية جيداً. لم يعد معنا لكنني أعتقد أن عليك أن تبحث عنه . فهو يعيش في تشِلسي ، خلف ميدان سلّون ، شارع بايوتر ، هل تعرفه ؟ "

ـ " نعم . "

ـ " كان غيلام في القضية أيضاً . وهو في قسم التوابع الرابع ، في الطابق الأول . أخشى أن كل شيء تغير منذ كنت هنا . "

ـ " نعم . "

ـ " إقض يوماً أو يومين معهما . فهما يعلمان ما الذي يدور في رأسي . ثم أنني أريد أن أعرف إن كنت لا تمانع في البقاء معي في نهاية الأسبوع . فزوجتي ، " أضاف على عجل ، " تعتني بأمها . سنكون أنا وأنت فقط . "

ـ " شكراً ، أود ذلك . "

Amly نهضة العرب

ـ " عندها ، نستطيع التحدث عن الأشياء بهدوء . سيكون الأمر لطيفاً جداً . وأعتقد أنك قد تكسب الكثير من المال منها . تستطيع أن تأخذ كل ما تكسبه . "

ـ " شكراً . "

ـ " هذا بالطبع إن كنت واثقاً من أنك ترغب في . . . لا إجهاد عقلي أو أي شيء ؟ "

ـ " إذا كان الأمر يتعلق بقتل مندت ، فأنا عازم . "

تساءل المشرف بأدب : " هل تشعر حقاً بهذا ؟ "

بعد أن نظر الى ليماس نظرة تأمل قصيرة ، قال ملاحظاً : " نعم ، أعتقد حقاً أنك هكذا . لكن ، يجب ألاّ تشعر بأن عليك التصريح بذلك . أعني أننا في عالمنا نجتاز بسرعة شديدة سجل الكراهية أو الحب مثل أصوات معينة لا يستطيع كلب سماعها . كل ما يتبقى في النهاية نوع من الغثيان . فلن ترغب أبداً في تسبيب المعاناة مرة أخرى . سامحني ، لكن ، ألم يكن ذلك هو شعورك عندما قتل كارل رايباك ؟ لا كراهية لمندت ولا حب لكارل ، بل صدمة مريرة مثل لكمة على جسد خدِر . . . قالوا لي بأنك بقيت تمشي طوال الليل ـ تمشي فقط في شوارع برلين . هل هذا صحيح ؟ "

ـ " صحيح ، خرجت للتمشي . "

ـ " طوال الليل ! "

ـ " نعم . "

ـ " ماذا حدث لإلفيرا ؟ "

ـ " الله أعلم . . . أود ان أوجه ضربة لمندت . "

ـ " جيد . . جيد . بالمناسبة ، أذا صادف وقابلت أياً من الاصدقاء القدامى في أثناء هذا ، لا أعتقد بوجود ضرورة في مناقشة الأمر معهم . في الحقيقة ، " وأضاف المشرف بعد لحظة ، " أفضل أن أكون جافاً معهم . دعهم يعتقدون أننا أسأنا معاملتك . إنه من الأفضل أن تبدأ على النحو الذي تريده أن يستمر ، أليس كذلك ؟ "

Amly نهضة العرب

٣ * أفول

حين وضعوا ليماس على الرف ، لم يفاجأ أحد كثيراً . قالوا ، في الأغلب ، إن برلين كانت تشكل فشلاً لسنوات وكان على أحدهم أن يتحمل الوزر . الى جانب هذا ، كان كبيراً في السن بالنسبة للعمل الميداني حيث يجب أن تكون استجاباتك في الغالب سريعة سرعة استجابات لاعب تنس محترف . لقد أدى ليماس عملاً جيداً في الحرب ، الكل يعرف ذلك . ففي النرويج وهولندة ظل بطريقة ما حياً على نحو مثير ، وفي نهايتها منحوه وساماً وسرحوه . وفيما بعد ، طبعاً ، طلبوا منه العودة . كان سوء الحظ هو المسؤول عن وضعه التقاعدي . سوء الحظ بالتأكيد . وقد سرب قسم الحسابات الخبر ، من خلال إلزي التي قالت في المطعم بأن المسكين أليك ليماس سيحصل على ٤٠٠ جنيهاً فقط في العام بسبب خدمته المتقطعة ، وكانت إلزي ترى بأنها قاعدة يجب تغييرها . قالت : لقد أدى السيد ليماس الخدمة ، أليس كذلك ؟ لكن وزارة الخزانة كانت تقف وراءهم هناك ، لا شيء يشبه الأيام الخوالي . وماذا فعلوا ؟ حتى في أيام ماستون السيئة كانوا يديرون الأمور بصورة أفضل .

قيل للرجال الجدد أن ليماس كان من المدرسة القديمة : دم وجرأة وكريكت وفرنسية على مستوى المدرسة الثانوية . وفي حالة ليماس ، كان هذا ظلماً إذ أنه كان يجيد الألمانية والانجليزية وكانت لغته الهولندية مثيرة للأعجاب ، وكان لا يحب الكريكت . وأخيراً ، لم يكن صاحب شهادة .

كان عقد ليماس يوشك على الانتهاء فوضعوه في قسم المصارف لينهي فترته . وكان قسم المصارف يختلف عن الحسابات ، فقد تعامل مع مدفوعات ما وراء البحار وتمويل العملاء والعمليات ، وكان بامكان صبي مكتب أن يدير معظم المهام في القسم لولا درجة السرية العالية التي تتضمنها ، وهكذا كان قسم المصارف واحداً من عدة أقسام في الدائرة تعد من أماكن ابعاد

Amly نهضة العرب

الموظفين الذين يوشك دفنهم .

لقد شاخ ليماس .

تعتبر عملية الأفول هذه عموماً عملية طويلة ، لكن ، لم يكن الأمر هكذا مع ليماس . ففي نظر زملائه كان قد حوّل من رجل عزل بشرف الى حطام مدمن متذمر ـ وكل هذا خلال أشهر معدودات . هناك نوع من الغباء بين السكّيرين وخاصة عندما يكونون في حالة صحو ، نوع من عدم الربط الذي يفسره غير المتابعين بأنه غموض والذي بدا أن ليماس أخذ يكتسبه بسرعة غير طبيعية . ارتكب احتيالات صغيرة ، واقترض مبالغ ضئيلة من السكرتيرات وأهمل إعادتها ، كان يصل متأخراً أو كان يغادر مبكراً بحجة غير مفهومة . في البداية ، عامله زملاؤه باهتمام ، فربما أخافهم انهياره بنفس الطريقة التي نخاف بها من المعوقين والشحاذين والمرضى لأننا نخشى أن نصبح مثلهم . لكن ، في نهاية الأمر ، كان إهماله وحقده الوحشي الشديد قد عزله .

ومما أثار دهشة الجميع أن ليماس لم يكن ليهتم بوضعه على الرف . ويبدو أن إرادته انهارت فجأة . وقد ذعرت السكرتيرات الجديدات اللائي يرفضن التصديق بأن دوائر الاستخبارات مأهولة بأناس عاديين ، وهن يلاحظن تدهور ليماس الواضح . قلّ اهتمامه بمظهره وملاحظته لما يدور حوله ، وصار يتغدى في مطعم الدائرة الذي كان حكراً على صغار الموظفين وكان واضحاً انه أدمن الشرب . وصار منعزلاً ، منتمياً الى تلك الطبقة المأساوية من الرجال النشطين الذين حرموا قبل أوانهم من النشاط ، سبّاحون حرم الماء عليهم أو ممثلون أبعدوا عن خشبة المسرح .

قال بعضهم أنه أرتكب خطأً في برلين ، وهذا هو سبب كشف شبكته . ولم يعرف أحد السبب بالضبط . واتفق الجميع على أنه عومل بقسوة غير عادية حتى من قبل قسم الأفراد الذي لم يعرف عنه حب الخير . وصار يشار اليه خفية كلما مر كما يشير الناس الى بطل رياضي من الماضي ويقولون : " ذاك هو ليماس . إرتكب خطأً في برلين . محزنة هي الطريقة التي أنهى بها نفسه . "

وبعدها ، توارى يوماً عن الأنظار . لم يقل وداعاً لأي شخص ولا حتى للمشرف على ما يبدو . لم يكن ذلك مثيراً للاستغراب بحد ذاته . فطبيعة العمل الاستخباري لا تشمل احتفالات توديع مطولة وتقديم ساعات ذهبية ، لكن ، حتى وفق هذه السياقات كان رحيل ليماس مفاجئاً . وحسب الظاهر من التقديرات ، فأن رحيله قد حدث قبل النهاية القانونية لعقده . وقدمت إلزي من قسم الحسابات ، معلومة أو معلومتين مفادهما : أن ليماس سحب

Amly نهضة العرب

باقي حسابه نقداً ، وهذا يعني ، إن كانت إلزي تفهم شيئاً ، أنه كان يواجه مشاكل مع مصرفه . وكان من المقرر دفع مخصصات إنهاء عمله عند نهاية الشهر ، ولم تذكر المبلغ ، بيد أنه لم يكن من أربعة أرقام ، يا للحمل المسكين . وقد تم إرسال بطاقة التأمين الوطني الخاصة به ، وكان لدى قسم الأفراد عنوان له ، أضافت إلزي بازدراء ، لكنهم لم يكشفوا عنه بالطبع ، فهذا ليس من عادة قسم الأفراد .

ثم كانت قصة النقود . تسربت ولم يعرف أحد كالعادة من أين ـ وهي ان رحيل لياس المفاجيء ارتبط بتلاعبات في حسابات قسم المصاريف . فقد مبلغ كبير (ليس ثلاثة أرقام بل أربعة أستناداً الى سيدة زرقاء الشعر كانت تعمل في غرفة الهاتف) . وقد أستعادوه كله تقريباً ، وحجزوا راتبه التقاعدي .

قال آخرون إنهم لم يصدقوا الحكاية ـ فلو أراد أليك أن يسرق الصندوق فإنه كان سيسلك طرقاً أفضل من التلاعب بحسابات المقر الرئيسي . ليس المقصود إنه لم يكن قادراً على ذلك ـ كان بإمكانه أن يفعلها بصورة أفضل . إلا أن أولئك الذين لم يتأثروا كثيراً بإمكانية لياس الإجرامية أشاروا الى استهلاكه لكميات كبيرة من الكحول ، والى تكاليف عيشه في بيت منفصل ، والى البون الشاسع بين الراتب في الداخل والمخصصات في الخارج ، وفوق كل شيء ، أشاروا الى المغريات التي توضع على طريق رجل يتعامل مع مبالغ كبيرة من الأموال الساخنة عندما كان يدرك أن أيامه في الخدمة كانت معدودة .

لقد اتفق الجميع على أنه لو كان أليك قد مد يده الى الصندوق فإن ذلك يعني أنه قد انتهى ـ فالعاملون في قسم إعادة التشغيل لن ينظروا اليه ولن يعطيه قسم الأفراد توصية ـ أو يعطيه توصية باردة جداً يرتجف لها أكثر أصحاب العمل حماساً . فالاختلاس هو الخطيئة الوحيدة التي لن يسمح قسم الأفراد بنسيانها ـ ولن ينسوها هم أنفسهم . وإذا صح ان أليك سرق الدائرة ، فسيأخذ معه غضب قسم الأفراد الى القبر ـ ولن يدفع القسم ثمن الكفن .

ولأسبوع أو أسبوعين بعد رحيله ، تساءل عدد قليل من الناس عما حلّ به . إلا أن أصدقاءه السابقين كانوا قد تعلموا الابتعاد عنه . فقد أصبح شخصاً ثقيلاً ، يهاجم على الدوام الدائرة وإدارتها وما أسماه بـ " صبيان الفروسية " الذين ، حسب قوله ، أداروا شؤونها وكأنها نادٍ عسكري . لم يضع فرصة أبداً للتهجم على الأمريكان ووكالات إستخباراتهم . بدا أنه يكرههم أكثر من كراهيته لقسم الاستخبارات الألماني الشرقي الذي ندر أن

Amly نهضة العرب

أشار اليه ، إذا كان قد أشار حقاً ، وكان يلمح الى أنهم هم الذين حطموا شبكته ، ويدا هذا وكأنه هوس يلازمه . وكان رداً بائساً على محاولات تهدئته ، وصار نديماً سيئاً حتى أن أولئك الذين عرفوه والذين أحبوه ضمناً ، شطبوه ، فلم يكن رحيل ليماس إذن سوى موجة في بحر ، سرعان ما طواها النسيان مع الريح وتغير المواسم .

كانت شقته صغيرة وقذرة مصبوغة بلون بني وتغطيها صور كلوفلي . كانت تطل مباشرة على الخلفيات الرمادية لثلاثة مخازن مبنية من الصخر وقد طليت شبابيكها ، ولأسباب جمالية ، بصبغة صفراء .

كانت هناك عائلة إيطالية تسكن فوق المستودع تتشاجر في الليل وتنظف السجاد في الصباح . لم يكن لدى ليماس الكثير من الممتلكات ليجمل غرفه . اشترى مظلات لتغطية المصابيح وزوجاً من الملاءات لتحل محل الملاءة ذات المربعات التي وفرها صاحب الملك .

وأبقى ليماس على بقية الأشياء : الستائر المطبوعة بالزهور والتي كانت تفتقر إلى البطانة والحاشية ، السجاد البني المهلهل ، والأثاث الخشبي الأسود غير المتقن . وكان يحصل على الماء الساخن من سخان أصفر متهاو مقابل شلن واحد .

كان بحاجة الى عمل . لم يكن لديه مال على الاطلاق . لذلك ربما صحت قصص الاختلاس . وقد بدت العروض التي قدمتها الدائرة لإعادة تشغيله فاترة وغير ملائمة بدرجة غريبة . حاول أولاً الحصول على عمل في التجارة . فقد أظهرت شركة للمواد الصناعية اللاصقة اهتماماً بطلبه العمل في وظيفة مساعد مدير وموظف أفراد . ولم يكترثوا للتوصية السلبية التي زودته بها الدائرة ، كما أنهم لم يطلبوا أية مؤهلات خاصة . وقد عرضوا عليه ستمائة جنيه سنوياً . بقي أسبوعاً ، وخلال هذه الفترة غزت عفونة زيت السمك المتعفن القاتلة ملابسه وشعره ، وراحت تفوح من منخريه كرائحة الموت . ولم تكن هناك إمكانية لازاحتها بالغسيل مهما بذلت من جهود ، حتى انه أضطر في النهاية الى قص شعره حتى جلد رأسه وتخلص من اثنين من أفضل بدلاته . قضى أسبوعاً آخر وهو يحاول بيع موسوعات لربات بيوت في الضواحي ، لكنه لم يكن رجلاً تحبه أو تفهمه ربات البيوت . فلم يستهوهن ليماس ولا موسوعاته . وليلة بعد ليلة ، كان يعود متعباً الى شقته ، متأبطاً عينته المضحكة ، وفي نهاية أحد الأسابيع ، إتصل بالشركة هاتفياً وأبلغها انه لم يبع شيئاً . ودون إظهار دهشة ، ذكروه بالتزامه بإعادة العينة إذا ما توقف

Amly نهضة العرب

عن العمل لحسابهم و أغلقوا الخط . خرج ليماس على مهل من حجرة الهاتف وهو يفور غضباً تاركاً العينة وراءه ، ثم ذهب الى حانة وسكر بما كلفه خمسة وعشرين شلناً لم يكن بوسعه دفعها . ثم رموه خارجاً بسبب صراخه على امرأة حاولت إغواءه . وأبلغوه بعدم العودة أبداً ، لكنهم نسوا كل شيء عن الموضوع بعد أسبوع . فقد بدأوا يعرفون ليماس هناك .

بدأوا يعرفونه في مكان آخر أيضاً ، ذلك الشكل الرمادي المتثاقل القادم من الشفق . لم ينطق بكلمة واحدة زيادة عما يلزم ، ولم يكن لديه صديق ، لا رجل ولا امرأة ولا حيوان . ظنوا أنه كان متورطاً في مشكلة ، أو أنه هارب من زوجته . لم يكن يعرف أبداً ثمن أي شيء ولا يتذكره عندما يعطى له . وكان يريت على كل جيوبه كلما بحث عن عملة نقدية ، ولم يتذكر أبداً أن يجلب سلّة فهو يشتري دائماً حقائب تسوق . لم يحبه الناس في الشارع لكنهم كانوا آسفين تقريباً لأجله . وأعتقدوا أنه كان قذراً كذلك ، من الطريقة التي لم يحلق بها ذقنه في نهايات الأسبوع ، وكانت قمصانه جميعها مهلهلة . وقامت امرأة تدعى السيدة مكيرد من جادة سدبري بتنظيف بيته لمدة أسبوع ، ولعدم سماعها كلمة مؤدبة منه أوقفت خدماتها . وكانت مصدر معلومات مهم في الشارع حيث كانت تبلغ الباعة فيبلغ أحدهم الآخر بما يحتاجون الى معرفته في حال قيامه بطلب قرض . ونصحت السيدة مكيرد بعدم تقديم قرض له ، قالت إن ليماس لم يتلق رسالة قط ، وأتفقوا على ان ذلك أمر خطير . ولم يكن لديه صور وكانت هناك بعض الكتب . اعتقدت أن أحد الكتب كان قذراً لكنها لم تتأكد لأنه كان مكتوباً بلغة أجنبية . وكانت ترى كذلك أنه يمتلك القليل ليعيش عليه وأن ذلك القليل كان في طريقه الى النفاد . وعرفت أنه كان يسحب الإعانة أيام الخميس ، وتم تحذير منطقة بيزوتر ولم تكن بحاجة الى تحذير ثانٍ . وسمعوا من السيدة مكيرد أنه كان يفرط فى الشرب وأكد ذلك ساقي الحانة . فالسقاة والمنظفات ليسوا مرشحين لإقراض الزبائن نقوداً لكن ما لديهم من معلومات تثمن جداً من قبل من هم مرشحين لذلك .

Amly نهضة العرب

٤ * ليز

أخيراً ، قَبِل الوظيفة في المكتبة التي كان مكتب التشغيل يحيطه علماً بتفاصيلها كل يوم خميس أثناء سحب مساعدة البطالة ، وكان يرفضها دائماً .

قال السيد بت : " هذه ليست الوظيفة الملائمة ، لكن راتبها جيد وعملها سهل على رجل متعلم . "

سأل ليماس : " أي نوع من المكتبات ؟ "

ـ " إنها مكتبة بيزووتر للأبحاث النفسية . لقد تلقت هبة . آلاف المجلدات من كل الأصناف ، ولديهم الكثير قبل ذلك . وهم بحاجة الى مساعد آخر . "

أخذ إعانة العاطلين وقصاصة الورق . أضاف السيد بت : " هم مجموعة غريبة . لكنك لا تعتزم الاستقرار على أية حال ، أليس كذلك ؟ أعتقد أنه حان الوقت كي تحاول معهم ، أليس كذلك ؟ "

كان هناك شيء غريب بشأن بت . كان ليماس متأكداً من انه رآه من قبل في مكان ما . في الدائرة أو خلال الحرب . كانت المكتبة كقاعة كنيسة ، باردة جداً . جعلتها المدافىء النفطية السود الموجودة عند كل طرف تفوح برائحة النفط . وفي وسط الغرفة ، كان هناك مهجع كأنه صندوق شهود وفي داخله جلست الآنسة كريل أمينة المكتبة .

لم يخطر ببال ليماس من قبل أنه قد يضطر الى العمل تحت إمرة امرأة . ولم يقل أحد في مكتب التشغيل شيئاً عن ذلك .

قال : " أنا المساعد الجديد . وإسمي ليماس " . ألقت الآنسة كريل بنظرة حادة من حافة فهرس بطاقاتها وكأنها سمعت كلمة جارحة . مساعد ؟ ماذا تقصد بمساعد ؟ "

ـ " مساعد مكتبي . من طرف مكتب التشغيل . السيد بت . " ودفع عبر المنضدة أستمارة مع أوراقه الخاصة مكتوبة بخط مائل ـ التقطتها

Amly نهضة العرب

ودرستها .

ـ " أنت السيد لياس . " لم يكن هذا سؤالاً ، بل المرحلة الأولى من تحقيق مجهد لايجاد الحقائق .

ـ " وأنت من مكتب التشغيل . "

ـ " لا ، هم أرسلوني . قالوا لي إنكم بحاجة الى مساعد . "

ـ " فهمت ، " وابتسمت ابتسامة يابسة .

في تلك اللحظة ، دق جرس الهاتف ، رفعت السماعة وبدأت الجدال مع شخص ما وبشراسة . خمن لياس إنهما كانا يتجادلان طوال الوقت . لم تكن هناك مقدمات . إرتفع صوتها درجة ، وبدأت تتحدث عن بطاقات لحفل موسيقي . أصغى دقيقة او اثنتين ثم سار نحو رفوف الكتب . لاحظ فتاة واقفة على سلّم وهي تصنف مجلدات كبيرة .

قال : " أنا الرجل الجديد . وإسمي لياس . " نزلت من السلّم وصافحته بطريقة رسمية قليلاً . " أنا لِز غولد . كيف حالك . هل قابلت الآنسة كريل ؟ "

ـ " نعم ، لكنها مشغوله بالهاتف الآن . "

ـ " تتحدث مع والدتها على ما أتوقع . ما الذي ستفعل ؟ "

ـ " لا أدري . أي عمل . "

ـ " نقوم بالتأشير حالياً . فقد بدأت الآنسة كريل فهرساً جديداً . "

كانت فتاة طويلة ، تعوزها الرشاقة ، ذات خصر طويل وساقين طويلتين . وكانت تنتعل حذاء مسطحاً من النوع الذي يتعل في البالية كي تبدو قصيرة . وكان وجهها مثل جسدها يحمل سمات كبيرة بدت موزعة بين الدمامة والجمال . خمن لياس أنها كانت في الثانية أو الثالثة والعشرين من عمرها ، وأنها يهودية .

ـ " كل ما في الأمر هو التأكد من وجود كل الكتب في رفوفها . هذا هو قسم المراجع ، كما ترى . وبعد أن تكون قد أكملت التدقيق ، تدون بالقلم الرصاص في المرجع الجديد وتلغيه من الفهرس . "

ـ " ثم ماذا بعد ذلك ؟ "

ـ " لا يسمح إلاّ للآنسة كريل بختم المرجع . إنها القاعدة . "

ـ " قاعدة من ؟ "

ـ " قاعدة الآنسة كريل . لم لا تبدأ بكتب الآثار ؟ "

أومأ لياس برأسه وسارا معاً الى الفجوة التالية حيث كان هناك دولاب مليء بالبطاقات ملقى على الأرض . سألته : " هل سبق لك أن قمت بعمل

Amly نهضة العرب

كهذا ؟ "

ـ " لا . " توقف والتقط حفنة من البطاقات وخلطها .

ـ " لقد أرسلني السيد بت من مكتب التشغيل " . وأعاد البطاقات .

تساءل لياس : " هل الآنسة كريل هي الوحيدة التي تستطيع ختم البطاقات كذلك ؟ "

ـ " نعم . "

تركته هناك . بعد لحظة تردد ، تناول كتاباً ونظر الى الورقة البيضاء . كان بعنوان **اكتشافات آثارية في آسيا الصغرى ، الجزء الرابع** . يبدو أنهم لا يملكون سوى الجزء الرابع .

كانت الساعة هي الواحدة وكان لياس جائعاً جداً ، لذلك أتجه الى حيث كانت لز غولد تصنف وقال " ماذا عن الغداء ؟ "

ـ " آه ، إجلب شطائر . " بدت محرجة قليلاً . " تستطيع أن تأخذ واحدة مني إن كان ذلك ينفع . فليس هناك مقهى قريب . "

هز لياس رأسه .

ـ " شكراً ، سأخرج . لدي بعض الأشياء أتسوقها . " راقبته يشق طريقه عبر الأبواب الدوارة .

عاد عند الثانية والنصف . كانت رائحة الويسكي تفوح منه . وكان يحمل حقيبة تسوق واحدة مليئة بالخضار وأخرى تحتوي على بقاليات . وضعهما في زاوية من الفجوة ويدأ مرة أخرى يحدق في سأم بكتب الآثار . كان يضع الإشارات لحوالي عشرة دقائق عندما أدرك أن الآنسة كريل كانت تراقبه .

ـ " سيد لياس . "

كان في منتصف السلّم ، لذلك نظر اليها من فوق كتفه وقال : " نعم ؟ "

ـ " هل تعرف مصدر حقائب التسوق هذه ؟ "

ـ " إنها لي . "

ـ " مفهوم . لك . " وانتظر لياس . وواصلت أخيراً : " آسفة ، إننا لا نسمح بإدخال الحقائب الى المكتبة . "

ـ " أين أستطيع ان أضعها إذن ؟ ليس هناك مكان آخر أضعها فيه . "

ردت عليه : " ليس في المكتبة . " . وأهملها لياس وعاد ليهتم بقسم الآثار .

واصلت الآنسة كريل كلامها : " لو كنت قد أخذت ساعة الغداء العادية ، لما كان لديك الوقت للذهاب للتسوق على أية حال . فلا أنا ولا

Amly نهضة العرب

الآنسة غولد نفعلها ، ليس لدينا وقت للتسوق . "

سأل ليماس : " ولماذا لا تأخذون نصف ساعة إضافية ؟ سيكون لديكم وقت عندها . وإذا ما اقتضى الأمر تستطيعون العمل نصف ساعة أخرى في المساء . إذا ما ضغط عليكم . "

ظلت واقفة للحظات تراقبه فحسب ، وتفكر في شيء تقوله . وأخيراً ، قالت : " سأناقش الموضوع مع السيد آيرونسايد . " وخرجت .

في الخامسة والنصف تماماً ، إرتدت الآنسة كريل معطفها وغادرت بعد أن قالت : " ليلة سعيدة يا آنسة غولد ، " بطريقة مقصودة . خمن ليماس أنها كانت تفكر في حقائب التسوق طوال فترة ما بعد الظهر . ذهب الى الفجوة التالية حيث كانت غولد تجلس على الدرجة الأخيرة من سلّمها تقرأ ما يشبه نشرة دينية . وإذ رأت ليماس ، أسقطتها بحركة تنم عن الشعور بالذنب في حقيبتها اليدوية ووقفت .

سأل ليماس : " مَنْ هو السيد آيرونسايد ؟ "

أجابت : " لا أظن انه موجود . إنه سلاحها الكبير عندما تتضايق من أجل جواب . مرةً سألتها مَن هو . فراحت تراوغ وقالت بطريقة غامضة لا تهتمي . لا أظن أنه موجود . "

قال ليماس : " أنا لست متأكداً من وجود الآنسة كريل . " وابتسمت لِز غولد .

في السادسة ، أغلقت الأبواب وأعطت المفاتيح لحارس المكتبة ، وهو رجل عجوز مصاب بصدمة منذ الحرب العالمية الأولى . قالت لِز عنه أنه يبقى يقظاً طوال الليل خشية قيام الألمان بهجوم مضاد .

كان الجو قارس البرودة في الخارج .

سأل ليماس : " هل عليك قطع مسافة طويلة ؟ "

ـ " عشرون دقيقة مشياً . دائماً أقطعها مشيا . هل جرّبت ؟ "

قال ليماس : " ليس الى هذا البعد . ليلة سعيدة " . سار متمهلاً عائداً الى الشقة . دخل وأشعل الضوء . لم يحدث شيء . حاول مع الضوء في المطبخ الصغير ، وأخيراً جرب الموقد الكهربائي الموصول بالقرب من سريره . وجد رسالة على ممسحة الأرجل التقطها وأخذها نحو منطقة الضوء الأصفر الباهت عند السلّم . كانت الرسالة من شركة الكهرباء تعلن فيها عن أسفها لأن مدير المنطقة لم يكن أمامه بديل سوى قطع التيار الى أن يتم دفع الحساب المتبقي البالغ تسع جنيهات ، وأربعة شلنات ، وثمانية بنسات .

Amly نهضة العرب

أصبح عدواً للآنسة كريل وكان الأعداء هم ما كانت تحبهم الآنسة كريل . فكانت تعبس في وجهه أو تهمله ، وعندما كان يقترب ، كانت تأخذ بالارتجاف متطلعة يساراً ويميناً ، إما بحثاً عن شيء تدافع به عن نفسها أو ربما عن طريق للهرب . أحياناً ، كانت تشعر بامتعاض مرير خاصة عندما يعلق معطفه المطري على مشجبها ، وكانت تقف أمامه ترتعش لخمس دقائق الى أن تراها لِز وتستدعي ليماس . اتجه ليماس نحوها وقال : " ما الذي يزعجك يا آنسة كريل ؟ "

أجابت بسرعة وبأنفاس مسموعة : " لا شيء . لا شيء على الإطلاق . "

ـ " هل هناك عيب في معطفي ؟ "

ـ " لاشيء على الإطلاق . "

أجاب : " حسناً " ، وعاد إلى فجوة كتبه . ظلت ترتجف طوال ذلك النهار ، وأجرت مكالمة هاتفية في همس مسرحي أستغرقت نصف الصباح .

قالت لز : " إنها تخبر أمها . فهي دائماً تفعل ذلك . وتخبرها عني كذلك . "

نمت لدى الآنسة كريل كراهية شديدة نحو ليماس بحيث صار من المستحيل التواصل معه ، وفي أيام دفع الأجور ، كان يعود من الغداء ويجد مظروفاً على الدرجة الثالثة من سلمه وقد كُتب إسمه بطريقة خاطئة على الغلاف الخارجي . وفي المرة الأولى التي حدث فيها ذلك ، أخذ الراتب حاملاً المظروف وقال : " آنسة كريل ، إن إسمي يبدأ بـ " ليـ " مع سين واحدة فقط . " وإذ ذاك تملكها شلل حقيقي ، وراحت تقلب عينيها وتتحسس قلمها الرصاص على نحو غريب الى أن غادر ليماس . لجأت الى الهاتف لساعات بعد ذلك .

وبعد حوالي ثلاثة أسابيع من بدء ليماس العمل في المكتبة دعته لِز الى العشاء . تظاهرت بأنها كانت فكرة نزلت عليها على حين غرة ، في الساعة الخامسة من ذلك المساء . وبدت مدركة أنها لو طلبت إليه أن يكون ذلك غداً او اليوم التالي فإنه كان سينسى أو لا يأتي ، لذلك دعته في الساعة الخامسة . بدا ليماس متردداً في القبول ، لكنه وافق في النهاية .

سارا الى شقتها تحت المطر ، في ذلك المشهد الذي يوحد الأمكنة : برلين ، لندن ، أية مدينة حيث تتحول الأرصفة الى بحيرات ضوء في مطر المساء ، وتمر السيارات مطرطشة عبر شوارع مبللة .

كانت تلك أول وجبة من وجبات كثيرة تناولها ليماس في شقتها . وكان

Amly نهضة العرب

يأتي كلما دعته وغالباً ما كانت تدعوه . ولم يتحدث كثيراً . وعندما اكتشفت أنه كان مستعداً للقدوم ، اعتادت على وضع المنضدة في الصباح قبل المغادرة الى المكتبة . حتى أنها كانت تحضر الخضار قبل أن تخرج ، وتضع الشموع على المنضدة ، لأنها كانت تحب ضوء الشموع . كانت تدرك دائماً أن هناك خطأ ما في ليماس ، وأنه في يوم ولسبب لم تفهمه ، قد يهرب ولن تراه مرة أخرى .

حاولت أن تقول له إنها تعرف . وفي إحدى الأمسيات ، قالت له : " يجب أن تذهب عندما تريد . لن أتبعك يا أليك . "

أستقرت عيناه السوداوان عليها لوهلة وقال : " سأبلغك في وقتها . "

كانت شقتها تتألف من غرفة نوم وجلوس ومطبخ . وفي غرفة الجلوس ، كان هناك كرسيان بمساند وأريكة وخزانة كتب مليئة بكتب ذات غلاف ورقي ، بينها العديد من الكتب الكلاسيكية التي لم تقرأها على الاطلاق . وبعد العشاء ، كانت تتحدث اليه ، وكان يستلقي على الأريكة وهو يدخن . لم تعرف أبداً إن كان يسمع ، ولم تهتم . كانت تجثو عند الأريكة ممسكة بيده على خدها ، متحدثة اليه .

في إحدى الأمسيات ، قالت له : " أليك ، بماذا تؤمن ؟ لا تضحك ـ قل لي . " انتظرت . وقال أخيراً : " أؤمن بأن حافلة تحمل الرقم أحد عشر ستقلني الى هامرسمث . لا أؤمن بأن سائقها هو بابا نويل . "

بدت كأنها تتدارس الأمر وأخيراً سألته مرة أخرى : "لكن بماذا تؤمن ؟"

هز ليماس كتفيه .

أصرت لِز : " لا بد وأن تؤمن بشيء . شيء مثل الله ـ أنا أعرف أنك تؤمن يا أليك . لديك تلك النظرة التي تنم أحياناً بأن لديك شيئاً خاصاً تقوم به ، مثل كاهن . أليك ، لا تبتسم ، إن هذا صحيح . "

هز رأسه .

ـ " آسف يا لِز ، لقد فهمت الأمر خطأً . فأنا لا أحب الأمريكيين ولا المدارس العامة . ولا أحب الاستعراضات العسكرية والناس الذين يلعبون أدوار الجنود ، " ودون أن يبتسم أضاف : " ولا أحب الحوارات عن الحياة . "

ـ " لكن يا أليك ، قد يكون من الأفضل القول . . . "

قاطعها ليماس : " كان يجب أن أضيف إني لا أحب الناس الذين يقولون لي بماذا يجب أن أفكر . "

أدركت أنه بدأ يغضب ، بيد أنها لم تستطع منع نفسها من متابعة الكلام :

Amly نهضة العرب

ـ " ذلك لأنك لا تريد أن تفكر ، لا تجرؤ ! هناك تسمم في عقلك ، شيء من الكراهية . أليك ، أنت متعصب ـ أعرف أنك كذلك ، لكنني لا أعرف طبيعة تعصبك . أنت متعصب لا يريد ان يحول الناس إلى معتقده ، وذاك أمر خطير . أنت كرجل أقسم أن . . . يتقم أو شيء من هذا القبيل . "

أستقرت العينان السوداوان عليها . ارتعبت حين تحدث بسبب الخطر المنذر في صوته .

قال بخشونة : " لو كنت مكانك لأهتممت بأموري . " ثم ابتسم ، ابتسامة ايرلندية خبيثة . لم يبتسم إبتسامة كهذه من قبل وأدركت لِز أنه كان يتظاهر بالمحبة حين سألها : " بماذا تؤمن لِز ؟ " وردت : " أليك ، لا يمكنك ان تأخذني بهذه السهولة . "

في وقت لاحق من تلك الليلة ، تحدثا عن الموضوع مرة أخرى . وكان لياس هو الذي بدأ . فقد سألها إن كانت متدينةً أم لا .

قالت " لقد فهمتني خطأً . كل الخطأ . فأنا لا أؤمن بالله . "

ـ " إذن ، بماذا تؤمنين ؟ "

ـ " بالتاريخ . "

نظر اليها مندهشاً لوهلة ثم ضحك .

ـ " آه يا لِز . . . آه كلا . . لستِ شيوعية كريهة ؟ "

أومأت برأسها إيجاباً ، وتوردت كفتاة صغيرة بسبب ضحكته ، غاضبة ومرتاحة من عدم اكتراثه .

أقنعته بالبقاء تلك الليلة ، وأصبحا عاشقين . غادر في الخامسة صباحاً . ولم تفهم ذلك . كانت فخورة جداً وبدت خجلة .

ترك شقتها واستدار في الشارع المقفر متجهاً نحو المتنزه . كان الجو ضبابياً . وفي مكان ما أسفل الطريق ، ليس ببعيد ، ربما على بعد عشرين ياردة أو أكثر بقليل ، كان هناك شبح رجل يرتدي معطفاً مطرياً ، قصيراً ومتلثاً الى حد ما . كان يتكيء على سياج المتنزه ، وقد برز ظله في الضباب المتحرك . وعندما اقترب لياس ، بدأ الضباب يزداد كثافة ، محيطاً ومطبقاً على الرجل المتكيء على السياج . وعندما اختفى الضباب ، كان الرجل قد رحل .

Amly نهضة العرب

٥ * قرض

بعد حوالي أسبوع من ذلك ، غاب ليماس عن المكتبة في أحد الأيام . كانت الآنسة كريل مبتهجة ، وبحلول الحادية عشرة والنصف ، أخبرت أمها ، وعند العودة من الغداء وقفت أمام رفوف كتب الآثار حيث كان يعمل منذ أن جاء . حدقت بتركيز مسرحي على صفوف الكتب ، وقد أدركت لِز أنها كانت تتظاهر بالتدقيق لترى إن كان ليماس قد سرق شيئاً .

أهملتها لِز كلياً بقية اليوم ، ورفضت الإجابة عندما وجهت إليها الكلام ، وعملت بأنكباب مستمر . وحين حلّ المساء ، عادت الى البيت مشياً وبكت حتى نامت .

في الصباح التالي ، وصلت مبكرة الى المكتبة ، وشعرت بطريقة ما أنه كلما أسرعت في الوصول كلما تسارع احتمال قدوم ليماس ، لكن . . . بمرور الصباح ثقيلاً ، تضاءلت آمالها ، وأدركت أنه لن يأتي . كانت قد نسيت أن تجلب شطائر لنفسها في ذلك اليوم ، لذلك قررت أن تأخذ حافلة الى شارع بهزووتر وتذهب الى مقهى الـ آي . بي . سي . شعرت بالتوعك والخواء ولم تكن جائعة . هل تذهب وتجده ؟ كانت قد وعدت أن لا تتبعه أبداً ، لكنه كان قد وعد بأن يخبرها ، فهل تذهب وتجده ؟

نادت على سيارة أجرة وأعطت عنوانه .

شقت طريقها صعوداً الى السلّم المظلم وضغطت على جرس الباب . بدا أن الجرس عاطل . لم تسمع شيئاً . كانت هناك ثلاث قناني حليب على الحصيرة ورسالة من شركة الكهرباء . ترددت لحظة ثم طرقت الباب ، سمعت أنيناً واهناً لرجل . أسرعت نازلة الى الشقة التي تقع تحت شقته ، طرقت وضغطت جرس الباب . لم تحصل على جواب . لذلك نزلت طابقاً آخر فوجدت نفسها في الغرفة الخلفية لمحل بقال . كانت هناك امرأة عجوز

Amly نهضة العرب

قابعة في زاوية تهز نفسها الى الأمام والى الخلف في كرسيها .

كادت لِز أن تصرخ : " الشقة العليا ، هناك شخص مريض جداً . مَنْ لديه مفتاح ؟ "

نظرت اليها المرأة العجوز لحظة ثم نادت باتجاه الغرفة الأمامية حيث كان محل البقالة . " آرثر ، تعال الى هنا ، آرثر ، لدينا فتاة هنا ! "

نظر رجل يرتدي بدلة عمل بنية وقبعة مدورة رمادية ، من خلال الباب وقال " فتاة ؟ " . قالت لِز : " هناك شخص مريض جداً في الشقة العليا . ولا يستطيع الوصول الى الباب الرئيسي لفتحه ، هل لديك مفتاح ؟ "

رد البقال : " لا " . لكن لدي مطرقة . " وأسرعا الى الدرج سوية . كان البقال الذي ظل مرتدياً قبعته ، يحمل مفكاً كبيراً ومطرقة . طرق الباب بشدة وانتظر – لاهثاً ، الرد . ولم يكن هناك رد . همست لِز : " سمعت أنيناً قبل هذا . أقسم أنني سمعت . "

ـ " هل ستدفعين ثمن الباب إن أنا كسرته ؟ "

ـ " نعم . "

وأحدثت المطرقة صوتاً رهيباً . وبثلاث ضربات انتزع قطعة من الأطار وجاء معها القفل . دخلت لِز أولا وتبعها البقال . كان الجو بارداً جداً في الغرفة وكان الظلام يسودها ، لكنهما تمكنا رغم ذلك من أن يميزا شكل إنسان على السرير في الزاوية .

فكرت لِز : يا إلهي ، إن كان ميتاً فلا أظن أن باستطاعتي لمسه . بيد أنها مشت إليه وكان حياً . وبعد أن سحبت الستائر ، ركعت بجانب السرير . قالت دون أن تنظر الى الوراء : " سأستدعيك إذا ما أحتجت اليك ، شكراً " ، وأومأ البقال برأسه ونزل .

ـ " أليك ، ما الأمر ، ما الذي يوجعك ؟ ما الأمر ، أليك ؟ "

حرك ليماس رأسه على الوسادة . كانت عيناه الغائرتان مغمضتين . كانت اللحية السوداء بارزة إزاء شحوب وجهه .

ـ " أليك ، قل لي أرجوك ، " كانت تمسك بإحدى يديه بيديها والدموع تنهال على خديها . وراحت تتساءل يائسة ماذا ستفعل . ثم ، وبعد أن نهضت ، هرعت الى المطبخ الصغير ووضعت دورقاً . لم تكن متأكدة ماذا ستفعل ، ولكن ، أراحها أن تفعل شيئاً . وبعد أن تركت الدورق على النار ، التقطت حقيبتها اليدوية ، وأخذت مفتاح ليماس من جانب المنضدة وهرعت نازلة عبر الطوابق الأربعة الى الشارع وعبرت الى السيد سليمن

Amly نهضة العرب

الصيدلاني . أبتاعت شيئاً من الجلي ، وصدر دجاجة ، وعصارة لحم البقر ، وقنينة أسبرين . وصلت الى الباب ثم عادت وأشترت علبة بسكويت . كلفتها كل هذه المواد ستة عشر شلناً ، ويقي لديها أربع شلنات في حقيبتها وأحد عشر جنيهاً في دفتر ادخارها في البريد ، بيد أنه لم يكن بإمكانها سحب أي مبلغ منها حتى الغد . حين عادت الى شقته ، كان الإناء يغلي . وضعت حساء لحم البقر كما أعتادت أمها أن تضعه في قدح فوضعت فيه ملعقة لتمنع تكسره . كانت طوال الوقت ترمقه بنظرها وكأنها كانت تخشى أن يكون قد مات .

كان عليها ان تسنده كي يشرب الحساء . ولم يكن لديه سوى وسادة واحدة ، لم يكن هناك وسائد في الغرفة ، لذا أخذت معطفه من وراء الباب وصنعت منه صرة ورتبته وراء الوسادة . خافت أن تلمسه ، فقد كان غارقاً بالعرق حتى أن شعره القصير الأشيب كان رطباً ودبقاً . وبعد أن وضعت القدح الى جانب السرير ، أمسكت رأسه بيد وسقته الحساء باليد الأخرى . بعد أن تناول بضع ملاعق ، سحنت حبتي أسبرين وأعطتهما له في الملعقة . تحدثت إليه كما لو كان طفلاً ، جالسةً على حافة السرير تتطلع إليه ، تاركة أصابعها أحياناً تمر فوق رأسه ووجهه ، هامسة بإسمه مرة بعد أخرى : " أليك ، أليك . "

وتدريجياً ، أصبح تنفسه أكثر انتظاماً وجسمه أكثر مرونة بعد أن انتقل من ألم الحمى الشديد الى هدأة النوم . وأحست إزاء أثناء مراقبتها له أن الخطر قد زال . وفجأة ، أدركت أن الظلام قد هبط تقريباً .

ثم شعرت بالخجل لأنها كانت تعرف بأنه كان عليها أن تنظّف وترتب . وبقفزة ، جلبت مكنسة السجاد وماسحة من المطبخ وشرعت بالعمل بطاقة محمومة . عثرت على قطعة قماش نظيفة ووضعتها بعناية على المنضدة المجاورة للسرير ، ثم غسلت الصحون والأطباق والكؤوس الباقية الموزعة في أنحاء المطبخ . وحين انتهت من كل شيء ، نظرت الى ساعتها وكان الوقت : الثامنة والنصف .

وضعت الابريق وعادت الى السرير . كان ليماس ينظر اليها . " أليك ، لا تبتئس ، أرجوك لا ، " ثم قالت : " سأذهب أعدك بأنني سأذهب ، لكن ، دعني أعد لك وجبة طعام مناسبة . فأنت مريض ، لا يمكنك الأستمرار هكذا ، أنت . . . آه يا أليك . " وانفجرت وراحت تبكي واضعه يديها على وجهها والدموع تتساقط من بين أصابعها كأنها دموع طفل . تركها تبكي ، وهو يتابعها بعينيه السوداوين ، ممسكاً بالشرشف بكلتا يديه .

Amly نهضة العرب

ساعدته على الغسل والحلاقة وعثرت على بعض الشراشف النظيفة . أعطته شيئاً من الهلام وشيئاً من صدر الدجاجة من الاناء الذي اشترته من السيد سليمن . وراحت تراقبه وهي جالسة على حافة السرير ، وفكرت بأنه لم يسبق لها أن شعرت بسعادة كهذه من قبل .

سرعان ما نام ، فسحبت البطانية فوق كتفيه وذهبت الى الشبّاك . وبعد أن أزاحت الستائر المهلهلة ، رفعت الإطار ونظرت إلى الخارج . كانت النافذتان في الفناء فوق المستودع منارتين . استطاعت أن ترى في أحدهما الظل الأزرق المترجرج لشاشة تلفزيون ، وكانت الأشكال الجالسة أمامها ساكنة بلا حراك تحت تأثير سحرها ، وفي الثانية ، امرأة شابة وهي تضع عاقصات في شعرها . أنتابت لِز رغبة في البكاء على كآبة أوهامهم وأحلامهم .

نامت في الكرسي ذي المساند ولم تستيقظ الى أن كاد الصباح يطل ، وقد تصلبت وأصابها البرد . ذهبت الى الفراش : تحرك ليماس حين نظرت اليه ولمست شفتيه بطرف إصبعها . لم يفتح عينيه ، لكنه أخذ ذراعها بهدوء وسحبها الى السرير ، وفجأة شعرت برغبة شديدة فيه ، ولم يمسها شيء ، قبلته مرة أخرى وأخرى وعندما نظرت اليه بدا مبتسماً .

كانت تأتي كل يوم طيلة ستة أيام . لم يتحدث اليها كثيراً ، ومرةً حين سألته إن كان يحبها قال إنه لم يؤمن يوماً بالقصص الخيالية . كانت تستلقي على السرير ، رأسها على صدره ، وكان أحيانا يضع أصابعه السميكة في شعرها ، ممسكاً به بقوة ، وكانت لِز تضحك وتقول إنه يؤلمها . وفي مساء جمعة وجدته مرتدياً ملابسه دون أن يحلق ذقنه وتساءلت لَم لم يحلق . وشعرت بالخطر لسبب غير مدرك . كانت أشياء صغيرة مفقودة في الغرفة ـ ساعته ومذياعه الرخيص المحمول الذي كان على المنضدة . أرادت أن تسأل بيد أنها لم تجرؤ . كانت قد اشترت بضع بيضات ولحم خنزير وطبختها لعشائهما بينما كان ليماس جالساً على السرير يدخن سيجارة بعد أخرى . وعندما أعدت العشاء دخل المطبخ وعاد حاملاً قنينة خمر أحمر .

نادراً ما تكلم أثناء العشاء ، راقبته ، وتصاعد خوفها الى أن صار من الصعب عليها تحمله وانفجرت باكية وقالت : " أليك . . آه يا أليك . ما الأمر ؟ هل هو وداع ؟ "

نهض عن المائدة ، أخذ يديها وقبلهما بطريقة لم يفعلها من قبل وتحدث

Amly نهضة العرب

اليها برقة لوقت طويل ، أخبرها بأشياء لم تفهمها إلاّ بضبابية ، ولم تسمع منها إلا نصفها لأنها كانت طوال الوقت تعرف أنها النهاية ولن يهم شيء بعد ذلك .

قال : " وداعاً يا لِز . وداعاً " . ثم قال : " لا تتبعيني . ليس مرة أخرى . "

أومأت برأسها وتمتمت : " كما اتفقنا . " كانت ممتنة للبرد القارس في الشارع وللظلام الذي أخفى دموعها .

في الصباح التالي ، وكان يوم سبت ، طلب ليماس قرضاً من البقال . لقد فعل ذلك دون كثير من اللباقة ، بطريقة غير محسوبة لضمان النجاح له . طلب نصف دزينة من المواد ، ولم يصل مجموعها الى أكثر من جنيه واحد ـ وبعد أن تم لفها ووضعها في حقيبة التسوق قال : " من الأفضل أن تبعث لي بذلك الحساب . "

ابتسم البقال ابتسامة جافة وقال : " أخشى أنني لا أستطيع فعل ذلك " ، وأختفت كلمة " سيدي " تماماً .

سأل ليماس : " ولماذا بحق الجحيم ؟ " تحرك الطابور الذي خلفه بقلق .

قال البقال : " أنا لا أعرفك . "

قال ليماس : " لا تكن سخيفاً ، أعتدت على المجيء الى هنا منذ أربعة أشهر . "

أحمر البقال وقال : " نحن نطلب دائماً توصية مصرفية قبل منح قرض . " وفقد ليماس أعصابه .

صرخ : " لا تتحدث بحماقة . إن نصف زبائنك لم يروا على الاطلاق ما في داخل مصرف ولن يروه أبداً " . تلك كانت إهانة لا يمكن تحملها طالما أنها كانت صحيحة .

كرر البقال بخشونة : " أنا لا أعرفك ، ولا أميل اليك . والآن ، أخرج من دكاني . " وحاول استعادة الرزمة التي كان ليماس ، لسوء الحظ ، قد أمسك بها للتو .

وتباينت الآراء بشأن ما حدث بعد ذلك . قال البعض إن البقال ، في محاولة لاستعادة الحقيبة ، دفع ليماس ؛ ويقول آخرون إنه لم يفعل . وسواء دفعه أم لا ، فقد ضربه ليماس ، كما يظن معظم الناس ، مرتين دون أن يستخدم يده اليمنى التي كانت تمسك بحقيبة التسوق . وبدا أنه وجه الضربة ليس بقبضته ، بل بجانب يده اليسرى ، ثم ، وكجزء من نفس الحركة

Amly نهضة العرب

السريعة الأستثنائية ، ضربه بمرفقه الأيسر .

وسقط البقال مباشرة وسكن كصخرة . وقيل في المحكمة ، فيما بعد ، دون أي نقض من جانب الدفاع ، أن البقال قد لحقته إصابتان : ، عظم وجنة مكسور من الضربة الأولى ، وفك مرضوض من الضربة الثانية . وكانت التغطية الصحفية كافية ، ولكن دون تفاصيل مفرطة .

Amly نهضة العرب

٦ * اتصال

في الليل ، استلقى على سريره مصغياً لأصوات السجناء . كان هناك صبي ينشج ، وسجين يغني أغنية " على حانة إلكلي مور " ضابطاً الإيقاع على قصعة طعامه . وكان هناك حارس يصرخ : " إخرس يا جورج ، أنت ايها الوطني التعس " بعد كل مقطع ، لكن أحداً لم يهتم . وكان هناك ايرلندي يغني أغاني عن الجيش الجمهوري الإيرلندي رغم أن الآخرين قالوا إنه مسجون بتهمة اغتصاب .

كان ليماس يمارس أكبر قدر من التمارين خلال النهار على أمل أن يستطيع النوم في الليل ، لكن دون جدوى . ففي الليل ، تدرك أنك سجين . في الليل ، لم يكن هناك شيء ، لا خدعة بصر ولا وهم ذاتي ينقذك من حصار الزنزانة المغشي . لم يكن بامكانك التخلص من طعم السجن ، رائحة بدلة السجن ، نتانة مرحاض السجن المعقم بكثافة ، ولا إزعاج السجناء . في الليل تصبح إهانة السجن غير محتملة ، عندها ، كان ليماس يتوق الى التمشي تحت الشمس الودود لمتنزه لندني . وفي الليل ، تتضاعف كراهيته لقفص الحديد الذي يحتجزه ويشعر بالحاجة إلى كبح رغبته في أن يهوي بقبضته العارية على قضبان الحديد ، وأن يحطم جماجم حراسه وينطلق الى الفضاء الحر ، فضاء لندن الحر . كان يفكر في لز أحياناً . وكان يوجه ذهنه نحوها لفترة قصيرة كمدسة الكاميرا ، مستذكراً للحظة اللمسة الرقيقة ـ القاسية لجسدها الطويل ، ثم يبعدها عن ذاكرته . فلم يكن ليماس رجلاً معتاداً على العيش على الأحلام .

كان يحتقر زملاء زنزانته ، وقد كرهوه . كرهوه لأنه نجح في أن يكون ما كان يتوق إليه الجميع في دواخلهم : شخص غامض . فقد حجب عن المجموعة جزءاً مهماً من شخصيته . ولم يستطيعوا جذبه في لحظات العواطف للتحدث عن فتاته أو عائلته أو أطفاله . لم يعرفوا شيئاً عن ليماس .

Amly نهضة العرب

وانتظروا ، لكنه لم ينفتح عليهم . فالسجناء الجدد ككل ، نوعان ـ أولئك الذين ينتظرون ، بسبب الخجل ، أو الخوف أو الصدمة ، برعب أخاذ أن يزج بهم في بحر حياة السجن ، وأولئك الذين يستغلون خبرتهم التعيسة في سبيل جعل أنفسهم محبوبين لدى المجتمع . ولم يفعل ليماس أياً من هذين ، فقد بدا سعيداً باحتقارهم جميعاً ، وكرهوه لأنه ، مثل العالم الخارجي ، لم يكن بحاجة إليهم .

بعد حوالي عشرة أيام ، سئموا . فلم يكن يحمل للكبير إجلالا ولا للصغير راحة ، لذلك دفعوه في طابور الغداء . إن الدفع هو طقس في السجون مشابه لممارسة التدافع بالمناكب التي كانت سائدة في القرن الثامن عشر . وتتسم بصفة المصادفة ، تقلب فيها قصعة السجين وتسقط محتوياتها على بدلته . فقد دفع ليماس من جانب ، في حين نزلت يد أخرى على ذراعه ، وتمّ الأمر . لم يقل ليماس شيئاً ، بل نظر بتأمل الى الرجلين الواقفين الى جانبيه . وقبل صامتاً التوبيخ البذيء لحارس كان يعلم علم اليقين ماذا حدث .

بعد أربعة أيام ، وأثناء ما كان يعمل بمجرفة في حديقة زهور السجن ، بدا وأنه يتعثر . كان يمسك المجرفة بكلتا يديه عبر جسده ، وكانت نهاية المقبض ناتئة مسافة ست بوصات تقريباً من قبضة يده اليمنى . وعندما حاول استعادة توازنه ، أنحنى السجين الذي على يمينه وأصدر شخرة ألم واضعاً ذراعيه على معدته . بعد ذلك لم يدفعه أحد .

ربما كانت رزمة الورق البنية هي أغرب الأشياء في السجن عندما غادره . ذكرته بطريقة مضحكة بطقوس الزواج ـ بهذا الخاتم أزوجك ـ بهذه الرزمة الورقية أعيدك الى المجتمع . سلموها إياه ووقعوه عليها . كانت تحتوي كل ما كان يملك في العالم . لم يكن هناك شيء آخر . أحس ليماس أن تلك اللحظة كانت أكثر اللحظات إذلالاً لآنسانيته خلال الأشهر الثلاثة الماضية . عزم على التخلص من الرزمة حالما يخرج .

بدا سجيناً هادئاً . ولم تكن هناك شكاوى ضده . وقد عزا حاكم السجن الذي اهتم بطريقة غامضة بقضيته ، ذلك سراً الى الدم الإيرلندي الذي أقسم أنه يستطيع إقتفاء أثره في ليماس .

سأل : " ما الذي ستفعل عندما تغادر هذا المكان ؟ " رد ليماس دون شبح ابتسامه أنه يعتقد بأنه سيبدأ من جديد ، وقال الحاكم إن ذلك شيء ممتاز .

سأل : " وماذا عن عائلتك ، ألا تستطيع إصلاح الحال مع زوجتك ؟ "

Amly نهضة العرب

رد ليماس بلا مبالاة : " سأحاول ، لكنها تزوجت من جديد . "

كان الضابط المسؤول عن سلوك السجناء يرغب في أن يصبح ليماس ممرضاً في مستشفى عقلي في بكنجهامشاير ، ووافق ليماس على تقديم طلب . حتى أنه أخذ العنوان وسجل أوقات رحلات القطار من مارلبون .

أضاف الضابط : " إن القطارات على ذلك الخط تعمل بالكهرباء حتى غريت مسندن . " وقال ليماس أن ذلك سيكون مفيداً . وهكذا أعطوه الرزمه وغادر . ترجل . ركب حافلة الى ماربل آرتش ثم مشى . كان لديه قليل من النقود في جيبه ونوى أن يتناول وجبة لائقة . وفكر بالمرور عبر هايد بارك الى ساحة بكادلي وبعدها عبر جرين بارك وسنت وجيمس بارك الى ساحة البرلمان حيث يتمشى نازلاً الى وايت هول والى ستراند حيث يستطيع الوصول الى المقهى الكبير قرب محطة تشارنج كروس ويتناول شريحة لحم جيدة مقابل ستة شلنات .

كانت لندن جميلة في ذلك اليوم . وقد تأخر الربيع وكانت المتنزهات ملأى بالزنابق والنرجس . ومن الجنوب ، كانت تهب ريح باردة لطيفة . كان بإمكانه أن يمشي طوال النهار . لكن الرزمة لا زالت معه وكان عليه التخلص منها . كانت سلال القمامة الصغيرة ضيقة جداً بحيث سيبدو مجنوناً لو حاول دفع الرزمة في إحداها . ظن بأن هناك حاجة أو اثنتين كان عليه أخذها من الرزمة ، أوراقه البائسة : بطاقة التأمين ، إجازة السوق و إي ـ٩٣ (مهما كان ذلك الشيء) ، في مظروف رسمي أصفر ـ لكن ، فجأة ، لم يرد إزعاج نفسه . جلس على مصطبة ووضع الرزمة الى جانبه ، ليس قريباً جداً ، و تحرك قليلاً مبتعداً عنها . وبعد دقيقتين عاد الى الرصيف تاركاً الرزمة حيث كانت . وصل الى الممر تقريباً عندما سمع منادياً ، استدار ، وربما بحدة بسيطة ، ورأى رجلاً يرتدي معطفاً عسكرياً يؤشر له حاملاً الرزمة الورقية البنية في اليد الأخرى .

كان ليماس يضع يديه في جيوبه وتركهما هناك ، ووقف ، متطلعاً الى الخلف عبر كتفه الى الرجل صاحب المعطف . تردد الرجل ، متوقعاً على ما يبدو من ليماس أن يأتي إليه أو يظهر شيئاً من الاهتمام ، إلا أن ليماس لم يظهر شيئاً . وبدلاً من ذلك ، هز كتفيه واستمر في طريقه على الممر . سمع صوتاً آخر وأهمله وأدرك أن الرجل كان يتبعه . سمع وقع الأقدام على الحصى ، نصف راكضة مقتربة بسرعة ، ثم صوتاً ، فيه شيء من اللهاث وشيء من الاهتمام .

ـ " أقول ـ أنت يا هذا . " ثم توقف بحيث اضطر ليماس الى التوقف .

Amly نهضة العرب

استدار ونظر اليه .

ـ " نعم ؟ "

ـ " هذه رزمتك ، أليس كذلك ؟ تركتها على المقعد . لماذا لم تتوقف حين ناديت عليك ؟ "

كان طويلاً ، ذا شعر بني مجعّد الى حد ما ، يرتدي ربطة برتقالية وقميصاً أخضر باهتاً . فظ قليلاً ، فيه شيء من التخنث . هكذا تصوره ليماس . ربما كان مدير مدرسة . خريج مدرسة لندن السابقة للاقتصاد ، ويدير نادياً دراسياً في إحدى الضواحي . ضعيف البصر .

قال ليماس : " بإمكانك إعادتها الى مكانها . لا أريدها . "

أحمر الرجل وقال : " لا يمكنك تركها هناك فحسب ، فهذه أوساخ . "

رد ليماس : " بل يمكنني جداً " . وأضاف ، " سيجد أحدهم فائدة فيها " . كان على وشك أن يتحرك إلا أن الغريب كان لا يزال واقفاً أمامه حاملاً الرزمة بيديه كأنها طفل .

قال ليماس : " إبتعد عن الطريق ، رجاءً . "

قال الغريب : " أنظر ، " وقد أرتفع صوته درجة . " كنت أحاول أن أقدم لك خدمة ، فلماذا تتصرف بفظاظه هكذا ؟ "

رد ليماس : " إن كنت تواقاً لتقديم خدمة لي ، فلماذا كنت تتبعني خلال نصف الساعة الماضية ؟ " . فكر ليماس ، إنه طيب جداً . لم يجفل ، لكن كان لا بد من هزه هزة قوية .

ـ " ظننت أنك شخص عرفته مرة في برلين ، إن كنت تدرك . "

ـ " لذلك تبعتني لنصف ساعة ؟ "

كان صوت ليماس مشحوناً بالسخرية ولم تفارق عيناه السوداوان وجه الآخر .

ـ " قبل نصف ساعة لمحتك في ماربل آرتش واعتقدت أنك أليك ليماس رجل اقترضت منه بعض المال . كنت أعمل في هيئة الإذاعة البريطانية في برلين وكان هناك رجل بهذا الإسم . وقد ظل ضميري يؤنبني منذ ذلك الحين ولهذا تبعتك ـ أردت التأكد . "

استمر ليماس في النظر اليه ، دون كلام ، وظن أنه لم يكن بتلك الطيبة ، لكنه كان طيباً بما فيه الكفاية . كانت قصته صعبة التصديق ـ لم يكن ذلك مهماً . المسألة هي أنه حاك قصة جديدة وأصّر عليها بعد أن حطم ليماس الطريقة المتبعة كأسلوب كلاسيكي .

أخيراً قال : " أنا ليماس . فمن أنت بحق الجحيم ؟ "

Amly نهضة العرب

قال إن اسمه آش ، وأدرك ليماس أنه كان يكذب . تظاهر بعدم تأكده التام من أن ليماس كان فعلاً الشخص المعني ، لذلك فتحا الرزمة عند الغداء ونظرا الى بطاقة التأمين الوطني كأنهما مخشان ينظران الى بطاقة بريد قذره كما تصور ليماس . طلب آش الغداء مع شيء بسيط من الاهتمام بالتكاليف ، وشربا خمراً من نوع فرانكينواين ، ليذكرهما بالأيام الخوالي . بدأ ليماس بالأصرار على عدم تمكنه من تذكر آش ، وقال آش إنه مندهش . قالها بنغمة أوحت بأنه قد تأثر . قال إنهما ألتقيا في حفل أقامه ديريك وليمز في شقته القريبة من كو ـ دام (أصاب في ذلك) وحضر كل رجال الصحافة هناك ، بالتأكيد يتذكر أليك ذلك ؟ لا ، لم يتذكر ليماس . حسناً ، بالتأكيد أنه يتذكر ديريك وليمز من الأويزيرفر ذلك الرجل اللطيف الذي اعتاد إقامة حفلات البيتزا الجميلة ؟ كان ليماس يعاني من ذاكرة ضعيفة بالنسبة للأسماء ، ومع ذلك كانوا يتحدثون عن عام ١٩٥٤ ، ومنذ ذلك الحين حدثت أشياء كثيرة . . . تذكر آش (كان اسمه الأول وليم ، وبالمناسبة ، يناديه معظم الناس بإسم " بِل ") ، تذكر آش بحيوية . كانوا يشربون المشروبات المسكرة والبراندي والشراب المنكه بالنعناع ، وكانوا جميعاً مهملين تقريباً ، وكان ديريك يعد بعض الفتيات الفائقات الجمال ، نصف كابريه من مالكستن ، بالتأكيد تذكر أليك الآن ؟ اعتقد ليماس أن الحكاية ربما عادت الى ذاكرته لو أستمر بِل قليلاً . ولم يستمر بِل برغبة منه بلاشك ، لكنه أحسن الطرح ، مؤكداً على الجانب الجنسي قليلاً ، وكيف أنهم انتهوا في نادٍ ليلي مع ثلاث من تلكم الفتيات ، أليك شاب من دائرة المستشار السياسي و بِل ، وكان بِل محرجاً جداً لأنه لم يكن معه أي مال وقد دفع أليك عنه وأراد بِل أن يأخذ معه فتاة الى البيت وأقرضه أليك عشرة جنيهات أخرى .

قال ليماس : " يا إلهي . أتذكر الآن ، طبعاً أتذكر . "

قال آش بفرح : " كنت أعرف أنك ستتذكر " ، هازاً رأسه فوق كأسه ، " أنظر ، دعنا نتناول النصف الآخر ، فهذه متعة كبيرة . "

كان آش أنموذجاً من تلك الفئة من البشر ممن يسيّرون علاقاتهم وفق مبدأ التحدي والاستجابة . فحيث توجد ليونة ، يتقدم ، وحيث يجد مقاومة ، يتراجع . ولأنه لا يملك شخصياً رأياً أو ذوقاً معيناً ، كان يعتمد على كل ما يتفق وآراء أو ذوق نديمه . فقد كان مستعداً لتناول الشاي في فورتنوم كاستعداده لتناول البيرة في بروسبكت وتباي ، وكان مستعداً لسماع موسيقى

Amly نهضة العرب

عسكرية في متنزه سنت جيمس أو الجاز في حانة من حانات كومنتن ستريت ، ويرتجف صوته تعاطفاً حين يتحدث عن شاريفيل أو بالسخط من زيادة عدد سكان بريطانيا من الملونين . وبالنسبة لليماس ، كان هذا الدور السلبي الواضح مقيتاً . فقد أثار روح التنمر فيه بحيث كان سيجر الآخر بهدوء الى وضع ملزم ، ثم ينسحب هو نفسه ، لذلك ، كان آش يفر عائداً من المأزق الذي كان يجذبه ليماس اليه . مرت لحظات في ذلك النهار كان ليماس فيها عنيداً بصفاقة بحيث كان لدى آش تبرير في إنهاء حديثهما ـ خاصة وانه هو الذي كان يدفع الحساب ـ لكنه لم يفعل . وربما أستنتج الرجل الحزين الصغير ذي النظارات الجالس لوحده على المائدة المجاورة غارقاً في قراءة كتاب صناعة النوابض أن ليماس يطلق العنان لطبيعة سادية ـ أو ربما (إذا كان رجلاً ذا ملاحظة دقيقة) ، أن ليماس كان يحاول أن يبرهن لأسباب ذاتية أن رجلاً له حافز خفي قوي فقط يستطيع تحمل معاملة من ذلك النوع .

كانت الساعة تقترب من الرابعة قبل أن يطلبا قائمة الحساب ، وحاول ليماس الإصرار على دفع حصته . لكن آش لم يسمح له بذلك ، دفع القائمة وأخرج دفتر صكوكه كي يسوي دينه مع ليماس .

قال آش : " عشرون من أفضل الجنيهات " ، وملأ التاريخ على ورقة الصك .

ثم نظر الى ليماس ، بعينين مفتوحتين على وسعهما ، وقال بلطف : " أظن أن الصك ينفع ، أليس كذلك ؟ " رد ليماس ، بعد أن احمر قليلاً ، " ليس لديّ مصرف في الوقت الحاضر ـ فأنا عائد لتوي من الخارج ـ وهو شيء يجب عليّ تسويته . من الأفضل إعطائي صكاً وسأصرفه في مصرفك. "

ـ "صديقي العزيز ، ما كنت أحلم بهذا . سيكون عليك الذهاب الى روذرهايت لصرف هذا الصك ! " هزّ ليماس كتفيه ، وضحك آش ، وأتفقا على اللقاء في نفس المكان عند الساعة الواحدة ، حينها سيكون المبلغ قد توفر نقداً لدى آش .

أخذ آش سيارة أجرة عند زاوية شارع كومبتن . لوّح لها ليماس الى أن أختفت . وعندما ذهبت ، نظر الى ساعته . كانت الساعة الرابعة . خمن أنه ما زال متابعاً ، لذا اتجه نحو شارع فليت وتناول قدحاً من القهوة في مقهى بلاك أند وايت . نظر الى محلات الكتب ، قرأ صحف المساء المعروضة في شبابيك عرض مكاتب الصحف ، وفجأة ، وكأن الفكرة واتته في اللحظة الأخيرة ، قفز الى حافلة . كانت الحافلة متجهة الى لِدجيت هل حيث تأخرت

Amly نهضة العرب

في ازدحام مروري قرب محطة قطار أنفاق .

نزل وأخذ قطاراً . اشترى بطاقة بستة بنسات ، ووقف في العربة الأخيرة ونزل في المحطة التالية . وأخذ قطاراً آخر الى يوستن وعاد الى تشارنغ كروس . كانت الساعة هي التاسعة عندما وصل المحطة وقد برد الجو قليلاً . وكانت هناك شاحنة منتظرة في الساحة ، وكان سائقها نائماً . ألقى ليماس نظرة على الرقم ثم صعد وقال عبر الشباك : " هل أنت من طرف كليمنتس ؟ "

أستيقظ السائق مبهوراً وسألة " السيد توماس ؟ "

أجاب ليماس : " لا . لم يستطيع توماس المجيء . وأنا أميس من هونسلو . "

أجاب السائق : " أصعد يا سيد أميس " ، وفتح الباب . اتجها غرباً نحو كنغ رود . كان السائق يعرف الطريق وفتح المشرف الباب .

قال : " جورج سمايلي في الخارج . وقد استعرت بيته . أدخل . " ولم يكد ليماس يدخل ويغلق الباب الأمامي ، حتى أشعل المشرف مصباح الردهة .

قال ليماس : " كان هناك من يتبعني حتى وقت الغداء " . دخلوا غرفة الاستقبال الصغيرة . كانت هناك كتب في كل مكان . وكانت غرفة مرتّبة ، طويلة ، ذات زخرفة معمارية تعود الى القرن الثامن عشر . شبابيك طويلة وموقد جيد . " التقطني هذا الصباح رجل أسمه آش . " أشعل سيجارة . " شخص مخنث . " سنلتقي غداً مرة أخرى . "

أصغى المشرف بدقة لقصة ليماس ، مرحلة فمرحلة ، من اليوم الذي ضرب فيه فورد البقال الى لقائه مع آش ذلك الصباح .

سأله المشرف : " كيف وجدت السجن ؟ " وكأنه كان يسأل إن كان ليماس قد تمتع بعطلته . " آسف ، لم نستطع تحسين الأحوال لك ، أو نوفر راحة إضافية صغيرة ، لكن ، ذلك ما كان لينفع . "

ـ " بالطبع لا . "

ـ " على المرء أن يكون ثابتاً . ثابتاً عند كل استدارة ـ بالإضافة الى ذلك ، سيكون من الخطأ كسر أو خرق الدور . أعرف أنك كنت مريضاً . أنا آسف . ما المشكلة ؟ "

ـ " مجرد حمى . "

ـ " وكم يوماً بقيت في الفراش ؟ "

ـ " حوالي عشرة أيام . "

Amly نهضة العرب

ـ " إنه لأمر محزن حقاً ، وبالطبع ، لم يكن هناك مَنْ يهتم بك . "
ساد صمت طويل .
سأل المشرف بهدوء : " أنت تعلم أنها في الحزب ، أليس كذلك ؟ "
أجاب لياس : " نعم . " ثم ساد صمت من جديد ، " لا أريد توريطها في القضية . "
سأل المشرف بحدة : " لماذا تتورط ؟ " وللحظة ، للحظة فقط ، اعتقد لياس أنه خرق حاجز الانعزال الأكاديمي .
ـ " مَنْ أوحى بضرورة توريطها ؟ "
رد لياس : " لا أحد . أريد فقط أن أؤكد هذه النقطة . فأنا أعرف كيف تسير هذه الأمور ـ عمليات هجومية دائماً ـ ولهذه العمليات نتاجات ثانوية ، وتأخذ استدرارات مفاجئة في اتجاهات غير متوقعة . تظن أنك أصطدت سمكة وتكتشف أنك اصطدت أخرى . أريدها بعيدة عن الموضوع . "
ـ " أوه ، بالتأكيد ، بالتأكيد . "
ـ " مَنْ هو هذا الرجل المدعو بِت من مكتب التشغيل . ألم يكن من العاملين في الدائرة أبان الحرب ؟ "
ـ " لا أعرف أحداً بذلك الأسم . بِت . هل قلت بِت ؟ "
ـ " نعم . "
ـ " لا . الإسم لا يعني لي شيئاً . في مكتب التشغيل ؟ "
تمتم لياس بصوت مسموع : " آه ، بحق السماء . "
قال المشرف وهو ينهض : " آسف ، فأنا أهمل واجباتي كبديل عن المضيف . هل لديك مانع في كأس ؟ "
ـ " لا ـ أريد ان أخرج الليلة . أريد أن أنزل الى الريف وأمارس الرياضة . هل الدار مفتوحة ؟ "
ـ " أعددت سيارة . في أي وقت سترى آش غداً ، الواحدة ؟ "
ـ " نعم . "
ـ " سأتصل بـ هالدين وأخبره أنك ترغب في شيء من رياضة السكواش . ومن الأفضل أن تراجع طبيباً ، بشأن تلك الحمى . "
ـ " لست بحاجة الى طبيب . "
ـ " كما تحب . "
صبّ المشرف بعض الو يسكي لنفسه وبدأ ينظر ببلادة الى الكتب في مكتبة سمايلي .

Amly نهضة العرب

سأل ليماس : " لماذا سمايلي غائب ؟ "

أجاب المشرف بلامبالاة : " لا يحب العملية . يجدها مقرفة . يفهم الضرورة ، لكنه لا يريد دوراً فيها . لذلك ، تجد أن الحمى التي يشكو منها ، " أضاف المشرف وهو يبتسم إبتسامة عابثة ، " تعاود الظهور كلما اقتضى الأمر . "

ـ " ألهذا لم يستقبلني بحماس ؟ "

ـ " بالضبط . لا يريد دوراً فيها . لكنه أخبرك عن مندت ، هل أعطاك الخلفية ؟ "

ـ " نعم . "

قال المشرف متأملاً : " مندت رجل صعب جداً . يجب أن لا تنسى ذلك أبداً . وهو ضابط مخابرات جيد . "

ـ " هل يعرف سمايلي سبب العملية ؟ الاهتمام الخاص ؟ "

أومأ المشرف برأسه واحتسى شيئاً من كأسه .

ـ " ولا يزال لا يحب العملية ؟ "

ـ " المسأله ليست مسألة أخلاقيات . فهو مثل الجّراح الذي تعب من الدم . وهو مقتنع بأن على الآخرين أن يعملوا . "

واصل ليماس : " قل لي ، ما مدى تأكدك من أن هذه ستقودنا الى ما نريد ؟ كيف تعرف أن الألمان الشرقيين يتولون العملية ـ وليس التشيك أو الروس ؟ "

قال المشرف بشيء من الزهو : " كن مطمئناً . لقد احتطنا لذلك . "

عندما توجها الى الباب ، وضع المشرف يده بخفه على كتف ليماس . قال : " هذه آخر عملياتك . بعدها ستخرج من البرد . أما بشأن تلك الفتاة ـ هل تريدنا أن نفعل شيئاً بشأنها ، مال أو أي شيء ؟ "

ـ " عندما تنتهي العملية ، سأعتني بالأمر بنفسي . "

ـ " صحيح . سيكون من غير الآمن أن نفعل أي شيء الآن . "

كرر ليماس بتأكيد : " أريد أن تترك لحال سبيلها . "

ـ لا أريد فقط توريطها ، لا أريد أن يكون لها ملف أو أي شيء آخر . أريدكم أن تنسوها . "

أومأ برأسه للمشرف وانزلق خارجاً الى هواء الليل ـ الى البرد .

Amly نهضة العرب

٧ * كيفير

في اليوم التالي ، وصل ليماس متأخراً عشرين دقيقة عن موعد غدائه مع آش ، وكانت رائحة الويسكي تفوح منه . مع ذلك ، لم تكن فرحة آش وهو يرى ليماس قليلة . وأدعى أنه كان قد وصل لتوه ، فقد تأخر قليلاً في الوصول الى المصرف . وسلّم مظروفاً لليماس .

قال آش : " فرادى . آمل أن كل شيء على ما يرام ؟ "

قال ليماس : " شكراً ، لنشرب . " لم يكن قد حلق ذقنه وكانت ياقته قذرة . نادى على النادل وطلب شراباً ، ويسكي مضاعف له وجن وردي لآش . وحين وصلت المشروبات ، ارتجفت يد ليماس وهو يصب الصودا في الكأس وكاد يدلقها على الجانب .

تغديا غداء جيداً وشرباً كثيراً ، وقد أكل آش وشرب الأكثر . وكما توقع ليماس ، تحدث في البداية عن نفسه ، وهي خدعة قديمة لكنها ليست سيئة .

قال آش : " بصراحة ، حصلت على شيء جيد الى حد ما مؤخراً . مقالات بالانجليزية للصحافة الأجنبية كمحرر مستقل . فبعد برلين ، قمت بأشياء كثيرة في البداية ـ لم تجدد الهيئة العقد . حصلت على وظيفة في إدارة محل كئيب خاص بهوايات المسنين الذين تزيد أعمارهم على الستين . هل بأمكانك أن تتخيل شيئاً أكثر رعباً ؟ إنهار المحل عند أول إضراب لعمال المطابع . ولا أدري كيف أصف لك مدى ارتياحي . ثم ذهبت للعيش مع والدتي في تشيلتنهام لفترة ـ فهي تدير محلاً للتحفيات . ثم تلقيت رسالة من صديق قديم يدعى سام كيفير كان قد أفتتح وكالة جديدة خاصة بالمقالات الصغيرة عن الحياة الانجليزية وكرسها للصحافة الأجنبية . تعرف هذا النوع من العمل : ستمائة كلمة عن رقصة موريس . رغم ذلك ، كان لدى سام وسيلة تحايل جديدة . فقد باع المادة مترجمة في الأساس ، وهل تدري أن هذا يحقق فرقاً كبيراً . فالمرء يتصور دائماً أن باستطاعة أي شخص استئجار مترجم

Amly نهضة العرب

أو القيام بالمهمة بنفسه ، لكنك لو كنت تبحث عن نصف عمود صحفي تملؤه بالتغطية الخارجية فلن تضيع الوقت والمال على الترجمة . وطريقة سام كانت الاتصال المباشر بالمحررين ـ لقد جال المسكين أوربا مثل غجري ، لكنه حصل على أجر مرض . "

صمت آش منتظراً أن يقبل ليماس الدعوة للحديث عن نفسه ، لكن ليماس أهملها . اكتفى بهز رأسه ببلادة وقال : " جيد جداً . " أراد آش أن يطلب نبيذاً . بيد أن ليماس قال إنه سيبقى يشرب ويسكي ، وفي الوقت الذي وصلت فيه القهوة كان قد شرب أربعة كؤوس كبيرة . بدا في وضع سيء ، فقد اعتاد على طريقة المدمنين في تغطيس فمه في حافة كأسه قبل أن يشرب وكأن يده قد تخونه أو قد يهرب منه الشراب . صمت آش لوهلة . وسأل : " أنت لا تعرف سام ، أليس كذلك ؟ "

ـ " سام ؟ "

دخلت على صوت آش نبرة انزعاج .

ـ " سام كيفير . مديري . الشخص الذي كلمتك عنه . "

ـ " هل كان في برلين أيضاً . "

ـ " كلا . فهو يعرف ألمانيا جيداً لكنه لم يعش في برلين أبداً . قام ببعض النشاطات في بون ، أعمال غير ثابتة . ربما كنت قد التقيت به . فهو اجتماعي . "

ـ " لا أعتقد ذلك . " ثم ساد صمت .

سأل آش : " ماذا تفعل هذه الأيام يا صديقي القديم ؟ "

هز ليماس كتفيه وأجاب : " على الرف " . وكشر بشيء من الغباء . " خارج الحقيبة وعلى الرف . "

ـ " نسيت ما كنت تفعله في برلين . ألم تكن واحداً من مقاتلي الحرب الباردة السريين ؟ "

فكر ليماس : يا إلهي ، أنت تعجّل الأشياء قليلاً ، وأحمر وقال بفظاظة : " عامل مكتب لصالح اليانكيين القذرين كبقية الناس . "

قال آش : " أنت تعلم " ، وكأنه كان يقلّب الفكرة في ذهنه لبعض الوقت ، " يجب أن تقابل سام . ستحبه " . بعدها ، وفجأة قال : " أقول يا أليك ، لا أعرف حتى أين أجدك ! "

رد ليماس بفتور : " لا تستطيع . "

ـ " لا أستطيع أن أجدك يا صديقي القديم . أين تقيم ؟ "

ـ " هنا و هناك . أعيش بشيء من العسر . لم أحصل على وظيفة . لم

Amly نهضة العرب

يمنحني السفلة راتباً تقاعدياً كافياً . "

بدا آش مرتعباً .

ـ " ولكن هذا مريع يا أليك . لماذا لم تقل لي ؟ إسمع ، لم لا تأتي وتعيش في بيتي ؟ إنه بيت صغير ، لكن ، يوجد مجال لشخص آخر إن لم يكن لديك اعتراض على سرير صغير قابل للطي . لا يمكن أن تعيش في العراء يا صديقي العزيز ! "

أجاب ليماس : " أنا على ما يرام الى حد ما ، " وهو يضرب على الجيب الذي كان فيه مظروف النقود . " سأحصل على وظيفة ، " أومأ برأسه بعزم . " سأحصل على وظيفة خلال أسبوع أو نحو ذلك . عندها ، سأكون على ما يرام . "

ـ " ما نوع العمل ؟ "

ـ " أوه ، لا أدري ، أي شيء . "

ـ " أليك ، لا يمكنك أن ترمي بنفسك هكذا ! فأنت تجيد الألمانية كواحد من أبنائها . أنا أتذكر ذلك . لابد من وجود كل أنواع الأشياء التي تستطيع فعلها . "

ـ " فعلت كل الأشياء . بعت الموسوعات لشركة أمريكية قذرة ، نظمت الكتب في مكتبة للعلوم النفسية ، خرمت بطاقات العمل في مصنع غراء نتن . فماذا أستطيع بحق الجحيم . " لم يكن ينظر الى آش ، بل الى المنضدة التي امامه ، وكانت شفتاه مهتاجتين تتحركان بسرعة . استجاب آش لهياجه ، منحنياً إلى الأمام عبر المائدة متحدثاً بتأكيد ، منتصراً تقريباً .

ـ " لكن يا أليك ، أنت بحاجة الى علاقات ، أليس كذلك ؟ أعرف الحال ، فقد خبرت كسب العيش بنفسي . تلك هو المرحلة التي تحتاج فيها الى معرفة الناس . لا أعرف ما الذى كنت تفعله في برلين . ولا أريد أن أعرف . لكنه لم يكن ذلك النوع من العمل الذي تستطيع فيه مقابلة أناس مهمين ، أليس كذلك ؟ لو لم أقابل سام في بورتان قبل خمس سنوات لكنت الآن في طابور الإعاشة . إسمع يا أليك ، تعال وعش معي لأسبوع أو نحو ذلك . سنسأل عن سام وربما عن واحد أو اثنين من رجال الصحافة القدامى من برلين إن كان أي منهم في المدينة . "

قال ليماس : " لكنني لا أستطيع أن أكتب . لم أستطع كتابة شيء في يوم من الأيام . "

وضع آش يده على ذراع ليماس . " والآن ، لا تقلق ، " قالها بهدوء . " دعنا نرتب الأمور كلاً في حينه . أين أشياؤك ؟ "

Amly نهضة العرب

ـ " ماذا ؟ "
ـ " أشياؤك : الملابس ، الحقائب وما الى ذلك ؟ " .
ـ " ليس لدي شيء . بعت ما لدي ـ عدا الرزمة . "
ـ " أية رزمة ؟ "
ـ " الرزمة الورقية البنية التي وجدتها في المتنزه . تلك التي حاولت التخلص منها . "

كان آش يسكن شقة في ميدان دولفن . كانت كما توقع لياس بالضبط . صغيرة ومجهولة ، فيها حاجات غريبة قليلة جمعت على عجل من المانيا ومنها : أواني بيرة خزفية ، غليون فلاحي وبعض القطع من نيمفنبورغ من الدرجة الثانية .

قال : " أنا أمضي نهايات الأسبوع مع والدتي في تشيلتنهام . وأستخدم هذا المكان أيام الأسبوع . إنه قريب جداً . " أضاف بنبرة مستخفة . قاما بوضع السرير المتحرك في غرفة الأستقبال الصغيرة . كان الوقت قد أوشك على الرابعة والنصف .

سأله لياس : " كم مضى عليك هنا ؟ "
ـ " حوالي سنة أو اكثر . "
ـ " هل وجدتها بسهولة ؟ "
ـ " كما تعلم ، هذه الشقق تأتي وتذهب ، وتسجل إسمك ويتصلون بك يوماً ويقولون لك لقد نجحت . "

أعد آش شاياً وشرباه ، وكان لياس متجهماً ، كرجل لم يعتد الراحة . حتى آش بدا محزوناً قليلاً . و بعد الشاي ، قال آش : " سأخرج وأتبضع بعض الأشياء قبل أن تغلق المحلات أبوابها ، ثم تقرر ما تفعله بشأن كل شيء . قد أتصل هاتفياً بسام في وقت لاحق هذا المساء ـ أعتقد أنه كلما أسرعتم في اللقاء كلما كان هذا أفضل . لماذا لا تنام قليلاً ـ تبدو مستنفداً . "

أومأ لياس وقال : " هذا لطف منك ، " وأشار إشارة خرقاء بيده : " كل هذا . "

ربت آش على كتفه ، التقط معطفه المطري وغادر .

حالما حسب لياس أن آش قد غادر البناية بأمان ، ترك الباب الأمامي للشقة مفتوحاً قليلاً وأتجه نازلاً الى الصالة المركزية حيث كانت هناك حجيرتا هاتف . زوّل رقماً في منطقة مايدا فيل وسأل عن سكرتيرة السيد توماس . وفي الحال ، ردت فتاة قائلة : " سكرتيرة السيد توماس تتحدث . "

قال لياس : " أنا أتكلم نيابة عن السيد سام كيفير ، " وأضاف . " إنه

Amly نهضة العرب

قبل الدعوة ويأمل الاتصال بالسيد توماس شخصياً هذا المساء . "

ـ " سأنقل ذلك الى السيد توماس . هل يعرف أين يتصل بك ؟ "

أجاب ليماس : "ميدان دولفن" ، وأعطى العنوان ثم قال : "وداعاً ."

بعد أن أجرى بعض الاستفسارات في الاستعلامات ، عاد الى شقة آش ، وجلس على السرير وراح ينظر الى يديه المتشابكتين . بعد قليل أستلقى . قرر أن يقبل نصيحة آش ويرتاح قليلاً . تذكر ، وهو يغمض عينيه ، لِز نائمة الى جانبه في الشقة في بيزووتر وتساءل بغموض عما حل بها .

أيقظه آش الذي كان بصحبة رجل ممتلىء الجسم الى حد ما له شعر أشيب طويل ممشط الى وراء ، مرتدياً بدلة مزدوجة الأزرار . كان يتحدث بلغة فيها شيء من لكنة أوربا الوسطى ، ربما ألمانية ، فقد كان من الصعب التمييز . قال إن إسمه ـ كيفير ـ سام كيفير .

شربوا الجن والتونيك ، وكان آش أكثرهم كلاماً . قال إن الأمر يشبه الأيام الخوالي في برلين . حين يجمع الليل الشباب معاً . قال كيفير إنه لا يريد أن يتأخر كثيراً ، إذ أن عليه أن يعمل في الغد . ووافقوا على تناول الطعام في مطعم صيني كان آش يعرفه ـ مقابل مركز شرطة لايمهاوس حيث تستطيع أن تجلب خمرك معك . ومن المصادفات الغريبة أن آش كان لديه شيء من شراب البيرغندي في المطبخ ، فأخذوه معهم في سيارة الأجرة .

كان العشاء جيداً وشربوا قنينتي الخمر . فتح كيفير القنينة الثانية وشرب منها قليلاً . كان عائداً لتوه من جولة في المانيا الغربية وفرنسا . كانت فرنسا في حالة فوضى عارمة ، و كان "ديغول" على وشك الرحيل ، وكان الله وحده يعلم ما الذي سيحدث عندها . ومع عودة مائة الف من المستعمرين المنهارين من الجزائر ، حسب أن الفاشيه قادمة .

سأل آش مشجعاً : " وماذا عن المانيا ؟ "

ـ " إنها مسألة تتعلق بقدرة الأمريكيين على السيطرة عليهم . "

نظر كيفير الى ليماس بطريقة مشجعة .

سأل ليماس : " ماذا تعني ؟ "

ـ " أعني الذي قلته . فقد منحهم دلاس سياسة خارجية في يد ، واستردها الرئيس كِندي باليد الأخرى . إنهم يتململون . "

أومأ ليماس بجفاف وقال : " يانكي نموذجي لعين . "

ـ " لا يبدو أن ليماس يحب أبناء عمومتنا الأمريكيين . " قالها آش بتأكيد . فتمتم كيفير بلا اكتراث : " حقاً ؟ " ولعب كيفير اللعبة ، وراح

Amly نهضة العرب

ليماس يتأمله ، لفترة طويلة . ومثل شخص اعتاد على الخيول ، جعلك تأتي اليه . فقد أدى ، حد الكمال ، دور رجلٍ يتوقع أن يطلب منه معروف ما ، ولم يكن من السهولة كسبه .

بعد العشاء قال آش : " أعرف مكاناً في شارع واردر . كنت هناك يا سام ـ يخدمونك خدمة حسنة هناك . لماذا لا نستدعي سيارة أجرة ونذهب ؟ "

قال ليماس : " دقيقة ، " وكان في صوته شيء جعل آش ينظر اليه بسرعة . " قل لي شيئاً من فضلك . مَن سيدفع نفقات هذا الحفل ؟ "

قال آش بسرعة : " أنا . سام وأنا . "

ـ " هل ناقشتما الأمر ؟ "

ـ " حسنا ـ لا . "

ـ " لأني لا أملك أية نقود لعينة ، وأنت تعرف ذلك ، أليس كذلك ؟ لا شيء للتبديد على أية حال . "

ـ " طبعاً يا أليك ، لقد كنت أعتني بك حتى الآن ، أليس كذلك ؟ "

أجاب ليماس : " نعم ، نعم . كذلك . "

بدا وكأنه على وشك أن يقول شيئاً آخر ، ثم غير رأيه ، بدا آش قلقاً ، لكن ليس منزعجاً ، وكان كيفير مثيراً للحيرة كعهده من قبل :

رفض ليماس الحديث في سيارة الأجرة . وحاول آش القيام بمحاولة لإصلاح الموقف وهز كتفيه بانزعاج فحسب . وصلوا شارع واردور ونزلوا من السيارة ، ولم يحاول ليماس أو كيفير دفع أجرة السيارة . قادهما آش عبر شباك محل مليء بالمجلات النسائية إلى زقاق ضيق ، وفي نهايته البعيدة ، أضيء مصباح نيون مبهرج كتب عليه : نادي بوسي ويلو ـ للأعضاء فقط .

على جانبيّ الباب ، كانت هناك صور فتيات ، وقد ثبت عبر كل صورة منها شريط رفيع مطبوع باليد كتب عليه : دراسة طبيعية . للأعضاء فقط .

ضغط آش على الجرس . وفي الحال ، فتح الباب رجل ضخم يرتدي لميصاً أبيض وسروالاً أسود . قال آش : " أنا عضو ، وهذان الرجلان معي . "

ـ " بطاقتك ؟ "

أخرج آش بطاقة صفراء من محفظته وسلمها له .

ـ " يدفع ضيوفك جنيهاً عن كل رأس ، عضوية مؤقتة ، بتوصية منك ، أليس صحيحاً ؟ " أعاد البطاقة . وأثناء ذلك ، تطاول ليماس عبر آش

Amly نهضة العرب

وأخذها . نظر فيها لحظة ثم أعادها الى آش .

بعد أن استخرج جنيهين من الجيب الخلفي لسرواله ، وضعهما لياس في يد البواب المنتظرة .

قال لياس : " جنيهان عن الضيوف " ، وبعد أن أهمل احتجاجات آش المندهشة ، قادهم عبر الممر المستور الى قاعة النادي المعتمة . واستدار نحو البواب . قال لياس : " جد لنا منضدة ، وقنينة ويسكي . واحرص على عدم إزعاجنا . "

تردد البواب لحظة ، وقرر عدم المجادلة ، وأوصلهم الى الطابق الأسفل . وأثناء نزولهم ، سمعوا الأنين المكبوح لموسيقى غير مفهومة . حصلوا على مائدة خاصة بهم في مؤخرة الغرفة . كانت هناك فرقة من عازفين أثنين تعزف الموسيقى وكانت الفتيات جالسات مثنى وثلاثاً . نهضت فتاتان حال دخولهم ، إلا أن البواب الضخم هزّ رأسه نفياً .

رمق آش لياس بنظرة غير عادية أثناء انتظارهم الويسكي . وبدا كيفير ضجراً قليلاً . جلب النادل قنينة وثلاثة أقداح وراحوا يراقبونه وهو يصب شيئاً من الويسكي في كل كأس . أخذ لياس القنينة من النادل وأضاف قدراً آخر لكل قدح . وبعد أن تم هذا ، اتكأ عبر المائدة وقال لآش : " والآن ، ربما ستخبرني ما الذي يجري بحق الجحيم ؟ "

ـ " ماذا تقصد ؟ " بدا آش غير متأكد . " أليك ، ماذا تقصد؟ "

بدأ كلامه بهدوء : " تعقبتني من السجن في اليوم الذي أطلق فيه سراحي ، وبقصة حمقاء عن لقائنا في برلين ، أعطيتني مالاً لم تكن مديناً لي به ـ ودفعت عني وجبات طعام غالية واستضفتني في شقتك . "

إحمر آش وقال : " إذا كان الـ . . . "

قال لياس بحدة : " لا تقاطع ، إنتظر حتى أنتهي ، هل لديك اعتراض ؟ بطاقة عضويتك في هذا المكان مكتوبة بأسم ميرفي . هل ذلك هو إسمك ؟ "

ـ " لا . ليس إسمي . "

ـ " أعتقد أن صديقاً إسمه ميرفي أعارك بطاقة عضويته ؟ "

ـ " لا . لم يفعل في الحقيقة . إن أردت أن تعرف ، فأنا أجيء الى هنا لأجد فتاة . فقد أستخدمت إسماً مزوراً للانتماء الى النادي . "

أصر لياس بقسوة : " اذن ، لماذا تؤجر شقتك باسم ميرفي أيضاً ؟ " وأخيراً تحدث كيفير .

قال لآش : " اذهب أنت الى البيت . سأعالج الموقف . "

Amly نهضة العرب

قدمت فتاة سمراء صغيرة ، على فخذها كدمة ، عرض تعرٍ . كان عريها هزيلاً مثيراً للشفقة محرجاً لأنه غير مثير ، ولأنه بلا فن ولا شهوة . أستدارت متمهلة وقفزت قفزات متقطعة بيديها وساقيها كما لو أن الموسيقى تصلها في شكل خطفات سريعة ، وطوال الوقت ، كانت تنظر اليهم باهتمام طفل وسط حشد من البالغين .

وتصاعد إيقاع الموسيقى بحدة ، واستجابت ككلب للصافرة ، فارةً الى الخلف والأمام . وبعد أن أزاحت صديريتها في النغمة الأخيرة ، أمسكتها فوق رأسها ، عارضةً جسدها النحيل بخرقهِ الثلاثة الملونة من الخيوط المتدلية وكأنها زينة شجرة عيد ميلاد قديمة .

راح ليماس وكيفير يتابعان بصمت .

أخيراً ، قال ليماس : " أظن أنك ستقول لي بأننا شاهدنا أفضل من هذا في برلين . " ولاحظ كيفير أن ليماس ما زال غاضباً جداً .

رد كيفير بسرور : " أتوقع أن تكون قد شاهدت هكذا . زرت برلين كثيراً بيد أني لا أحب النوادي الليلية " . ولم يقل ليماس شيئاً .

ـ " أنا لست محتشماً ، لاحظ هذا ، بل عقلاني فقط . إن أردت امرأة أعرف طرقاً أرخص لإيجاد واحدة . وإن أردت الرقص أعرف أماكن أفضل للرقص . "

ربما لم يكن ليماس مصغياً . وقال : " ربما تخبرني لماذا ألتقطني ذلك المخنث " . وأومأ كيفير برأسه .

ـ " بالتأكيد . أنا أبلغته . "

ـ " لماذا ؟ "

ـ " أنا مهتم بك . أود ان أطرح عليك فكرة ، فكرة صحفية . "

ثم ساد صمت .

كرر ليماس : "صحفية ؟ فهمت . "

ـ " أنا أدير وكالة مقالات دولية . تدفع أجوراً جيدة ـ جيدة جداً للمادة الممتعة . "

ـ " ومَنْ ينشر المادة ؟ "

ـ " تدفع أجوراً جيدة جداً في الحقيقة ، إن رجلاً بخبرتك . . . بالوضع الدولي ، رجل بخلفيتك ، أنت تفهم ، يقدم مادة واقعية مقنعة يستطيع أن يخلص نفسه في وقت قصير من الضيق المالي . "

ـ " كيفير ، مَنْ ينشر المادة ؟ " كانت هناك نغمة تهديد في صوت

Amly نهضة العرب

لـيـاس ، وللحظة ، للحظة فـقط ، بدت عـلامـة خـوف على وجـه كـيـفـيـر الأملس .

ـ " زبائن دوليـون . لدي مـراسل في بارِيس يقوم بتوزيع كميات كبيرة من مـادتي . وفي الغـالب لا أعـرف حـتى من ينشر بالفـعل . أعترف بذلك " . أضـاف بابتـسـامـة أسترضـاء . " وذاك ما لا أعيره اهتماماً . يدفعون ويطلبون المـزيـد . هـم كما تـرى يـا ليـاس ، من الناس الذين لا يثيرون ضـجـة بشأن تفـاصـيل مـقـرفـة . يدفـعون فوراً ، وهم سعداء للدفع في مصارف أجنبيـة ، مثلاً ، حيث لا ينشغل أحد بأشياء مثل الضريبة . "

لم يقل ليـاس شيئاً . كان يمسك كأسه بيديه الاثنتين محدقاً فيه .

فكر ليـاس : يا إلهي ، أنهم يسـقطون جـدرانهم . إنه عمل بذيء . تذكر نكتـة سـخـيـفـة من صالات الملاهي الرخيصة . " هذا عرض لا يمكن لفتاة محترمـة تقـديمـه ـ وبالاضافة الى ذلك ، ليـس هناك مَنْ يعرف قيمته . " فكر متـأمـلاً ، أنهم على حق في الاندفـاع ، على المسـتوى التكتـيكي . فأنا ساقط ومـبـعـد ، وتجـربة الـسـجن لا تزال سـاخنة والامـتعاض الاجتماعي قوي . أنا حـصـان عـجوز . لا أحتاج الى الترويض . وليس عليّ أن أتظاهر بأنهم مسوا شرفي كسيد إنجليزي .

من الناحيـة الأخـرى ، لابد أنهم يتـوقـعون صعوبات عمليـة . يتوقعـون منه ، مـثـلاً أن يخاف لأن دائرته تلاحق الخونة كما لاحقت عين الله قابيل عبر الصـحـراء . وأخيراً ، سـيـعرفون أنها مقامرة . ويكتشفون أن عدم الثبات في الـقـرار الـبـشري يـمـكـن أن يحـول أفـضل خطط التـجـسـس إلى هراء . وأن الغـشـاشين والكذابين والمجـرمين قـد يقـاومون أية مداهنة في حين يندفع رجال محترمـون إلى أفظع الخيانات في جلسة غداء متواضع في مطعم حقير .

تمتم ليـاس أخيراً : " عليـهم أن يدفـعوا الكثير ، " . وأعطاه كيفير مزيداً من الويسكي .

ـ " إنهم يقـدمـون خمسة عشر ألف جنيه نقداً . والمبلغ مودع حالياً في بنك كـانتـونال في بيرن ويمـجـرد اسـتـخراج هوية مناسبة ، سيزودك بها زبائني ، تـسـتطيع سـحب المبلغ . ولزبائني الحق في طرح أسئلة عليك خـلال فترة سنة مـقـابل خمـسـة الآف جنيـه . وسـيـسـاعـدونك في . . . تـسـوية أية مشكلة قد تواجهك في مجال الاستقرار . "

ـ " متى تريد جواباً ؟ "

ـ " الآن . ولـيـس مطلوباً منك وضع كل تجـاربك الماضـيـة على الورق . سـتقابل زبوني وسيرتب الحصول على المادة . . . مكتوبة بأسم غيرك . "

Amly نهضة العرب

ـ " وأين يفترض أن أقابله ؟ "

ـ " شعرنا بأنه من مصلحة الجميع أن يكون من الأسهل اللقاء خارج المملكة المتحدة . وقد اقترح موكلي هولندا . "

قال ليماس بتثاقل : " جواز سفري ليس معي . "

أجاب كيفير بدماثة : " لقد سمحت لنفسي باستحصال جواز لك . " ولم يدل أي شيء في صوته أو أسلوبه على أنه فعل أكثر من مجرد ترتيب عمل مناسب .

ـ " سنطير صباح غد الى لاهاي في الساعة التاسعة وخمس وأربعين دقيقة . هلا عدنا الى شقتي وناقشنا أية تفاصيل أخرى ؟ "

دفع كيفير الحساب واستقلا سيارة أجرة الى عنوان واضح تقريباً وليس ببعيد عن متنزه سنت جيمس .

كانت شقة كيفير مزودة بأسباب الترف والغنى ، إلا أن محتوياتها أعطت الانطباع بأنها قد جمعت على عجل . يقال أن هناك محلات في لندن تبيعك كتباً مجلدة باليادات ، ومنسقي ديكور داخلي ينسقون ألوان الجدران مع ألوان اللوحات . وقد وجد ليماس ، الذي لم يكن مستوعباً بصورة خاصة مثل هذه الأمور الدقيقة صعوبة في أن يتذكر أنه كان في شقة خاصة وليس فندقاً . ولما قاده كيفير الى غرفته (التي كانت تطل على ساحة داخلية قذرة وليس على الشارع) سأل ليماس : " منذ متى تعيش هنا ؟ "

رد كيفير بخفة : " أوه ، ليس منذ زمن طويل ، عدة أشهر ، ليس أكثر . "

ـ " لابد أنها تكلف الكثير . على أية حال ، أعتقد أنك تستحقها . "

ـ " شكراً . "

كانت توجد قنينة ويسكي في غرفته وقارورة صودا في صينية مطلية بالفضة . وكان هناك ممر محجوز بستائر عند الطرف البعيد من الغرفة ، يؤدي الى حمام ومرحاض .

ـ " عش حب صغير جداً . كل هذا تدفعه دولة العمال العظيمة ؟ "

قال كيفير بقسوة : " إخرس ، " وأضاف ، " إذا ما أُحتجتني فهناك هاتف اتصال داخلي مع غرفتي . سأكون مستيقظاً . "

رد ليماس : " أعتقد أن بأستطاعتي تدبير أمري الآن . "

قال كيفير بايجاز : " إذن ، تصبح على خير ، " وترك الغرفة . فكر ليماس : هو الآخر متوتر .

Amly نهضة العرب

أيقظ الهاتف ليماس . كان كيفير على الخط .
قال : " إنها السادسة . والإفطار في السادسة والنصف . "
أجاب ليماس : " حسنا ، " ووضع السماعة . كان يعاني من صداع .

لابد أن كيفير طلب سيارة أجرة عن طريق الهاتف ذلك لأن جرس الباب رن عند السابعة ، وسأل كيفير : " هل جهزت كل شيء ؟ "
أجاب ليماس : " ليس لدي حقائب ، ماعدا فرشاة الأسنان وماكنة حلاقة . "
ـ " هذا أمر سنهتم به . عدا ذلك هل أنت جاهز ؟ "
هز ليماس كتفيه . " أظن ذلك . هل لديك سجائر ؟ "
أجاب كيفير : " لا ، لكن بإمكانك الحصول عليها على متن الطائرة " .
أضاف : " من الأفضل أن تهتم بهذا ، " وناول ليماس جواز سفر بريطانياً . كان بإسمه وقد ألصقت فيه صورته وختمت بختم وزارة الخارجية الذي يمر عبر الزاوية . لم يكن جوازاً قديماً ولا جديداً . وقد جاء في وصف ليماس بأنه موظف وحالته الاجتماعية أعزب . حين أمسكه بيده لأول مرة ، شعر ليماس بشيء من الاضطراب . كان الأمر يشبه الزواج : فمهما حدث فإن الأشياء لن تكون نفسها مرة أخرى .
سأل ليماس : " ماذا عن النقود ؟ "
ـ " لن تحتاج لشيء . الشركة مسؤولة . "

Amly نهضة العرب

٨ * الحراب

كان الجو بارداً ذلك الصباح ، وكان الضباب الخفيف رطباً ورمادياً ، يخز الجلد . ذكّر المطار ليماس بالحرب ، آلات نصف مخفية في الضباب تنتظر بصبر أسيادها ، الأصوات الرنانة وأصداؤها ، الصرخات المفاجئة والضربة المتنافرة لعقبي قدم فتاة على أرض صخرية ، وزئير آلة ينطلق بمحاذاتك . في كل مكان ، تجد ذلك الجو التآمري الذي يتولد بين الناس الذين استفاقوا منذ الفجر ، الإحساس بما يشبه الزهو الناجم عن التجربة المشتركة لرؤية اختفاء الليل وقدوم الصباح . كان الطاقم يحمل تلك النظرة التي تأخذ شكلها من غموض الفجر ويمنحها البرد حياةً ، وقد عاملوا المسافرين وأمتعتهم بعزلة رجال عائدين من الجبهة : بشر عاديون ولا شيء بانتظارهم ذلك الصباح .

كان كيفير قد زود ليماس بالحقائب . مجرد رتوش تضاف إلى الصورة : وأعجب بها ليماس . فالمسافرون بلا حقائب يجذبون الانتباه ، وكان ذلك ما يتجنبه كيفير . راجعاً عند مكتب الخطوط واتبعا الإشارات الى موضع تفتيش الجوازات ، حدث للحظة ما يثير الضحك عندما ضلا الطريق ، وكان كيفير قاسياً مع أحد الحمالين . ظن ليماس أن كيفير كان قلقاً بشأن الجواز ـ لم يكن بحاجة الى ذلك كما فكر ليماس ، فليس فيه أي خطأ .

كان ضابط الجوازات رجلاً صغيراً يرتدي ربطة عنق خاصة بسلك الاستخبارات ويضع شارة غامضة على طية صدر السترة . وكان ذا شارب بني ويتحدث بلكنة شمالية كانت تجلب له العداء طيلة حياته .

سأل الضابط : " هل ستبقى فترة طويلة يا سيدي ؟ "

أجاب ليماس : " أسبوعان . "

ـ " عليك ملاحظته يا سيدي ، فجوازك لابد أن يجدد في الحادي والثلاثين من الشهر . "

قال ليماس : " أعرف . "

Amly نهضة العرب

سارا جنباً الى جنب الى غرفة انتظار المسافرين . وفي الطريق قال ليماس : "أنت لوطي مشبوه ، أليس كذلك يا كيفير ؟" وضحك كيفير بهدوء . " لا نستطيع أن نطلق لك العنان ، أليس كذلك ؟ ليس جزءاً من العقد . "

كان عليهما الانتظار عشرين دقيقة أخرى . جلسا إلى مائدة وطلبا قهوة . قال كيفير للنادل : " وخذ هذه الأشياء بعيداً ، " مشيراً الى الأكواب والصحون ومنافض السجائر المستعملة على المائدة .

أجاب النادل : " هناك عربة مخصصة لذلك . "

كرر كيفير غاضباً مرة أخرى : " خذها . من المقرف ترك الصحون القذرة على هذا النحو . " استدار النادل مبتعداً . لم يتوجه إلى منضدة الخدمة ولم يطلب قهوتهما . إصفر كيفير وهو يتميز غضباً . تمتم ليماس : " من أجل الله ، أترك الموضوع . فالحياة قصيرة جداً . "

قال كيفير : " نذل وقح ، هذا هو وصفه . "

ـ " حسناً ، حسناً ، تريد أن تثير ضجة ، لقد أخترت لحظة مناسبة ، لن ينسونا هنا أبداً . "

لم تثر الإجراءات الرسمية في مطار لاهاي مشكلة وبدا أن كيفير قد تخلص من توتراته . وصار مرحاً وكثير الكلام أثناء قطعهما المسافة القصيرة بين الطائرة وسقائف الجمارك . ألقى الضابط الهولندي الشاب نظرة روتينية على حقائبهما وجوازي سفرهما وقال بإنجليزية خشنة ومضخمة : " أتمنى لكما طيب الإقامة في هولندا . "

قال كيفير : " شكراً ، " بامتنان كبير تقريباً وأضاف ، " شكراً جزيلاً . "

سارا من سقيفة الجمارك على امتداد الممر الى صالة الاستقبال على الجانب الآخر من بنايات المطار . وكان كيفير يسير في المقدمة نحو باب الخروج الرئيسي بين جماعات المسافرين الصغيرة ، محدقاً بغموض في أكشاك عرض العطور والكاميرات والفواكه . وأثناء ما كانا يشقان طريقهما عبر الباب الزجاجي الدوار ، نظر ليماس الى الخلف فشاهد رجلاً واقفاً عند كشك الصحف غارقاً في قراءة نسخة من " الداييلي ميل الدولية " ، كان رجلاً صغيراً كأنه ضفدع ، يرتدي نظارات ، رجلاً جاداً ، قلقاً ، صغيراً . بدا وكأنه موظف مدني ، شيء من هذا القبيل .

كانت هناك سيارة تنتظرهما في ساحة وقوف السيارات ، سيارة نوع

Amly نهضة العرب

فولكسفاجن تحمل لوحة تسجيل هولندية ، تقودها امرأة ، لم تكترث لهما . كانت تسوق بتمهل ، متوقفةً دائماً إذا كانت الأضواء صفراء ، وخمن لياس بأنها أبلغت بالسياقة بتلك الطريقة ، وأنهما كانا ملاحقين بسيارة أخرى . راقب المرآة الجانبية محاولاً تمييز السيارة ، لكن دون نجاح . مرةً شاهد سيارة بيجو سوداء تحمل رقماً دبلوماسياً ، لكن ، حين أستداروا ، كانت هناك شاحنة أثاث فقط خلفهم . كان يعرف لاهاي جيداً منذ الحرب ، وحاول أن يفهم الى أين هم متجهون . خمن أنهم كانوا متجهين الى الشمال الغربي باتجاه شيفننجين ، ومرعان ما خلفوا الضواحي وراءهم وأقتربوا من مستعمرة من الفلل المحيطة بالكثبان الممتدة على طول جبهة البحر .

توقفوا هنا . نزلت المرأة تاركة إياهما في السيارة ، ودقت جرس باب بيت ريفي صغير مصبوغ بلون أبيض يقع عند النهاية القريبة من الشارع . وقد علقت على عتبته لوحة حديدية كتب عليها السراب بخط قوطي أزرق فاتح . كانت هناك لافتة في الشباك تقول إن كل الغرف مشغولة .

فتحت امرأة ممتلئة لطيفة الباب . نظرت عبر السائقة نحو السيارة . وظلت عيناها على السيارة ، ثم اتجهت نازلة عبر الممر نحوهم وهي تبتسم بسرور . ذكرت لياس بعمة عجوز له أعتادت ضربه حين كان صغيراً .

قالت : " كم هو جميل أن تأتوا . نحن في غاية السعادة لمقدمكم . "

تبعوها الى داخل البيت ، كيفير في المقدمة . وعادت السائقة الى السيارة . ألقى لياس نظرة على الطريق الذي سلكوه للتو . وعلى بعد ثلاثمائة ياردة كانت هناك سيارة سوداء ، ربما فيات أو بيجو . وكان هناك رجل يرتدي معطفاً مطرياً يخرج منها .

بعد أن دخلوا الصالة ، صافحت المرأة لياس بحرارة . " أهلاً وسهلاً ، أهلاً بك في السراب . هل كانت رحلتك مريحة ؟ "

أجاب لياس : " رائعة . "

ـ " هل كانت بالطائرة أم عن طريق البحر ؟ "

قال كيفير : " بالطائرة ، رحلة هادئة جداً " . كما لو كان يملك الخطوط الجوية .

قالت : " سأعد لكم الغداء . غداء خاص . سأصنع لكم شيئاً خاصاً . ماذا أجلب لكم ؟ "

قال لياس بصوت مهموس : " من أجل الله ، " ودقّ جرس الباب . وذهبت المرأة الى المطبخ بسرعة . وفتح كيفير الباب الأمامي .

Amly نهضة العرب

كان يرتدي معطف مطر بأزرار جلدية . كان طوله بطول ليماس ، إنما أكبر عمراً . قدره بحوالي الخامسة والخمسين . وكان لوجهه لون رمادي صلب ، وتجعدات حادة . ربما كان جندياً . مد يده ، قال : " إسمي بيترز ، " . كانت أصابعه نحيفة وصقيلة .

ـ " هل كانت رحلتكم مريحة ؟ "

قال كيفير بسرعة : " نعم ، هادئة تماماً . "

ـ " لدي الكثير لأناقشه مع السيد ليماس . لا أعتقد بأننا بحاجة الى بقائك يا سام . تستطيع أن تأخذ الـ فولكسفاجن الى المدينة . "

ابتسم كيفير . ولاحظ ليماس الارتياح في ابتسامته : " وداعاً يا ليماس . " وقال كيفير بصوت مازح . " حظاً سعيداً يا رجل . "

أومأ ليماس برأسه مهملاً يد كيفير .

كرر كيفير : " وداعاً ، " وخرج بهدوء من الباب الأمامي .

تبع ليماس بيترز الى غرفة خلفية . كانت هناك ستائر ثقيلة معلقة على الشباك ، مكشكشة بأناقة ومزينة . وكانت حافة الشباك مغطاة بنباتات مزروعة في سلال ـ منها الصبار ، ونبتة تبغ وشجرة غريبة ذات أوراق مطاطية واسعة . كان الأثاث ثقيلاً ، شبه عتيق ، وفي وسط الغرفة كانت هناك منضدة مع كرسيين منقوشين . وقد غطى المنضدة غطاء بلون الصدأ ، أكثر شبهاً بسجادة . وعليها وأمام كل كرسي ، وجدت حزمة ورق وقلم رصاص . وعلى الخوان وضع ويسكي وصودا . اتجه بيترز نحوها ومزج شراباً لكل منهما . قال ليماس فجأة : " أنظر ، من الآن فصاعداً أستطيع أن أعمل دون حسن النية ، هل تفهمني ؟ كلانا يعرف ما نرمي إليه ، كلانا محترفان . فقد حصلت على منشق مأجور . حظاً سعيداً لك . وبالله عليك لا تتظاهر بأنك وقعت في حبي . " بدا منفعلاً غير متأكد من نفسه .

أومأ بيترز برأسه موافقاً . " أخبرني كيفير بأنك رجل معتد بنفسه ، " قال ملاحظاً ببرود . ثم أضاف دون أن يبتسم : " وإلا فلماذا يهاجم المرء الباعة ؟ "

خمن ليماس بأنه كان روسياً لكنه لم يكن متأكداً . كانت إنجليزيته بالغة حد الكمال تقريباً ، وكانت لديه سهولة وعادات رجل اعتاد من زمن طويل على وسائل الراحة المتحضرة .

جلسا الى المائدة .

تساءل بيترز : " لابد وأن كيفير قد أبلغك ما كنت سأدفعه لك ؟ "

ـ " نعم . خمسة عشر الف جنيه تسحب من مصرف في بيرن . "

Amly نهضة العرب

ـ " نعم . "

قال لـيماس : " قـال إنـه قـد تكون لديكم أسئلة متـابعـة خـلال السـنة القـادمة . وستدفعون خمسـة آلاف أخـرى إذا مـا ظللـت تحـت تصرفكم . "

أومأ بيترز برأسه .

أكـمل ليماس قوله : " لا أقبل بذلك الشرط . فأنت تعلم كما أعلم أنا أن الأمـر لا يمكن أن يسير على هذا النحو . أريد سحب مبلغ الخمسة عشر الفاً وانتـهي من الموضـوع . فلدي جماعـتكم طريقـة قـاسـية مع الوكلاء المنشقين ، وكـذلك جماعـتي . لن أقـعـد ساكناً في سنت مورتس في الوقت الذي تلتقطون فـيـه أعـضاء الشبكات التي أكشفها لكم . فهم ليسوا حمقى ، ويعرفون عمن يـبحثون . ذلك أننا نعرف جميعاً أنهم يسعون وراءنا الآن . "

أومـأ بـيترز برأسـه . " تـسـتطيع بالطبع أن تأتي الى مكان مـا . . . أكـثـر أماناً ، أليس كذلك ؟ "

ـ " وراء الستار ؟ "

ـ " نعم . "

هزّ ليماس رأسـه فحسب ، ثم واصل : " أحسب أنك ستحتاج الى حوالي ثلاثة أيام للاسـتـجواب الأولي . ثم ستحتاج الى العودة الى موجز مفصل . "

أجاب بيترز : " ليس بالضرورة . "

نـظر اليـه ليماس باهتمام وقـال : " فـهـمت . لقـد أرسـلوا الخبير . أليس مركز موسكو هو المسؤول عن هذه ؟ "

ظل بيترز صـامـتاً . كان ينظر الى ليماس فقط ، مواكباً إياه . وأخيراً ألتقط قلم الرصـاص الموجود أمامه وقال : " هل نبدأ بخدمتك في الحرب ؟ "

هزّ ليماس كتفيه .

ـ " الأمر متروك لك . "

ـ " ذلك حسن . سنبدأ بخدمتك في الحرب . تحدث فقط . "

ـ " تطوعت في سلاح الهندسة سنة ١٩٣٩ . وكنـت أنهـي تدريبـي حـين ظهـر إعـلان يدعـو اللغـويين الى التـقدم الى خدمة خاصة في الخارج . وكنت أجـيـد الهولندية والألمانيـة والكثير من الفرنسية ، وكنت قد سئمت العسكرية ، لذلك تقـدمت . كنت أعـرف هولندا جيداً ، وكان لوالدي وكالة أدوات آليات في ليـدن وقـد عـشت هناك تسـع سنوات . أنهيت المقـابلات العـادية والتحقت بمـدرسـة قرب أوكسفورد حيث علموني الحيل التقليدية المعروفة . "

ـ " مَن كان يدير تلك المهمة ؟ "

Amly نهضة العرب

ـ " لم أعرف حتى وقت متأخر . ثم قابلت ستيد آسبري ومدرساً من أوكسفورد يدعى فيلدنغ . كانا مسؤولين عنها . سنة ١٩٤١ ، تركوني في هولندا وبقيت هناك قرابة سنتين . كنا نفقد العملاء بأسرع مما كان باستطاعتنا تجنيدهم في تلك الأيام ، كانت عملية قتل . فهولندا بلد شرير لذلك النوع من العمل . فليس فيها ريف منعزل حقيقي ، لا مكان يبعد عن العيون يمكنك فيه الاحتفاظ بمقر أو جهاز راديو . دائماً في حركة . دائماً في حالة هروب . صار الأمر لعبة قذرة جداً . خرجت في ١٩٤٣ وقضيت شهرين في انجلترا ، ثم كانت لي رحلة الى النرويج ـ تلك كانت نزهة بالمقارنة بهولندا ، وفي ١٩٤٥ ، سرحوني وجئت الى هنا ، الى هولندا ، مرة أخرى لأجرب وأتابع عمل والدي القديم . ولم يكن ذلك مجدياً ، لذلك اشتركت مع صديق قديم كان يدير وكالة سفر في برستول ، واستمر ذلك ثمانية عشر شهراً ثم أفلسنا . وعلى نحو غير متوقع تسلمت رسالة من القسم تقول : هل ترغب في العودة ؟ لكنني كنت قد سئمت هذا كله ، هكذا فكرت ، لذلك قلت سأفكر في الأمر . وأستأجرت كوخاً في جزيرة لندي . بقيت هناك سنة أتأمل وضعي ، ثم شعرت بالملل مرة اخرى لذلك كتبت لهم . وفي أواخر عام ١٩٤٩ عدت الى قائمة العاملين . خدمة متقطعة طبعاً ـ تتضمن تخفيضاً في الحقوق التقاعدية وما يتبعه من شكوى معتادة . هل أنا سريع الكلام ؟ "

أجاب بيترز : " ليس الآن " ، وصب له مزيداً من الويسكي . " بالطبع سنناقش الموضوع مرة أخرى بالأسماء والتواريخ . "

طرق الباب ودخلت المرأة حاملة الغداء ، وجبة كبيرة من اللحوم الباردة والخبز والحساء . نحى بيترز دفتر ملاحظاته جانباً وأكلا بصمت . كان الأستجواب قد بدأ .

أزيح الغداء . قال بيترز : " إذن عدت الى الميدان . "

ـ " نعم . لفترة من الزمن كلفوني بوظيفة مكتبية ، إعداد تقارير ، اجراء تقييمات لنقاط القوة العسكرية لدول الستار الحديدي ، متابعة الوحدات وشيء من ذلك القبيل . "

ـ " أي قسم ؟ "

ـ " التوابع ، أربعة . كنت فيه من شباط ١٩٥٠ الى مايس ١٩٥١ . "

ـ " من كان زملاؤك ؟ "

ـ " بيتر غيلام ، براين دو جري وجورج سمايلي . تركنا سمايلي في بداية ١٩٥١ والتحق بدائرة التجسس المضاد . في مايس ١٩٥١ أرسلت الى برلين

Amly نهضة العرب

بصفة نائب مدير المنطقة . كان ذلك يعني كل العمل التنفيذي . "

ـ " مَن كان تحت إمرتك ؟ " كان بيترز يكتب بسرعة . وخمن ليماس أنه كان يعرف طريقة اختزال محلية .

ـ " هاكيت ، سارو ، ودي يونغ . قُتل دي يونغ في حادث مرور سنة ١٩٥٩ . اعتقدنا أنه قتل لكننا لم نستطع اثبات ذلك . كانوا يديرون شبكات وكنت أنا المسؤول . " وسأل بجفاف : " هل تريد تفاصيل ؟ "

ـ " طبعاً . لكن فيما بعد ـ استمر . "

ـ " في أواخر عام ١٩٥٤ ، اصطدنا أول سمكة كبيرة لنا في برلين : فرتز فيجر ، الرجل الثاني في وزارة دفاع المانيا الديمقراطية . وحتى ذلك الحين ، كان الأمر يسير بثاقل شديد ، لكن ، في تشرين ثاني من عام ١٩٥٤ توصلنا الى فرتز . استمر قرابة العامين بالضبط ، وفي أحد الأيام ، لم نعد نسمع شيئاً عنه . سمعت أنه مات في السجن . مرت ثلاث سنوات أخرى حتى تمكنا من إيجاد شخص يصل إلى مرتبته . وبعدها وفي ١٩٥٩ ، ظهر كارل رايماك . كان كارل يعمل في رئاسة الحزب الشيوعي لألمانيا الشرقية . وكان أفضل عميل عرفته في حياتي . "

لاحظ بيترز : " إنه ميت الآن . "

ظهرت على وجه ليماس مسحة شيء يشبه الخجل . تمتم : " كنت هناك عندما أطلقوا النار عليه ، " وأضاف . " كانت معه خليلة وصلت قبل أن يموت . وكان قد أخبرها بكل شيء . كانت تعرف الشبكة اللعينة بأكملها . فلا عجب أنه قتل . "

ـ " سنعود الى برلين في وقت لاحق . قل لي .عندما مات كارل طرت عائداً الى لندن . هل بقيت في لندن الفترة المتبقية من خدمتك ؟ "

ـ " نعم ، وماذا في ذلك ؟ "

ـ " ما طبيعة عملك في لندن ؟ "

ـ " قسم المصارف . الإشراف على رواتب العملاء ، مدفوعات ما وراء البحار لأهداف سرية . كان بإمكان طفل إدارة الوظيفة . كنا نتلقى أوامرنا ونوقع المسودات . أحيانا كان هناك إشكال أمني . "

ـ " هل كنت تتعامل مع العملاء مباشرة ؟ "

ـ " كيف لنا ذلك ؟ كان المقيم في بلد ما يقدم طلباً . فتقوم السلطات بوضع ختم عليه وتحيله الينا للدفع . وفي معظم الحالات ، كنا نحول الأموال إلى مصرف أجنبي مناسب حيث يستطيع المقيم أن يسحب المبلغ بنفسه ويسلمه الى العميل . "

Amly نهضة العرب

ـ " كيف كنتم تصفون العملاء ؟ بأسماء سرية ؟ "

ـ " بأرقام . تسميها الدائرة الأرقام التوافقية . وقد كان لكل شبكة رقم توافقي أو تركيبي : وكان كل عميل يعطى لاحقة لغوية تضاف الى الرقم . فقد كان رقم كارل هو ٨ أ/ ١ . "

كان ليماس ينضح عرقاً ، وراح بيترز يراقبه ببرود ، مقيماً إياه كمقامر محترف عبر المائدة . ماذا كانت قيمة ليماس ؟ ما الذي يكسره وما الذي يجذبه أو يخيفه ؟ ماذا كان يكره ، وفوق كل شيء ، ماذا كان يعرف ؟ هل سيحتفظ بأفضل أوراقه الى النهاية ويبيعها بثمن غال ؟ لم يعتقد بيترز ذلك . فقد كان ليماس فاقداً التوازن كثيراً الى حد أنه لايستطيع التحايل . كان رجلاً مختلفاً مع نفسه . رجل عرف حياة واحدة ، وخانها . وخانهم . و كان بيترز قد شاهد مثل هذا من قبل . شاهدها حتى في رجال مروا بانقلاب ايديولوجي كامل ، رجال عشروا في ساعات الليل السرية على معتقد جديد ، ولوحدهم ، ويدفع من القوة الداخلية لقناعاتهم ، خانوا أسماءهم وعائلاتهم وأوطانهم . حتى أولئك الممتلئون ، كما كانوا ، بحماس جديد وأمل جديد ، كان عليهم أن يناضلوا ضد وصمة الخيانة . أولئك كانوا يصارعون ألماً يكاد يكون جسدياً من جراء قول ذلك الشيء الذي دربوا على عدم كشفه أبداً ، أبداً . ومثل الذين خافوا من حرق الصليب ، ترددوا ما بين القطري والمادي . وكان على بيترز ، وهو يتأرجح بين القطبين ، أن يمنحهم الاطمئنان وأن يدمر كبرياءهم في الوقت نفسه . كان موقفاً يعيه الاثنان . وهكذا رفض ليماس بشراسة علاقة إنسانية مع بيترز ، لأن كبرياءه قد استبعدتها . وأدرك بيترز لتلك الأسباب أن ليماس سيكذب ، ربما سيكذب عن طريق الحذف لكنه يكذب في كل الأحوال ، بسبب الكبرياء أو نتيجة التحدي أو من خلال الطبيعة المشاكسة الصرف لمهنته . وكان على بيترز نفسه أن يكتشف الأكاذيب . وأدرك كذلك أن مجرد كون ليماس محترفاً قد يعمل عكس مصالحه لأن ليماس سيتقي حيث لم يرغب بيترز في أي انتقاء . كان بإمكان ليماس توقع نوع الذكاء الذي كان بيترز يريده ، وبفعل ذلك قد يهمل تفاصيل عابرة يمكن أن تكون ذات أهمية حيوية للمتتبعين . يضاف إلى كل ذلك ما قد ينجم عن الغرور المتضخم الذي يصيب ضحايا الإدمان الكحولي .

قال : " أعتقد اننا سنأخذ الآن بشيء من التفصيل خدمتك في برلين . سيكون ذلك من مايس ١٩٥١ الى آذار ١٩٦١ . إشرب كأساً أخرى . "

راقبه ليماس وهو يأخذ سيجارة من العلبة على المائدة ويشعلها . لاحظ

Amly نهضة العرب

شيئين : أن بيترز كان أعسر ، وأنه وضع مرة أخرى السيجارة في فمه بالمقلوب بحيث أن إسم الشركة كان في الطرف الأقصى الذي احترق أولاً . كانت علامة أحبها ليماس : فقد أشارت الى أن بيترز ، مثله ، كان في حالة شرود .

كان بيترز ذا وجه غريب كالح لا تعبير فيه . لابد وأن اللون قد هجره منذ زمن طويل ـ ربما في سجن ما في أيام الثورة الأولى ـ وقد تشكلت ملامحه الآن وسيبقى بيترز هكذا حتى الممات . وربما يتحول الشعر الرمادي المتصلب الى أبيض إلا أن وجهه لن يتغير . وتساءل ليماس بغموض عما كان عليه إسم بيترز الحقيقي ، وإن كان متزوجاً . كان هناك شيء مألوف جداً فيه أحبه ليماس . كانت تلك هي ألفة القوة والثقة . وإن كذب بيترز ، فسيكون هناك سبب . وستكون الكذبة كذبة محسوبة وضرورية ، بعيدة عن خداع آش المرتبك . آش ، كيفير ، وبيترز ، ذلك كان تدرجاً في النوعية ، في السلطة ، وهو أمر وجده ليماس مقابلاً لهرمية السلطة في الشبكات التجسسية . وقد خمن وجود تدرج آيديولوجي في الأمر أيضاً . آش المرتزق ، ثم كيفير رفيق السفر ، والآن ، بيترز ، الذي تتطابق عنده الغايات والوسائل .

بدأ ليماس بالتحدث عن برلين . ونادراً ما كان بيترز يقاطع ، نادراً ما يطرح سؤالاً أو يعلق ، لكنه عندما كان يفعل ، كان يظهر خبرة وحب استطلاع فني يتفق تماماً مع مزاج ليماس . حتى أن ليماس بدا مستجيباً للمهنية الباردة لمستجوبه ـ كانت شيئاً مشتركاً بينهما . أوضح ليماس أن بناء شبكة رصينة في الجانب الشرقي من برلين قد استغرق وقتاً طويلاً ، وأن المدينة في الأيام الأولى كانت تعج بالعملاء من الدرجة الثانية : إذ فقد العمل الاستخباري هيبته الى حد صار بالإمكان تجنيد رجل في حفل كوكتيل ، وأعطاؤه موجزاً عند العشاء ، وأنهاؤه عند الافطار . وبالنسبة لمحترف ، كان كابوساً : عشرات الوكالات ، نصفها مخترق من الخصم ، آلاف من النهايات السائبة : قيادات كثيرة جداً ، ومصادر قليلة جداً ، وفضاء ضيق جداً للتحرك . انفصلوا انفصالاً حقيقياً عن فيجر في ١٩٥٤ ، لكن ، وبحلول ١٩٥٦ عندما كان كل قسم استخباري يصرخ طالباً استخبارات راقية ، كانوا قد أوقفوا . فقد أفسدهم فيجر وحولهم الى جهاز من الدرجة الثانية لا يسبق الأخبار العادية إلا بدرجة واحدة . كانوا بحاجة الى الشيء الحقيقي ـ وكان عليهم الانتظار ثلاث سنوات أخرى قبل ان يحصلوا عليه .

وفي أحد الأيام ، ذهب دي يونغ في نزهة في الغابات الواقعة على طرف

Amly نهضة العرب

برلين الشرقية . وكانت سيارته تحمل لوحة أرقام عسكرية بريطانية ، أوقفها وأقفلها على طريق من الحصى الى جانب القناة . وبعد النزهة ، ركض أطفاله اليها ، حاملين سلة . وعندما وصلوا السيارة ، توقفوا ، وترددوا ، وأسقطوا السلة وركضوا عائدين . كان باب السيارة قد فتح عنوة ـ فقد كان المقبض مكسوراً والباب مفتوحاً قليلاً . شتم دي يونغ متذكراً أنه كان قد ترك كامرته في تجويف القفاز . ذهب وتفحص السيارة ، وكان المقبض قد كسر ، وخمن دي يونغ أنه كسر بقطعة حديد ، شيء تستطيع حمله في ردن ثوبك . بيد أن الكاميرا كانت موجودة وكذلك معطفه وكذلك بعض الرزم العائدة لزوجته . وعلى مقعد القيادة كانت هناك علبة تبغ وفي العلبة خرطوش نيكلي صغير . أدرك دي يونغ ما كانت تحتويه بالضبط ، كانت لفيفة فلم لكاميرا شديدة الصغر ربما من طراز مينوكس .

عاد دي يونغ بسيارته الى البيت وحمض القلم . كان يحتوي على محاضر الاجتماع الأخير لقيادة الحزب الشيوعي الألماني الشرقي . أس . إي . دي . ويمحض المصادفة ، كان هناك فلم مماثل من حيث المضمون من مصدر آخر ، إذن ، فالصور أصلية .

عند ذاك ، أخذ ليماس القضية على عاتقه . فقد كان بحاجة ماسة الى نجاح . ولم يكن قد حقق أي شيء منذ وصوله برلين ، وكان يتجاوز حد السن المعتاد للعمل الميداني الكامل . وبالضبط ، وبعد أسبوع ، أخذ سيارة دي يونغ الى نفس المكان وذهب في نزهة يتمشى .

كانت بقعة مهجورة تلك التي اختارها دي يونغ لنزهته : شريط قناة ، وقلعتان صغيرتان دمرتهما المدفعية ، وبعض الحقول الرملية العطشى ، وعلى الجانب الشرقي غابة صنوبر متناثرة تقع على بعد حوالي مائتي ياردة عن طريق الحصى الذي يحد القناة . لكن المكان يتميز بفضيلة العزلة ـ شيء كان من الصعب الحصول عليه في برلين ـ وكانت المراقبة مستحيلة . تمشى ليماس في الغابات . لم يقم بأية محاولة لمراقبة السيارة لأنه لم يعرف من أي اتجاه قد يتم فيه الاقتراب . فلو شوهد يراقب السيارة من الغابة فان فرص الحفاظ على ثقة المخبر ستتحطم . ولم يكن بحاجة لأن يقلق .

عندما عاد لم يكن هناك شيء في السيارة ، لذلك رجع الى برلين الغربية ، لائماً نفسه على حماقته . فلم يكن مقرراً أن تعقد رئاسة الحزب اجتماعاً قبل أسبوعين . وبعد ثلاثة أسابيع ، استعار سيارة دي يونغ وأخذ ألف دولار من فئة العشرين في حقيبة نزهة صغيرة . ترك السيارة دون إقفال لمدة ساعتين وعندما عاد كانت هناك علبة تبغ في تجويف القفاز . وكانت حقيبة النقود قد

Amly نهضة العرب

أختفت . كانت الأفلام مملوءة بالمحاضر الموثقة من الدرجة الأولى . وفي الأسابيع الست التالية كرر العملية مرتين وحدث الشيء نفسه .

أدرك ليماس أنه أكتشف منجم ذهب . وأعطى المصدر إسماً سرياً : ميفير وأرسل رسالة متشائمة الى لندن . فقد أدرك ليماس أنه لو فتح أمام لندن نصف ثغرة فأنهم سيتولون توجيه العملية مباشرة ، وهو أمر كان يسعى جاهداً لتفاديه . ربما كان هذا هو النمط الوحيد من العمل الذي كان يمكن أن ينقذه من الإحالة على التقاعد ، وكان النمط نفسه الذي كان من الأهمية بمكان بالنسبة للندن كي ترغب في توليه بنفسها . وحتى لو وضعهم على بعد ذراع ، يبقى هناك خطر قيام الدائرة بطرح نظريات وتقديم مقترحات ، والحث على الحذر والمطالبة بالعمل . وكانوا سيطلبون منه ألا يعطي الدولارات جديدة على أمل تتبعها وسيطلبون إرسال لفائف الأفلام لغرض فحصها ويخططون عمليات متابعة خرقاء ويخبرون الأقسام . نعم ، الأرجح أنهم سيبلغون الأقسام . وذلك كما قال ليماس ، سينسف العمل من أساسه . عمل كالمجنون لثلاثة أسابيع . قام بدراسة الملفات الشخصية لكل عضو في مجلس الرئاسة . وأعد لائحة بكل الموظفين الإداريين الذي يستطيعون الوصول الى المحاضر . ومن قائمة التوزيع على الصفحة الأخيرة من دليل أجهزة الفاكس ، رفع العدد الكلي من المخبرين المحتملين الى واحد وثلاثين بضمنهم الكتبة وموظفو السكرتارية . ونتيجة لمواجهته بالمهمة شبه المستحيلة في تحديد مخبر ما من السجلات الناقصة لواحد وثلاثين مرشحاً ، التجأ ليماس إلى المادة الأصلية والتي ، حسب قوله ، كانت شيئاً يجب أن يكون قد فعله مبكراً . وقد حيره أن أياً من المحاضر المستنسخة التي كان قد تسلمها حتى الآن لم يكن مرقماً ومختوماً بتصنيف سري ، وكانت هناك كلمات مشطوبة بقلم الرصاص أو قلم شمع ملوّن في النسختين الثانية والرابعة وأخيراً توصل الى استنتاج مهم : إن النسخ المصورة لاعلاقة لها بالمحاضر نفسها بل بمسودات المحاضر . مما وضع المصدر في السكرتارية . والسكرتارية نفسها محدودة جداً . فمسودات المحاضر كانت قد صورت بدقة وعناية مما أوحى بأن المصور لديه متسع من الوقت ومكان خاص به .

التجأ ليماس الى فهرس الأفراد . كان هناك رجل يدعى كارل رايماك في السكرتارية ، نائب عريف سابق في الوحدات الطبية . قضى ثلاث سنوات أسير حرب في إنجلترا . وكانت شقيقته تعيش في بوميرينيا عندما اجتاحها الروس ولم يسمع عنها شيء منذ ذلك الحين . كان متزوجاً وكانت لديه بنت اسمها كارلا وقرر ليماس أن يجرب حظه . زودته لندن برقم رايماك كأسير

Amly نهضة العرب

حرب وكان ٢٩٠١٢ وتاريخ إخلاء سبيله في العاشر من كانون أول ١٩٤٥ .

اشترى كتاباً من كتب الخيال العلمي للأطفال صادر في المانيا الشرقية وكتب على الورقة البيضاء فيه بالألمانية وبخط صبي مراهق : **يعود هذا الكتاب لكارلا رايماك المولودة في العاشر من كانون أول ١٩٤٥ ، في بيدفورد ، نورث ديفون . بتوقيع امرأة الفضاء ـ القمر ٢٩٠١٢ ، وتحت هذا أضاف ، على المتقدمين الراغبين في القيام برحلات فضائية تقديم أنفسهم لغرض التوجه الى ك . رايماك شخصياً . وطياً استمارة تقديم . تعيش الجمهورية الشعبية للفضاء الديمقراطي !**

وقام برسم بعض الخطوط على ورقة كتابة ، ورسم أعمدة للاسم ، والعنوان والعمر وكتب في نهاية الصفحة :

ستتم مقابلة كل مرشح بصورة شخصية . أكتب الى العنوان المعروف موضحاً الزمان والمكان الذي ترغب فيه باجراء المقابلة . وسيتم النظر في الطلبات في سبعة أيام . **ك . ر .**

وضع الورقة داخل الكتاب . وقاد ليماس السيارة الى المكان المعتاد ، سيارة دو يونغ نفسها ، وترك الكتاب على مقعد الراكب مع خمسة أوراق نقدية مستعملة من فئة مائة دولار داخل الغلاف .

عندما عاد ليماس ، لم يجد الكتاب ، وكانت هناك علبة تبغ على المقعد بدلاً عنه . كانت العلبة تحتوي على ثلاث لفات . قام ليماس بتحميضها تلك الليلة : في أحد الأفلام ، وكالمعتاد ، محاضر آخر جلسة لمجلس الرئاسة ، الثاني أظهر مسودة استعراض لعلاقة المانيا الشرقية مع منظمة الكوميكون ، والثالث عرض مفصل لدائرة المخابرات الألمانية الشرقية ، عرض كامل مع وظائف الأقسام وتفاصيل عن الشخصيات .

قاطعه بيترز : " لحظة واحدة . هل تقصد القول إن كل هذه المعلومات جاءت من رايماك ؟ "

ـ " ولم لا ؟ أنت تعرف كم يمر تحت نظره . "

قال بيترز ملمحاً ، هامساً لنفسه تقريباً : " من الصعب أن يكون ذلك ممكناً . لابد وأنه كان يحصل على مساعدة . "

ـ " كان لديه من يساعده فعلاً بعد ذلك . سآتي على ذلك . "

ـ " أعرف ما ستخبرني به . لكن ، ألم ينتابك شعور بأنه حصل على مساعدة من " فوق " بالإضافة الى مساعدة من الوكلاء الذين كسبهم فيما

Amly نهضة العرب

بعد ؟ "

ـ " لا . لا ، لم أشعر بذلك ولم يحدث لي ذلك مطلقاً . "

ـ " لو نظرنا الى الموضوع الآن ، هل يبدو محتملاً ؟ "

ـ " ليس بشكل واضح . "

ـ " عندما أرسلت كل هذه المادة الى الميدان ، ألم يشيروا إلى أن المعلومات كانت شاملة ومهمة بشكل لا يمكن أن يتاح لرجل في موقع ريماك ؟ "

ـ " لا . "

ـ " هل حدث وأن سألوا عن مصدر حصول رايماك على كاميرته ، ومن علّمه أستنساخ الوثائق ؟ "

تردد ليماس ثم قال : " لا . . . أنا متأكد من أنهم لم يسألوا على الإطلاق . "

علّق بيترز بجفاف : " رائع ، أنا آسف . أرجوك استمر . لم أقصد استباقك . "

واصل ليماس قائلاً إنه بعد أسبوع ، توجه بالسيارة الى القناة ، وفي تلك المرة كان يشعر بالتوتر . ولحظة استدارته الى طريق الحصى ، شاهد ثلاث دراجات ملقاة على العشب وثلاثة رجال يصطادون السمك على بعد مائتي ياردة في القناة ـ نزل من السيارة كالمعتاد وبدأ يتمشى بأتجاه خط الأشجار على الجانب الآخر من الحقل . كان قد قطع حوالي عشرين ياردة عندما سمع صيحة . نظر من حوله وشاهد أحد الرجال يومىء له . أستدار الآخران وكانا ينظران اليه كذلك . كان ليماس يرتدي معطفاً مطرياً قديماً . وكان يضع يديه في الجيوب وكان قد فات الأوان لأخراجهما . أدرك أن الرجال على الجانبين كانوا يغطون الرجل الذي في الوسط وأنه لو أخرج يديه من جيوبه ربما سيطلقون النار عليه إذ سيعتقدون أنه كان يحمل مسدساً في جيبه . توقف ليماس على مبعدة عشر ياردات من الرجل الذي في الوسط .

سأل ليماس : " تريد شيئاً ؟ "

ـ " هل أنت ليماس ؟ " كان رجلاً قصيراً ممتلئاً ، وهادئاً جداً . وكان يتحدث بالإنجليزية .

ـ " نعم . "

ـ " ما هو رقم هويتك البريطانية ؟ "

ـ " بي . آر . تي / ل ٥٨٠٠٣ / ١ . "

ـ " أين قضيت ليلة الاحتفال بالنصر على اليابان ؟ "

ـ " في ليدن بهولندا في ورشة والدي ، مع بعض الأصدقاء الهولنديين . "

Amly نهضة العرب

ـ " فلنذهب في نزهة مشياً يا سيد ليماس . لن تحتاج الى معطفك . إخلعه واتركه على الأرض حيث تقف . سيعتني به أصدقائي . "
تردد ليماس ، هز كتفيه وخلع معطفه . ثم بخفة سارا معاً باتجاه الغابة .

قال ليماس بتعب : " أنت تعلم كما أعلم مَنْ كان ذلك الرجل ، الرجل الثالث في وزارة الداخلية ، وسكرتير هيئة رئاسة الحزب الاشتراكي الموحد ، ورئيس لجنة التنسيق لحماية الشعب . أعتقد أنه بتلك الطريقة عرف عن دي يونغ وعني . فقد شاهد ملفاتنا في قسم التجسس المضاد بدائرة الاستخبارات . وكان لديه أكثر من مصدر للمعلومات : هيئة الرئاسة ، التقارير السياسية والاقتصادية المحلية المباشرة ، وملفات دائرة الأمن الألمانية الشرقية التي كان مركزه يتيح له الاطلاع عليها . "
أصر بيترز : " لكنه إطلاع محدود فقط . فهم لن يمنحوا غربياً حرية التصرف بكل ملفاتهم . "
هز ليماس كتفيه ، وقال : " لكنهم سمحوا بهذا . "
ـ " وماذا فعل بنقوده ؟ "
ـ " بعد ذلك الظهر لم أعطه أية نقود . فقد تولى الميدان الأمر مباشرة . وكانت تدفع الى مصرف ألماني غربي . حتى أنه أعاد لي ما كنت قد أعطيته وقامت لندن بادخاره له . "
ـ " وبم أبلغت لندن ؟ "
ـ " بكل شيء بعد ذلك . كان لزاماً عليّ . ثم قام الميدان بابلاغ الأقسام . وبعد ذلك ، " ، أضاف ليماس بنبرة حاقدة ، "صارت القضية قضية وقت قبل أن ينتهي . " ومع ضغط الأقسام عليها ، أصيبت لندن بالجشع . وبدأت بالضغط علينا من أجل المزيد ، وأرادت أن تدفع له المزيد من المال . وأخيراً ، كان علينا أن نقترح على " كارل " تجنيد مصادر أخرى ، وأستخدمناهم لتشكيل شبكة . كان القرار في غاية الغباء ، فقد زاد من الضغط على كارل وعرضة للخطر وأضعفت ثقته بنا ، كانت بداية النهاية . "
ـ " وكم من المعلومات حصلتم عليها منه ؟ "
تردد ليماس . " كم ؟ يا إلهي . لست أدري . استمر العمل لوقت طويل جداً . أعتقد أنه أنهى قبل زمن طويل من القاء القبض عليه . فقد هبط مستوى المعلومات في الأشهر الأخيرة وأعتقد أنهم بدأوا يشكون به عندها أبعدوه عن المادة الدسمة . "

Amly نهضة العرب

أصر بيترز : " إجمالاً ، ما الذي أعطاك إياه ؟ "

وجزءاً فجزءاً ، راح ليماس يسرد المدى الكامل لكل أعمال كارل رايماك . ولاحظ بيترز برضا أن ذاكرته كانت دقيقة بدرجة مدهشة إذا ما أخذنا في الاعتبار الكمية التي شربها من الخمر . فقد كان يستطيع ذكر تواريخ وأسماء ، وكان يتذكر رد فعل لندن ، وطبيعة الواقعة حيث وجدت . وكان يتذكر مبالغ مالية طلبت ودفعت ، وتواريخ تجنيد عملاء آخرين في الشبكة .

وأخيراً ، قال بيترز : " أنا آسف . لكنني لا أصدق أن رجلاً واحداً مهما كان حسن موقعه ، ومهما كان حذره وجديته ، استطاع أن يكسب مثل هذا المدى من المعلومات المفصلة ، وحتى لو حصل ذلك ، فما كان بامكانه أبداً تصويرها . "

أصر ليماس : " كان بإمكانه ، " ، غاضباً فجأة . " لقد أجاد وهذا كل ما في الموضوع " .

ـ " ولم يسألك الميدان أبداً الدخول معه في التفاصيل كي تعرف بالضبط كيف ومتى شاهد كل هذه الأشياء ؟ "

أجاب ليماس بسرعة : " لا . كان رايماك حساساً بشأن ذلك . وكانت لندن سعيدة بإغفال ذلك . "

قال بيارز متأملاً : " حسناً ، حسناً . "

بعد لحظة ، قال بيترز : " سمعت عن تلك المرأة ، بالمصادفة ؟ "

سأل ليماس بحدة : " أية أمرأة ؟ "

ـ " عشيقة كارل رايماك ، المرأة التي جاءت الى برلين الغربية ليلة مقتل رايماك . "

ـ " نعم ؟ "

ـ " وجدت ميتة قبل أسبوع . مقتولة . أطلقت عليها النار من سيارة لحظة مغادرتها شقتها . "

قال ليماس آلياً : " كانت شقتي . "

قال بيترز موضحاً : " ربما ، كانت تعرف أكثر منك عن شبكة رايماك . "

سأل ليماس بالحاح : " ماذا تعني ؟ "

هز بيترز كتفيه وقال ملاحظاً : " إنه لأمر غريب جداً . أتساءل مَنْ الذي قتلها ؟ "

بعد أن استهلكوا قضية كارل رايماك ، أستمر ليماس في الحديث عن عملاء أقل أهمية ، ثم عن عمل مكتبه في برلين ، واتصالات المكتب وموظفيه ، وفروعه السرية ـ الشقق ، النقل ، ومعدات التصوير والتسجيل . تحدثا

Amly نهضة العرب

طويلاً حتى الليل وخلال اليوم التالي ، وعندما أوى ليباس أخيراً إلى الفراش مرهقاً في الليلة التالية ، أدرك أنه أولى بكل ما كان يعرفه عن مخابرات الحلفاء في برلين وأنه قد شرب قنينتي ويسكي في يومين .

شيء واحد حيره : إصرار بيترز على وجود مَنْ كان يساعد كارل رايباك ـ على حتمية وجود متعاون من مستوى عالٍ . وتذكر أن المشرف كان قد طرح عليه السؤال نفسه . كان المشرف قد سأل عن وسائل رايباك . كيف تمكن الاثنان من التأكد من أن كارل لم يدبرها لوحده ؟ بطبيعة الحال ، كان هناك من يساعده ، من أمثال الحراس قرب القناة يوم التقاه ليباس . كان كارل قد حدثه عنهم وقال له إنهم عديمو الشأن . الا أن بيترز - وبيترز رغم كل شيء ، يعرف بالضبط حجم المعلومات التي امتلكها كارل ـ قد رفض التصديق بأن كارل نجح لوحده . ويبدو أن بيترز والمشرف متفقان على هذه النقطة .

ربما كان على حق . ربما كان هناك شخص آخر . ربما كان هذا هو الاهتمام الخاص الذي كان المشرف حريصاً على حمايته من مندت . وكان ذلك يعني أن كارل رايباك قد تعاون مع هذا الرجل الخاص وقدم ما حصل عليه الاثنان معاً . ربما كان ذلك هو ما تحدث به المشرف لكارل ، في ذلك المساء عندما التقيا وحدهما في شقة ليباس في برلين .

على أية حال ، إن غداً لناظره قريب . غداً سيلقي بأوراقه . وتساءل مَنْ قتل إلفيرا ولماذا قتلوها . بالطبع ، كانت هناك نقطة ـ تفسير ممكن . إلفيرا ، التي تعرف شخصية المتعاون الخاص مع رايباك ، قد قتلت على يد ذلك المتعاون . . . كلا ، ذلك بعيد الاحتمال جداً .

ليس بالإمكان تجاهل صعوبة العبور من الشرق الى الغرب : فبعد كل شيء ، كانت إلفيرا قد قتلت في برلين الغربية . وتعجب لماذا لم يخبره المشرف بشيء عن مقتل إلفيرا . ألكي يكون رد فعله مناسباً عندما أبلغه بيترز ؟ كان التأمل في الموضوع غير مجدٍ . فقد كانت لدى المشرف أسبابه . وكانت غالباً معقدة جداً بحيث تأخذ منك أسبوعاً لأستنتاجها .

وقبل أن يخلد الى النوم قال متمتماً : " كان كارل أحمق لعينا . فقد وشت تلك المرأة به . أنا متأكد من أنها فعلت هذا . " إلفيرا ميتة الأن ، وهي تستحق ذلك . وتذكر لِز . "

Amly نهضة العرب

٩ * اليوم الثاني

وصل بيترز في الثامنة من صباح اليوم التالي ، ودون مقدمات ، جلسا الى المائدة وشرعا بالعمل .

ـ " إذن ، عدت الى لندن . ماذا فعلت هناك ؟ "

ـ " وضعوني على الرف . عرفت أني أنتهيت عندما قابلني ذلك الغبي من قسم الأفراد في المطار . كان عليّ الذهاب مباشرة الى المشرف وتقديم تقرير عن كارل . مات . ماذا كان يمكن القول غير ذلك ؟ "

ـ " ماذا فعلوا معك ؟ "

ـ " في البداية ، قالوا أستطيع التسكع في لندن والانتظار الى أن أستحق تقاعداً مناسباً . كانوا في غاية التهذيب ، بشأن التقاعد ، بحيث أثاروا غضبي . وقلت لهم إذا كانوا حريصين هكذا بشأن صرف النقود لي فلماذا لم يفعلوا الشيء الواضح ويحسبوا كل خدمتي بدلاً من الثغاء عن خدمة متقطعة ؟ غضبوا عندما قلت لهم ذلك . وضعوني في قسم المصارف مع حشد من النساء . لا أستطيع تذكر الكثير عن ذلك الجزء ـ وبدأت بالإسراف في الشرب . ودخلت في مرحلة سيئة . "

أشعل سيجارة . وأومأ بيترز برأسه . " ذلك هو سبب إبعادهم لي حقاً . ولم يحبوا أسرافي في الشراب . "

سأله بيترز : " قل لي ، ما الذي تتذكره عن قسم المصارف ؟ "

ـ " كانت مهمة كئيبة . لم أخلق أبداً للعمل المكتبي ، كنت أعرف ذلك . وهذا هو سبب تعلقي ببرلين . كنت أعرف عندما أستدعوني بأنني سأوضع على الرف ، لكن ، يا إلهي . "

ـ " ماذا فعلت ؟ "

هز ليماس كتفيه لامبالياً .

ـ " جلست في نفس الغرفة مثل المرأتين اللتين كانتا معي : ثيرزباي

Amly نهضة العرب

ولاريت . كنت أدعوهما ثيرزدي وفرايدي/ الخميس والجمعة " ، وكشّر بشيء من الغباء . وبدا بيترز ضائعاً .

ـ " كنا نرفع أوراقاً فحسب . كتاب من ألمانية يقول : " تحويل دفع مبلغ سبعمائة دولار الى فلان بن فلان اعتباراً من تاريخ كذا ـ يرجى إجراء اللازم . " ذلك هو جوهر الموضوع . وتقوم " ثيرزدي وفرايدي " بأخذ الكتاب ووضعه في ملف ، وختمه ، وأقوم أنا بتوقيع صك او أطلب من المصرف إجراء تحويل . "

ـ " أي مصرف ؟ "

ـ " بلات أند رودني ، مصرف صغير مبهرج في المدينة . هناك رأي في الميدان يقول إن الايتونيين متكتمون . "

ـ " إذن ، كنت تعرف في الحقيقة أسماء الوكلاء في كل أنحاء العالم ؟ "

ـ " ليس بالضرورة . ذلك هو الشيء البارع . أوقع صكاً أو طلباً من المصرف ، لكن ، كنا نترك فراغاً لاسم الشخص المدفوع له . ثم يوقع كتاب الصرف أو أية أوراق متشابهة وبعدها يعاد الملف الى قسم البريد الخاص . "

ـ " ومن هؤلاء ؟ "

ـ " إنهم من يمسك عموماً بخصوصيات الوكلاء . يدخلون الأسماء ويرسلون الطلب . لا بد لي من القول إن العملية في غاية الذكاء . "

بدا بيترز خائب الأمل . .

ـ " تعني أنك لم تمتلك حيلة لمعرفة أسماء الأشخاص المدفوع لهم ؟ "

ـ " لا ، ليس دائماً . "

ـ " لكن أحياناً ؟ "

" اهتدينا الى السر تقريباً بين فترة وأخرى . فكل المعاملات بين قسم المصارف والمالية والبريد الخاص أدت الى معرفة الرؤوس بالطبع . عملية معقدة جداً . ثم كانت أيدينا تقع أحياناً على مادة خاصة تضيء حياة شخص ما قليلاً . "

نهض ليماس . قال : " وضعت قائمة ، بكل المدفوعات التي أتذكرها . وهي موجودة في غرفتي . سأجلبها . "

خرج من الغرفة بالمشية المتثاقلة التي آثرها منذ وصوله الى هولندا . وعندما عاد كان يمسك بيده ورقتين مخططتين مأخوذتين من دفتر ملاحظات رخيص .

قال : " كتبت هذه الليلة الماضية . وأعتقدت أن ذلك سيوفر وقتاً . "

أخذ بيترز الملاحظات وقرأها بدقة وترو . وبدا متأثراً . وقال " جيد .

Amly نهضة العرب

جيد جداً . "

ـ " وأتذكر جيداً شيئاً يدعى رولنغ ستون . حصلت على سفرتين بسببه . واحدة الى كوبنهاغن وأخرى الى هلسنكي . إيداع أموال في مصارف فقط . "

ـ " كم ؟ "

ـ " عشرة الآف دولار في كوبنهاغن ، وأربعون ألف مارك ألماني في هلسنكي . "

وضع بيترز قلمه .

وسأل : " لمن ؟ "

ـ " الله أعلم . كنا ننفذ عملية رولنغ ستون على أساس حسابات إيداع . أعطتني دائرة الاستخبارات جواز سفر بريطانياً مزوراً . قصدت المصرف الملكي الاسكندنافي في كوبنهاغن والمصرف الوطني الفنلندي في هلسنكي ، أودعت النقود وسحبت دفتر حساب على حساب مشترك ـ لي باسمي المستعار ولشخص آخر ـ الوكيل باسمه المعروف على ما أظن . أعطيت المصرفين صورة من توقيع الشريك ، وكنت حصلت عليه من الدائرة الرئيسية . وبعد ذلك ، أعطي دفتر الحساب وجواز سفر مزور للوكيل قدمها للمصرف عندما سحب النقود . كل ما كنت أعرف هو الإسم المستعار . " سمع نفسه يتحدث وبدا الأمر كله مثيراً للضحك الى حد عدم التصديق .

ـ " هل كان هذا الاجراء شائعاً ؟ "

ـ " لا . كان دفعاً خاصاً . كانت له قائمة اشتراك . "

ـ " وما تلك ؟ "

ـ " كان للقائمة إسم شفرة لا يعرفه الاّ القليل من الناس . "

ـ " وماذا كان الإسم بالشفرة ؟ "

" أخبرتك ـ رولنغ ستون . شملت العملية مدفوعات قدرها عشرة الآف دولار بعملات مختلفة وبدفعات غير منظمة وفي عواصم مختلفة . "

ـ " دائماً في العواصم ؟ "

ـ " قدر معرفتي . أتذكر من قراءة في الملف وجود مدفوعات أخرى في عملية رولنغ ستون قبل أن أنقل الى القسم ، لكن ، قسم المصارف يكلف المقيم المحلي بذلك . "

ـ " هذه المدفوعات الأخرى التي جرت قبل أن تأتي الى القسم : أين كانت تجري ؟ "

ـ " واحدة في أوسلو . ولا أتذكر أين كانت الأخرى ؟ "

Amly نهضة العرب

ـ " هل كان الإسم المستعار للوكيل نفسه دائماً ؟ "

ـ " لا . كان ذلك إجراءً أمنياً إضافياً . سمعت فيما بعد أننا سرقنا التكنيك باكمله من الروس . كانت أكثر طرق الدفع التي شاهدتها في حياتي تطوراً . وبنفس الطريقة أستخدمت إسماً مستعاراً مختلفاً وبالطبع جواز سفر مختلفاً لكل رحلة . "

كان ذلك مريحاً له ويساعده في سد الفجوات .

ـ " هذه الجوازات المزورة التي كانت تعطى للعميل كي يتمكن من سحب النقود : هل كنت تعرف شيئاً عنها ـ كيف كانت تعد وترسل ؟ "

ـ " لا ، أوه ، ما عدا أنه عليهم وضع سمات دخول فيها للبلد الذي أودعت فيه النقود . وختم دخول . "

ـ " ختم دخول ؟ "

ـ " نعم . لقد افترضت بأن الجوازات لم تستخدم مطلقاً عند الحدود . بل كانت تقدم في المصرف لأغراض تحديد الهوية فقط . ولابد أن العميل قد سافر بجوازه الخاص ودخل بطريقة قانونية تماماً البلد الذي يقع فيه المصرف ، ثم استخدم الجواز المزور في المصرف . كان ذلك هو تخميني . "

ـ " هل تعرف سبباً لتكليف المقيمين بدفع الأجور في مرحلة مبكرة ثم إرسال شخص خاص من لندن لصرف دفعات لاحقة من الأجور ؟ "

ـ " أعرف السبب . سألت المرأتين في قسم المصارف ، ثيرزدي وفرايدي ، كان المشرف تواقاً لأن . . . "

ـ " المشرف ؟ هل تقصد القول بأن المشرف نفسه كان مسؤولاً عن القضية ؟ "

ـ " نعم . كان مسؤولاً عنها . كان يخشى أن يكشف المقيم في المصرف . لذلك استخدم ساعي بريد : هو أنا . "

ـ " متى قمت برحلاتك ؟ "

ـ " كوبنهاغن في الخامس عشر من حزيران . عدت بنفس الليلة . هلسنكي في نهاية أيلول . بقيت ليلتين هناك ، عدت حوالي الثامن والعشرين . وتمتعت قليلاً في هلسنكي . " كثر ، لكن بيترز لم يلحظ شيئاً .

ـ " وبقية المدفوعات ـ أين كانت تجري ؟ "

ـ " آسف . لا أتذكر . "

ـ " لكن إحداها كانت في أوسلو بالتحديد ؟ "

ـ " نعم ، في أوسلو . "

Amly نهضة العرب

ـ " وكم هي الفترة الزمنية الفاصلة بين الدفعتين الأوليين ، أقصد الدفعات التي قدمها المقيمون ؟ "

ـ " لا أدري ، ليس وقتاً طويلاً ، على ما أعتقد ، ربما شهر ، أو أكثر من شهر بقليل . "

ـ " هل كان انطباعك بأن الوكيل كان يعمل لبعض الوقت قبل تقديم المبلغ الأول ؟ هل يظهر الملف ذلك ؟ "

ـ " ليس لدي فكرة . فالملف كان ببساطة يغطي مدفوعات حقيقية . الدفعة الاولى في بداية ١٩٥٩ . ليس هناك تاريخ آخر عليه . ذلك هو المبدأ السائد حيث يكون لديك اشتراك محدود . ملفات مختلفة تعالج أجزاء مختلفة من قضية واحدة . وأن شخصاً واحداً فقط يمتلك الملف الرئيسي هو القادر على وضع الأجزاء معاً . "

كان بيترز يكتب طوال الوقت هذه المرة . وافترض ليماس وجود جهاز تسجيل مخبأ في مكان ما في الغرفة إلا أن الاستنساخ اللاحق سيستغرق وقتاً . إن ما كتبه بيترز الآن سيوفر الخلفية لبرقية هذا المساء الى موسكو ، في حين ستقضي الفتيات في السفارة السوفيتية في لاهاي الليل بأكمله يبرقن النسخة الحرفية وفق جداول مقسمة على مدار الساعة .

قال بيترز : " قل لي ، هذه مبالغ طائلة من المال . وأن ترتيبات دفعها كانت معقدة ومكلفة جداً . ما الذي فهمته أنت من العملية ؟ "

هز ليماس كتفيه وقال : " ما الذي فهمته ؟ أعتقدت أن المشرف لابد وأن كان لديه مصدر جيد ، لكنني لم أر المادة لذلك فأنا لا أدري . لم أحب الطريقة التي جرت بها ـ فقد كانت تدار من جهات عليا ، شديدة التعقيد والذكاء . لماذا لم يقابلوه فحسب ويعطوه النقود نقداً ؟ هل سمحوا له فعلاً بعبور الحدود بجواز سفره مع جواز مزور في جيبه ؟ أشك في ذلك . " لقد حان الوقت لتعتيم الصورة وليدع بيترز يطارد أرنباً وحشياً .

ـ " ماذا تقصد ؟ "

ـ " أقصد أن كل ما أعرف هو أن النقود لم تسحب من المصرف على الإطلاق . وعلى افتراض أنه كان وكيلاً مزموق المكانة وراء الستار ـ فان النقود ستكون مودعة لحسابه عندما يستطيع الوصول اليها . ذلك ما كنت قد حسبته على أية حال . ولم أفكر في الأمر ، ولماذا عساي أفعل ؟ فعملنا يقتضي أن لا نعرف إلا أجزاء من التركيبة الكاملة ، أنت تعرف ذلك . أما إذا كنت فضولياً ، فليكن الله في عونك . "

ـ " اذا لم تكن النقود قد سحبت ، كما تفترض ، فلماذا كل هذا الإشكال

Amly نهضة العرب

بخصوص جوازات السفر ؟ "

ـ " عندما كنت في برلين ، وضعنا ترتيباً لـ كارل رايباك في حال حاجته الى الهرب وعدم القدرة على اللحاق بنا . تركنا له جواز سفر المانياً غربياً مزوراً في مكان ما من دوسلدورف . وكان بامكانه الحصول عليه في أي وقت باتباع إجراء مرتب مسبقاً . كان جوازاً دائم الجاهزية . فقد كان قسم السفر الخاص يجدد الجواز وسمات الدخول كلما نفدت تواريخها . ربما كان المشرف قد اتبع نفس الأسلوب مع هذا الرجل . لست أدري ، مجرد تخمين . "

ـ " كيف تعرف على وجه التأكيد أمر إصدار الجوازات ؟ "

ـ " كانت هناك محاضر في الملف بين قسم المصارف والسفر الخاص . وأن قسم السفر الخاص هو القسم الذي يرتب أوراق شخصية مزورة وسمات دخول . "

ـ " فهمت ، " فكر بيترز لحظة ثم سأل : " أية أسماء أستخدمت في كوبنهاغن وهلسنكي ؟ "

ـ " روبرت لانغ ، مهندس كهرباء من داربي . كان ذلك في كوبنهاغن . "

سأل بيترز : " متى بالضبط كنت في كوبنهاغن ؟ "

ـ " أخبرتك ، الخامس عشر من حزيران . وصلت هناك صباحاً حوالي الحادية عشرة والنصف . "

ـ " وأي مصرف أستخدمت ؟ "

قال ليماس غاضباً فجأة : " أوه ، أرجوك يا بيترز . المصرف الاسكندنافي الملكي . لقد سجلت ذلك . "

رد الآخر بهدوء : " أردت التأكد فقط ، " ، واستمر بالكتابة . " وبالنسبة لهلسنكي ، أي إسم ؟ "

ـ " ستيفن بينيت ، مهندس بحري من بلايموث . فقد كنت هناك ، " وأضاف ساخراً ، " في نهاية أيلول . "

ـ " زرت المصرف يوم وصولك ؟ "

ـ " نعم . كان ذلك في الرابع والعشرين أو الخامس والعشرين ، لا أستطيع الجزم ، كما أخبرتك . "

ـ " هل أخذت النقود معك من إنجلترا ؟ "

ـ " بالطبع لا . نقلناها فقط الى حساب المقيم في كل حالة . وكان المقيم يسحبها ويقابلني في المطار واضعاً النقود في حقيبة وآخذها أنا الى المصرف . "

ـ " مَن هو المقيم في كوبنهاغن ؟ "

Amly نهضة العرب

ـ " بيترز جنس ، بائع كتب في مكتبة الجامعة . "
ـ " وما هي الأسماء التي كان من المقرر ان يستخدمها العميل ؟ "
ـ " هورست كارلزدورف في كوبنهاغن ـ أظن أنه ذلك ، نعم كان ذلك ، أتذكر . كارلزدورف . واصلت الرغبة في ترديد إسم كارلزدورف . "
ـ " الأوصاف ؟ "
ـ " مدير ، من لكلاجنفورت في النمسا . "
ـ "والآخر ؟ إسم هلسنكي ؟ "
ـ " فيختمان ، أدولف فيختمان من سنت جالن ، سويسرا ، كان يحمل لقباً ـ نعم ، ذلك صحيح ، الدكتور فيختمان ، متخصص أرشيف . "
ـ " فهمت . وكلاهما ناطق بالألمانية . "
ـ " نعم ، لاحظت ذلك . لكن ، يمكن ألا يكون المانياً : "
ـ " ولم لا ؟ "
ـ " كنت رئيس شبكة برلين ، أليس كذلك ؟ وكنت مطلعاً على كل شيء هناك . إن الارتباط بعميل عالي المستوى من المانيا الشرقية يدار من برلين مباشرة . وكنت سأعلم . "
نهض ليماس ، واتجه الى الخوان وصبّ لنفسه شيئاً من الويسكي ولم يكترث بشأن بيترز .
ـ " قلت إنه كانت هناك محاذير خاصة وإجراءات خاصة في هذه القضية . ربما لم يعتقدوا بضرورة أن تكون على علم . "
رد ليماس بايجاز : " لا تكن ساذجاً . بالطبع كنت سأعرف . " تلك كانت النقطة التي كان يصر عليها أياً كانت الظروف ، فقد جعلتهم يشعرون بأنهم يعلمون بصورة أفضل ، وأعطى مصداقية لبقية أقواله . كان المشرف قد قال ؛ " سيرغبون في الاستنتاج رغماً عنك ، يجب أن نعطيهم المادة ونبقى نشكك باستنتاجاتهم . اعتمد على ذكائهم وغرورهم ، على شكهم الواحد بالآخر ، هذا ما يجب أن نفعله . "
أومأ بيترز برأسه وكأنه يؤكد حقيقة محزنة وقال موحياً مرة أخرى : " ليماس ، أنت رجل معتد بنفسه جداً . "
وغادر بيترز بعد ذلك بسرعة وتمنى لليماس يوماً طيباً ، ونزل الى الشارع على امتداد ساحل البحر . وكان وقت غداء .

Amly نهضة العرب

١٠ * اليوم الثالث

لم يظهر بيترز بعد ظهر ذلك اليوم ، ولا في الصباح التالي . وبقي ليباس في البيت ينتظر بانزعاج متنام رسالة ما ، لكن أحداً لم يأت . سأل مديرة المنزل ، لكنها ابتسمت فقط وهزت كتفيها الثقيلين . وعند حوالي الساعة الحادية عشرة في الصباح التالي ، قرر أن يخرج في نزهة على ساحل البحر ، وأشترى سجائر وراح يحدق ببلاهة في البحر .

كانت هناك فتاة تقف على الشاطىء ترمي الخبز لنوارس البحر . وكان ظهرها اليه . كانت رياح البحر تداعب شعرها الأسود الطويل ، وتسحب معطفها راسمة شكلاً مقوساً من جسدها ، مثل قوس مسحوب نحو البحر . أدرك عندها ما هو الشيء الذي منحته إياه لِز ، الشيء الذي يجب أن يعود من أجله ويجده إن حدث وعاد الى إنجلترا : كان ذلك هو الاهتمام بأشياء صغيرة ـ الإيمان بحياة اعتيادية ، تلك البساطة التي تدفع المرء الى تجزئة كسرة خبز وحملها في حقيبة ورقية ، والسير الى الشاطيء ورميها للنوارس . كانت تلك المحبة للأشياء الصغيرة التي لم يسمح له أبداً بامتلاكها . سواء كانت خبزاً للنوارس أم حباً ، مهما كان ذلك الشيء ، فأنه سيعود ويجده . سيدع لِز تعثر له عليه . أسبوع ، ربما أسبوعان ، وسيعود الى الوطن . كان المشرف قد قال إن بإمكانه الاحتفاظ بما دفعوا له وذاك سيكون كافياً . فمع خمسة عشر الف جنيه ومكرمة وتقاعد من الميدان ، فإن رجلاً ـ كما أعتاد المشرف على القول ـ يستطيع الاحتماء من البرد .

غير مساره وعاد الى المنزل الريفي عند الثانية عشرة إلاّ ربعاً . أدخلته المرأة دون كلمة ، لكن ، عندما ذهب الى الغرفة الخلفية سمعها ترفع السماعة وتزول رقماً هاتفياً . تحدثت لثوانٍ فقط ، وفي الثانية عشرة والنصف جلبت غداءه ، وبعض الصحف الانجليزية التي قرأها باستمتاع حتى الثالثة ، وقد

Amly نهضة العرب

أسعده ذلك . وقد قرأ لياس ، الذي لم يقرأ شيئاً في الأحوال الطبيعية ، الصحف بتمهل وتركيز . وتذكر تفاصيل مثل أسماء وعناوين أناس كانوا موضوع فقرات صحفية صغيرة . قام بذلك دون قصد واستوعبه كلياً .

في الساعة الثالثة ، وصل بيترز ، وفي اللحظة التي شاهده فيها لياس ، أدرك أن هناك شيئاً . لم يجلسا الى المائدة ولم يخلع بيترز معطفه المطري . قال : " لدي أخبار سيئة لك . إنهم يبحثون عنك في إنجلترا . سمعت هذا في الصباح . إنهم يراقبون المرافىء . "

أجاب لياس دون انفعال : " بأية تهمة ؟ "

ـ " ظاهرياً بتهمة عدم إبلاغ مركز شرطة خلال الفترة القانونية بعد إطلاق سراحك من السجن . "

ـ " والتهمة الحقيقية ؟ "

ـ " تدور إشاعة أنك مطلوب بتهمة ارتكاب جريمة وفق قانون الأسرار الرسمية . صورتك في كل صحف لندن المسائية . العناوين غامضة جداً . "

كان لياس يقف جامداً .

فعلها المشرف . لقد افتعل المشرف الضجة . ليس هناك تفسير آخر . فلو أن آش أو كيفير قد أغريا ، أو لو تحدثا ـ حتى في هذه الحالة ، تبقى المسؤولية عن الضجة في عنق المشرف . كان قد قال : " خلال أسبوعين ، أتوقع أنهم سيأخذونك الى مكان ما لغرض التحقيق ـ وقد يكون في الخارج . رغم ذلك ، فإن أسبوعين يجب أن يكفياك في إكمال المهمة ، وبعد ذلك ، تدير العملية نفسها . وسيكون عليك الاختفاء هنا الى أن تهدأ الضجة ذاتياً . ولا أظنك ستتمانع في ذلك ، أنا متأكد . لقد وافقت على إبقائك عاملاً الى أن يصفى مندت ، بدا ذلك أعدل الطرق . "

والآن هذه . لم يكن هذا جزءاً من الصفقة . كان هذا أمراً مختلفاً . ما الذي كان يفترض أن يفعله بحق الجحيم ؟ الانسحاب الآن ، رفض الاستمرار مع بيترز ، سوف يدمر العملية بذلك . كان من الممكن جداً أن يكون بيترز كاذباً ، وأن ذلك هو الاختبار ـ أكثر الأسباب أهمية بأن عليه أن يوافق على الرحيل . لكن ، إذا ما رحل ، إذا ما وافق على الرحيل شرقاً ، الى بولندا ، أو تشيكوسلوفاكيا أو الله أعلم أين ، فليس هناك سبب معقول يدعوهم لتركه يفلت ـ لم يكن هناك سبب معقول (طالما أنه مطلوب في الغرب) ، فلماذا يرغب في العودة .

كان متأكداً من أن المشرف قد فعلها . كانت الشروط سخية جداً ، كان يعرف ذلك . لم يبذروا الأموال بهذه الطريقة لسواد عينيك ـ إلا اذا فكروا

Amly نهضة العرب

بأنهم سيفقدونك ـ أموال كانت بقشيشاً عن الإزعاجات والمخاطر التي لم يشأ المشرف أن يشير إليها صراحة . إن أموالاً كتلك كانت تحذيراً . تحذيراً لم يتنبه ليماس إليه .

سأل بهدوء : " والآن ، يا للشيطان ، " وأضاف : " كيف كان بامكانهم التوصل الى ذلك ؟ " بدت فكرة وكأنها تجتاز ذهنه وقال ، " كان بإمكان صديقك آش أن يخبرهم ، بالطبع ، أو كيفير . "

أجاب بيترز : " ممكن ، أنت تعلم ، كما أعلم ، أن أشياء كهذه ممكنة دائماً ـ ليس هناك ضمان في وظيفتنا . الحقيقة ، " أضاف بشيء من نفاد الصبر ، " هي أن كل بلد في أوربا الغربية سيحث عنك . "

ربما لم يسمع ليماس ما كان بيترز يقول ، فقال :

ـ " لقد أصطدتموني الآن ، أليس كذلك يا بيترز ؟ "

ـ " لا بد وأن جماعتك يمتعون أنفسهم الآن حتى النخاع . أم هل هم الذين أعطوا الإشارة بأنفسهم ؟ "

قال بيترز بمرارة : " أنت تبالغ في تقييم أهميتك . "

ـ " إذن ، قل لي لماذا تلاحقونني ؟ فقد خرجت في نزهة هذا الصباح . وكان يسير خلفي على امتداد ساحل البحر رجلان قصيران يرتديان ملابس بنية ، وتفصلهما عن بعضهما عشرون ياردة . وعندما عدت ، إتصلت بك مديرة المنزل . "

اقترح بيترز : " دعنا نلتزم بما نعرف " . وأضاف : " الطريقة التي توصلت بها سلطاتكم إليك لا تهمنا فعلياً في هذه اللحظة . المهم أنهم توصلوا . "

ـ " هل جلبت معك صحف لندن المسائية ؟ "

ـ " لا . بالطبع . فهي غير متوفرة هنا . تلقينا برقية من لندن . "

ـ " تلك كذبة . فأنت تعرف تماماً أن جهازكم مسموح له بالاتصال بالمركز فقط . "

رد بيترز بغضب : " في هذه الحالة فإن اتصالاً مباشراً بين محطتين نائيتين يكون مسموحاً . "

قال ليماس بابتسامة ساخره : " حسناً ، حسناً " .

لابد أنك شخصية مرموقة جداً أو . . . " بدا أن فكرة خطرت في باله ـ " ألا يمكن أن يكون المركز متورطاً في هذا الأمر ؟ "

أهمل بيترز السؤال .

ـ " أنت تعرف البديل . دعنا نعتن بك ، دعنا نرتب لك خروجاً آمناً ،

Amly نهضة العرب

وإلا عليك أن تتدبر الأمر بنفسك ـ مع تأكدنا بوقوعك في أيديهم في نهاية المطاف . فليس لديك أوراق مزورة ولا نقود ، وجوازك البريطاني ينتهي مفعوله في عشرة أيام . "

ـ " هناك احتمال ثالث . أعطوني جوازاً سويسرياً وبعض المال ودعوني أهرب . أستطيع العناية بنفسي . "

ـ " أخشى أن هذا يعد أمراً غير مرغوب فيه . "

ـ " تعني أنكم لم تنتهوا من التحقيق . والى أن تنتهوا أظل غير قابل للاستهلاك ؟ "

ـ " هذا هو الموقف تقريباً . "

ـ " عندما تكملون التحقيق ، ماذا ستفعلون بي ؟ "

هز كتفيه وسأل : " ماذا تقترح ؟ "

ـ " هوية جديدة . جواز سفر اسكندنافياً ، ربما ، نقود . "

أجاب بيترز : " إقتراح أكاديمي جداً ، لكنني سأرفعه الى رؤسائي . هل أنت قادم معي ؟ "

تردد ليماس . ثم ابتسم بشيء من الشك وسأل : " إنْ لم أذهب ، فماذا ستفعل ؟ لدي ، رغم كل شيء ، قصة مثيرة مازال علي أن أرويها . "

ـ " إن قصصاً من ذلك النوع يصعب إثباتها . سأرحل الليلة . آش وكيفير . . . . " وهز كتفيه . " ماذا عساهما يضيفان ؟ "

إتجه ليماس الى الشباك . كانت عاصفة تتجمع فوق بحر الشمال الرمادي . راقب النوارس تدور حول الغيوم السوداء . وكانت الفتاة قد ذهبت . " حسناً ، " قال أخيراً ، " ثبت الحجز . "

ـ " لا تطير طائرة الى الشرق حتى الغد . وهناك رحلة الى برلين خلال ساعة . سنأخذ تلك . ستكون قريبة جداً " .

لقد أتاح الدور السلبي الذي لعبه ذلك المساء لليماس أن يعجب مرة أخرى بكفاءة ترتيبات بيترز غير المبهرجة . فقد أعد الجواز منذ زمن طويل ـ لا بد أن المركز كان قد فكر بذلك . كان يحمل إسم الكسندر ثوايت ، وكيل سفر ، ومليء بالسمات وأختام الحدود ـ جواز السفر القديم ، الجيد التأشير ، لمسافر محترف . لم يفعل حارس الحدود الهولندي شيئاً سوى الإيماء برأسه وختم الجواز لأغراض شكلية ـ وكان بيترز يقف وراءه في الطابور يفصل بينهما ثلاثة أو أربعة أشخاص ، ولم يعر اهتماماً للإجراءات الرسمية . ولحظة دخولهما ممر " المسافرين فقط " لمح ليماس كشكاً للمطبوعات .

Amly نهضة العرب

وقد عرضت فيه مجموعة مختارة من الصحف العالمية : فيغارو ، موند ، نيو زيورشر تزايتنغ ، داي فيلت ، ونصف دزينة من الصحف اليومية والأسبوعية البريطانية . واثناء متابعته ، حضرت الفتاة الى مقدمة الكشك ودفعت نسخة من صحيفة " ايفننغ ستاندرد " على حمال الجرائد . أسرع ليماس بأتجاه الكشك وأخذ الصحيفة من الحمال . " كم ؟ " سألها . وسرعان ما أدرك بعد أن وضع يده في جيبه أنه لم يكن يحمل عملة هولندية معه . أجابت الفتاة : " ثلاثون سنتاً . كانت فتاة جميلة من غير ريب ، سمراء مرحة .

ـ " ليس لدي سوى شلنين . وهذا يساوي جيلدر . هلا أخذتها ؟ "

أجابت : " نعم ، رجاء ، " وأعطاها ليماس النقود .

نظر الى الخلف . كان بيترز لا يزال عند مكتب الجوازات ، مديراً ظهره إلى ناحيته . ودون تردد ، إتجه مباشرة الى مرحاض الرجال . وهناك ، ألقى نظرة سريعة ، إنما شاملة على كل صفحة ، ثم دفع الصحيفة في سلة المهملات وخرج . كان الخبر صحيحاً . كانت هناك صورته مع المقطع الصغير الغامض تحتها . وتساءل إن كانت لِز قد شاهدتها . شق طريقه مفكراً نحو ردهة المسافرين وبعد عشرة دقائق ، ركبا الطائرة المتوجهة الى هامبورغ وبرلين . ولأول مرة منذ أن بدأ كل شيء ، كان ليماس خائفاً .

Amly نهضة العرب

١١ * أصدقاء أليك

قام الرجال بزيارة لِز في نفس المساء . كانت غرفة لِز غولد عند الطرف الشمالي من بيزووتر . وكان فيها أريكة وموقد غازي ، وهو في الحقيقة موقد جميل بلون فحمي رمادي ، يحدث أزيزاً حذيثاً بدلاً من البقبقة القديمة . وقد اعتادت لِز النظر اليه أحياناً عندما كان ليماس هناك ، عندما كان ضوء الغاز هو الضوء الوحيد في الغرفة . وكان يستلقي على الأريكة ، وهي تجلس الى جانبه وتقبله ، أو تراقب نار ووجهها مضغوطاً على وجهه . كانت تخشى التفكير فيه كثيراً الآن لأنها كانت قد نسيت شكله ، لذلك سمحت لعقلها التفكير فيه للحظات قصيرة مثل تمرير عينيها على أفق واهن ، وبعد ، كانت تتذكر شيئاً صغيراً قاله أو فعله ، طريقة ما نظر بها اليها أو ، في أغلب الأحيان ، أهملها فيه . وقد أكتشفت أمراً فظيعاً أستقر ذهنها عليه . لم يكن لديها شيء تتذكره به ـ لا صورة ، ولا تذكار ، لا شيء ولا حتى صديق مشترك ـ سوى الآنسة كريل في المكتبة ، التي وجدت في رحيله المثير للدهشة مبرراً لكرهها له . كانت لِز قد مرت على غرفته مرةً وقابلت صاحب العقار . لم تعرف لماذا فعلت ذلك تماماً ، لكنها استجمعت الشجاعة وذهبت .

كان صاحب الملك عطوفاً بشأن " أليك " ، فقد دفع السيد ليماس بدل ايجاره كسيد مهذب ، حتى النهاية ، وبعدها كان بذمته إيجار أسبوع أو أسبوعين ، وجاء صديق للسيد ليماس ودفع مبلغاً سخياً دون أسئلة أو أي شيء . كان دائم القول إن السيد ليماس كان مهذباً . لم يدرس في مدرسة خاصة ، صحيح . لكنه مهذب حقيقي . كان يبدو عبوساً أحياناً وبالطبع كان يشرب أكثر من طاقته قليلاً رغم أنه لم يمثّل دور المتزن عندما كان يرجع الى البيت . إلا أن هذا الرجل الصغير الذي جاء ، رجل صغير مضحك خجول ، يضع نظارات على عينيه ، قال إن السيد ليماس طلب بصورة

Amly نهضة العرب

خاصة ، أكد بصورة خاصة ، تسوية ما تبقى من دين . وليلعن الله صاحب العقار إذا لم يعتبر ذلك تهذيباً منه . من أين حصل على المال ، الله أعلم ، بيد أن كون السيد لياس رجلاً لا يسبر غوره أمر لا لبس فيه . وأن ما فعله لفورد البقال هو ما كان الكثير من الناس يرغب بفعله منذ الحرب . الغرفة ؟ نعم ، رجل من كوريا ، أخذها بعد يومين من ترحيل السيد لياس .

ربما كان ذلك هو سبب استمرارها في العمل في المكتبة ـ لأنه كان موجوداً هناك في الأقل ـ السلالم ، الرفوف ، الكتب ، الفهرس ، أشياء عرفها ولمسها ، وقد يعود يوماً اليها . كان قد قال بأنه لن يعود لكنها لم تصدق . ظنت الآنسة كريل أنه قد يعود : فقد اكتشفت أنها مدينة له ببعض المال ـ أجور مستحقة لم تدفع ـ وقد أغضبها أن مصدر خوفها لم يكن بتلك الدرجة من البشاعة بحيث لم يأخذ ما تبقى من المبلغ . وبعد أن رحل لياس ، لم تتوقف لِز أبدا عن طرح نفس السؤال على نفسها : لماذا ضرب السيد فورد ؟ كانت تعرف بأنه كان ذا مزاج حاد جداً ، لكن ذلك كان أمراً مختلفاً . كان ينوي فعلها منذ البداية حالما شفي من الحمى . وإلاّ لماذا قال لها وداعاً الليلة التي قبلها ؟ كان يعرف أنه سيضرب السيد فورد في اليوم التالي . رفضت أن تقبل التفسير الآخر والممكن الا وهو أنه تعب منها وقال وداعاً ، وفي اليوم التالي ، وهو ما يزال تحت تأثير الشد العاطفي لفراقها ، فقد أعصابه مع السيد فورد وضربه . كانت تعرف ، وكانت تعرف دائماً ، أنّ هناك شيئاً كان على أليك القيام به . حتى أنه قال لها ذلك . ما هو ذلك الشيء ، لا تستطيع سوى التخمين .

أولا ، تشاجر مع السيد فورد ، كراهية عميقة الجذور ترجع الى سنوات . شيء له علاقة بفتاة ، أو ربما بعائلة أليك . لكن ، ما عليك إلا النظر الى السيد فورد حتى يبدو الأمر مثيراً للسخرية . كان يمثل الصورة البدائية للبرجوازي الصغير ، الحذر ، القنوع ، الحقير . وعلى أية حال ، إذا كان لدى أليك ثأر مع السيد فورد ، فلماذا ذهب اليه في الدكان وفي يوم سبت ، وسط زحمة تسوق نهاية الأسبوع ، حيث بإمكان الجميع رؤية ذلك ؟

كانوا قد تحدثوا عن المشاجرة في اجتماع فرعها الحزبي . وكان جورج هانبي ، أمين صندوق الفرع ، ماراً من أمام دكان فورد اثناء المشاجرة لكنه لم ير الكثير بسبب الحشد ، بل تحدث الى أحد شاهد الأمركله . وقد تأثر هانبي كثيراً حتى أنه أبلغ صحيفة وركر ، وأرسلت صحفياً الى المحاكمة ـ وهذا هو السبب في أن صحيفة وركر أفردت للقضية صفحة كاملة في الوسط . كانت

Amly نهضة العرب

قضية احتجاج عادل ومباشر ـ قضية وعي اجتماعي مفاجيء وكراهية ضد الطبقة المتسلطة ، كما قالت الـ وركر . ذلك الشاب الذي تحدث اليه هانبي ، كان شاباً صغيراً عادياً يضع النظارات على عينيه ، من نمط الموظفين ، قال إن الأمر كان مفاجئاً جداً وكان يقصد القول إنه عفوي جداً . وقد أثبت الحادث لـ هانبي مرة أخرى كم هي مثيرة للفتن تركيبة النظام الرأسمالي . حافظت لِز على هدوئها عندما كان هانبي يتكلم : لم يكن أحد يعرف عنها وعن ليماس بطبيعة الحال . عندها ، أدركت أنها كرهت جورج هانبي : كان قزماً مغروراً قذر التفكير ، كان ينظر اليها شزراً دائماً محاولاً لمسها .

ثم قدم الرجال .

وجدتهم شديدي الأناقة بحيث لايمكن الاعتقاد بأنهم من الشرطة . جاؤوا بسيارة سوداء صغيرة وقد ثبت عليها هوائي . كان أحدهم قصيراً بديناً الى حد ما . وكان يستعمل النظارة ويرتدي ملابس غريبة وغالية ، كان رجلاً لطيفاً ، قصيراً قلقاً وقد وثقت به لِز الى حد ما دون أن تعرف السبب . وكان الآخر أكثر هدوءاً ، لكن ، لم يكن أنيقاً ـ بل بالأحرى كان شكله صبيانياً رغم أنها خمنت أن سنه لا تقل عن الأربعين . قالوا إنهم قدموا من الفرع الخاص وكانوا يحملون بطاقات مطبوعة فيها صور فوتوغرافية في حاويات سيلوفانية . وتحدث الرجل البدين معظم الوقت .

بدأ حديثه بالقول ، " أعتقد أنك كنت على علاقة ودية مع أليك ليماس " . كانت مستعدة للغضب ، بيد أن الرجل البدين كان من الجدية بحيث بدا الغضب سخافة .

ـ " نعم ، كيف عرفت ؟ "

ـ " اكتشفتنا بمحض الصدفة قبل أيام . فعندما يدخل المرء السجن ، عليه أن يعطي إسم أول قريب ، وقد قال ليماس بأن ليس له أقارب . في الحقيقة كانت تلك كذبة . وسألوه عن الشخص الذي يجب إبلاغه في حال وقوع أي شيء له في السجن ، فذكر إسمك . "

ـ " فهمت . "

ـ " هل هناك شخص آخر يعلم أنك كنت صديقة له ؟ "

ـ " لا . "

ـ " ألم يزرك رجال ، دائنون ، لا أحد على الاطلاق ؟ "

ـ " لا . قلت لك ، لم يعرف أحد آخر . ولا حتى والداي ، لا أحد . عملنا معاً في مكتبة طبعاً ، مكتبة بحوث الأمراض النفسية ـ لكن الآنسة كريل هي الوحيدة التي تعرف . ولا أعتقد أن حدث وأن فكرت بوجود شيء

Amly نهضة العرب

بيننا . " وأضافت لز بهدوء : " إنها غريبة الأطوار . " حدّق فيها الرجل القصير بجدية لوهلة ثم سألها : " هل فوجئت عندما قام لياس بضرب السيد فورد ؟ "

ـ " نعم ، بالطبع . "

ـ " في رأيك ، لماذا قام بذلك ؟ "

ـ " لا أدري . أعتقد لأن فورد رفض إقراضه . لكنني أعتقد أنه كان ينوى دائماً ضربه . " وتساءلت مع نفسها إن كانت تكثر من الكلام ، لكنها تاقت الى الحديث عن الموضوع مع شخص ما ، لقد كانت في غاية التوحد ولم تجد أي ضرر في الحديث .

ـ " لكن ، في تلك الليلة ، الليلة التي سبقت الحادث ، تحدثنا معاً . وتناولنا العشاء ، عشاء خاصاً ، وقال أليك إنه لا بد من الحديث ، فأدركت أنها كانت ليلتنا الأخيرة . وكان قد جلب قنينة خمر أحمر من مكان ما ، ولم أحب ذلك كثيراً ، وشرب أليك معظم القنينة . ثم سألته : " هل هذا وداع

ـ " وإن كان ، فهل كل شيء انتهى ؟ "

ـ " وماذا قال ؟ "

ـ " قال إن لديه مهمة يجب إنجازها . شخص ما يجب أن يسدد ثمن شيء فعلوه ضد صديق له . وفي الواقع لم أفهم الأمر أبداً . "

ساد صمت طويل جداً وبدا الرجل القصير أكثر قلقاً من أي وقت مضى . وأخيراً سألها : " هل تصدقين ذلك ؟ "

ـ " لا أدري " . وفجأة شعرت بالخوف على أليك ولم تدرك السبب .

سألها الرجل : " لدى لياس طفلان من زواجه ، هل أخبرك ؟ " . ولم تقل لز شيئاً . وأضاف : " رغم ذلك ، أعطى إسمك كقريبة . في رأيك ، لماذا فعل ذلك ؟ " وبدا الرجل القصير محرجاً من سؤاله ، كان ينظر الى يديه الممتلئتين والمضمومتين معاً فوق حجره . توردت لز خجلاً .

أجابت : " كنت أحبه . "

ـ " هل كان يحبك ؟ "

ـ " ربما . لا أدرى . "

ـ " هل ما زالت تحبينه ؟ "

ـ " نعم . "

سألها الشاب الأصغر : " هل حدث وأن ذكر بأنه سيعود ؟ "

ـ " لا . "

سأل الآخر بسرعة : " لكنه ودّعك ؟ "

Amly نهضة العرب

وكرر الرجل القصير سؤاله بتمهل ولطف : " هل قال لك وداعاً ؟ أعدك بأن لن يحدث له شيء . لكننا نريد مساعدته ، وإذا كانت لديك أية فكرة عن سبب ضربه لـ فورد ، إذا كانت لديك أدنى فكرة عن شيء قاله أو شيء فعله ، ربما مصادفة ، فأخبرينا من أجل مصلحة أليك . "

هزت لز رأسها نفياً .

قالت : " إذهبوا رجاءً ، أرجوكم ، لا تطرحوا مزيداً من الأسئلة . أرجوكم ، إذهبوا الآن . "

في طريقه الى الباب ، تردد الرجل الأكبر ، ثم أخرج بطاقة من محفظته ووضعها على المنضدة بحذر شديد ، وكأنها ستحدث ضجيجاً . وأعتقدت لِز أنه كان رجلاً صغيراً خجولاً جداً .

قال : " إن حدث وأحتجت الى أية مساعدة ـ إنْ حدث أي شيء بشأن ليماس أو ـ إتصلي بي . هل تفهمين ؟ "

ـ " من تكون ؟ "

قال متردداً : " أنا صديق لأليك . هناك شيء آخر ، " ثم أضاف : " سؤال أخير . هل كان أليك يعرف أنكِ كنتِ . . . هل كان أليك يعرف عن الحزب ؟ "

قالت يائسة : " نعم . أخبرته . "

ـ " وهل يعرف الحزب بعلاقتكما ؟ "

ـ " قلت لك لا أحد يعرف . " فجأة ، وقد أصفرّ وجهها ، انفجرت باكية : " أين هو ؟ قل لي أين هو . لماذا لا تخبرني عن مكانه ؟ أستطيع مساعدته ، ألا تفهم ؟ سأعتني به . . . حتى لو جن ، لا أبالي ، أقسم أني لا أبالي . . . كتبت له وهو في السجن . أعرف أنني ما كان يجب أن أفعل ذلك . قلت إن باستطاعته العودة في أي وقت ، وأني سأنتظره دائماً . " لم تستطع الكلام أكثر من ذلك وراحت تنشج وتنشج ، واقفة وسط الغرفة ، دافنة وجهها الكسير في يديها ، والرجل القصير يراقبها .

قال بلطف : " لقد ذهب الى الخارج " وأضاف . . " لا نعرف بالضبط مكان وجوده . لم يجن ، لكن ، ما كان صحيحاً أن يخبرك بكل ذلك . كان أمراً مؤسفاً . "

قال الرجل الأصغر عمراً : " سنتابع الاهتمام بك . حاجتك الى المال وأشياء من هذا القبيل . "

سألت لِز مرة أخرى : مَنْ أنتما ؟ "

كرر الشاب : " أصدقاء أليك . أصدقاء مقربون . "

Amly نهضة العرب

سمعتها ينزلان الدرج بهدوء ويتجهان الى الشارع . ومن شباكها ، راقبتهما يركبان سيارة سوداء صغيرة ويبتعدان في اتجاه المتنزه .

ثم تذكرت البطاقة . وهي في طريقها الى المنضدة التقطتها ورفعتها أمام المصباح . كانت بطاقة تدل على أنها طبعت بثمن غالٍ لا يستطيع رجل شرطة توفيره . هكذا ظنت . كانت محفورة . ولم تكن هناك رتبة أمام الإسم ، ولا مركز شرطة ، أو أي شيء . الإسم فقط مع كلمة السيد ، ومن منا سمع بشرطي يسكن في تشلسي ؟ السيد جورج سمايلي . ٩ شارع بايووتر ، تشلسي . ثم رقم الهاتف تحت العنوان .

كان أمراً غريباً جداً .

Amly نهضة العرب

١٢ * شرق

فك ليماس حزام مقعده .

يقال أن المحكوم عليهم بالاعدام يمرون بلحظات ابتهاج مفاجيء . وكالفراشات مع النار ، يلتقي الموت مع الانجاز . كان ليماس وهو ينفذ قراره بدقة يشعر باحساس مشابه ، إرتياح قصير إنما مريح ، شغله لبعض الوقت . وتلاه خوف وجوع .

كان يبطيء . المشرف كان على حق .

كان قد لاحظ هذا أول مرة خلال قضية رايباك في بداية السنة الماضية . وكان كارل قد أرسل رسالة : إنه حصل على شيء خاص به وإنه كان يقوم بواحدة من زياراته النادرة الى المانيا الغربية ، مؤتمر قانوني في كارلزرو . تمكن ليماس من الحصول على رحلة جوية الى كولونيا وأستأجر سيارة عند المطار . وكان الوقت لا يزال مبكراً في الصباح وكان يأمل أن يتفادى معظم السيارات على طريق الأوتوبان السريع الى كارلزرو . لكن الشاحنات الكبيرة كانت قد بدأت العمل وكان الطريق مزدحماً . قطع سبعين كيلومتر في نصف ساعة ، متعرجاً بين السيارات ، مجازفاً لكسب الزمن ، وحين ظهرت-سيارة صغيرة ، ربما من طراز فيات في الشارع السريع على بعد أربعين ياردة أمامه . ضغط ليماس على الكابح ، مضيئاً مصابيح سيارته بأقصى درجتها ومطلقاً العنان لصوت منبهه ، وبقدرة قادر ، لم يصبها ، لم يصبها بفارق جزء من ثانية . وبعد أن تجاوز السيارة شاهد من خلال زاوية عينه أربعة أطفال في الخلف ، يلوحون ويضحكون وقد جلس والدهم بوجهه البليد المرتعب وراء المقود . استمر لاعناً ، وفجأة حدث الأمر . فجأة كانت يداه ترتجفان بشدة ، ووجهه يحترق ، وقلبه ينبض بوحشية . تمكن من الخروج من الطريق الى شارع فرعي ، وخرج بصعوبة من السيارة ، متنفساً بصعوبة ، محدقاً في تيار

Amly نهضة العرب

الشاحنات المتدفق . تصور السيارة الصغيرة محصورة بينها ، مسحوقة ومحطمة ، دون أن يبقى منها شيء ، لا شيء سوى الأنين المسعور للمنبهات الكهربائية القوية والأضواء الزرقاء الساطعة ، وأجساد الأطفال ممزقة ، كاللاجئين المذبوحين على الطريق عبر كثبان الرمل .

قاد سيارته ببطء شديد بقية الطريق ، وفاته الاجتماع مع كارل .

ولم يقد سيارته مرة أخرى دون أن تكون هناك زاوية من ذاكرته تسترجع الأطفال مشعثي الشعر يلوحون له من خلفية تلك السيارة ، وأبوهم ممسك بالمقود كمزارع يمسك بمقابض محراث يدوي .

كان المشرف سيعتبرها حالة حمى .

جلس متبلداً في مقعده فوق الجناح . وكانت هناك امرأة أمريكية الى جواره مرتدية حذاء بعقب عال مغلف بالبولثين . تناهت الى ذهنه فكرة تمرير ملاحظة اليها لتوصلها الى أناسه في برلين ، لكنه تخلى عنها في الحال . ذلك أنها ستعتقد بأنه كان يحاول الاقتراب منها . وكان بامكان بيترز رؤية ذلك .

بالاضافة إلى ذلك ، ما الجدوى ؟ فقد عرف المشرف بما حدث . المشرف هو الذي سبب ذلك . لم يكن هناك شيء يقال .

وتساءل عما سيحل به . لم يتحدث المشرف عن ذلك ـ بل تحدث عن الطريقة إذ قال : " لا تعطهم إياها دفعة واحدة ، دعهم يسعون اليها . إربكهم بالتفاصيل ، أترك أشياء ، عد الى الوراء على آثار أقدامك . كن نزقاً ، وعنيداً ، وصعباً . إشرب مثل سمكة ، لا تستسلم إيديولوجيا ، فلن يثقوا بذلك . يريدون التعامل مع رجل أشتروه . يريدون تصادم الأضداد يا أليك ، وليس منشقاً متردداً . وقبل كل شيء ، يريدون أن يستنتجوا . فالأرض مهيأة ، فعلناها منذ زمن بعيد ، أشياء صغيرة ، تلميحات صعبة . وأنت المرحلة الأخيرة في البحث عن الكنز . "

كان عليه أن يوافق على أدائها : فلا يمكنك الانسحاب من المعركة الكبرى بعد أن تم خوض كل المعارك التمهيدية لك .

ـ " شيء واحد أستطيع أن أعدك به : إنه أمر يستحق المعركة . يستحق من أجل مصلحتنا الخاصة يا أليك . حافظ على حياته ونكون قد كسبنا نصراً كبيراً . "

لم يعتقد أن بامكانه تحمل التعذيب . وتذكر كتاباً من تأليف كوستلر حيث يذكر فيه كيف أن الثوري القديم كيف نفسه على التعذيب بوضع عيدان ثقاب مشتعلة على أصابعه . لم يقرأ كثيراً ، لكنه كان قد قرأ ذلك وتذكره .

كان الظلام على وشك أن يحل عندما هبطت بهم الطائرة في مطار

Amly نهضة العرب

تيمبلهوف . راقب ليماس أضواء برلين تنهض لملاقاته ، وشعر بالارتطام عندما مست الطائرة الأرض ، وشاهد موظفي الجمارك والهجرة يتحركون الى أمام خارج المنطقة المعتمة .

لوهلة ، كان ليماس قلقاً خشية أن يميزه بالصدفة صديق قديم في المطار . وأثناء سيرهما ، هو وبيترز جنباً الى جنب على طول الممرات الطويلة ، وعبر تفتيش الجمارك والهجرة الخاطف ، لم يظهر وجه أليف لتحيته ، عندها أدرك أن قلقه كان في الواقع أملاً ، أملاً في عدم وقوف الظروف بطريقة ما بوجه قراره الصامت بالاستمرار .

وقد أفرحه أن بيترز لم يعد متشدداً في إظهار عدم وجود علاقة بينهما . ويبدو كأن بيترز قد اعتبر برلين الغربية أرضاً آمنة ، حيث يمكن فيها تخفيف الحذر وإجراءات الأمن ، بل هي مجرد نقطة انطلاق فنية الى الشرق .

كانا يمشيان عبر قاعة الاستقبال الكبيرة متجهين الى المدخل الرئيس عندما غير بيترز فجأة رأيه ، وغيّر على نحو مفاجيء اتجاهه وقاد ليماس الى مدخل جانبي أصغر كان يفضي الى ساحة وقوف سيارات وموقف لسيارات الأجرة . هناك تردد بيترز لحظة ، واقفاً تحت الضوء المسلط من فوق الباب ، ثم وضع حقيبته على الأرض الى جانبه ، وأخرج عن عمد جريدته من تحت ذراعه ، وطواها ، ودفعها في الجيب الأيسر لمعطفه المطري وألتقط حقيبته مرة أخرى . وعلى الفور ، ومن جهة ساحة وقوف السيارات ، تفجرت الحياة في زوج من الأضواء الرئيسية ، ثم خفضت وأطفئت .

قال بيترز : " هيا ، " وبدأ بالمشي بخفة عبر الطريق المعبّد بالأسفلت ، وقد تبعه ليماس متمهلاً . وحال وصولهما الى الرتل الأول من السيارات فتح الباب الخلفي لسيارة مرسيدس سوداء من الداخل ، وأضيء مصباح الاستقبال . وسارع بيترز ، الذي كان يتقدم ليماس بعشر ياردات ، الى السيارة وتحدث بلطف الى السائق ثم نادى على ليماس .

ـ " هذه هي السيارة . أسرع . "

كانت سيارة مرسيدس قديمة من طراز ١٨٠ ، ودخل دون كلمة . جلس بيترز الى جانبه في الخلف . وبعد أن انطلقوا ، تجاوزوا سيارة صغيرة من طراز دي . كي . دبليو ، كان يجلس فيها رجلان في المقدمة . وعلى بعد عشرين ياردة من أسفل الشارع ، كانت هناك كشك هاتف . كان رجل يتحدث في الهاتف ، وراقبهم وهم يمران به ، متحدثاً طيلة الوقت ، وقد نظر ليماس الى الخلف عبر الشباك الخلفي وشاهد سيارة دي . كي . دبليو تتبعهم . فكر مع نفسه قائلاً : إستقبال حقيقي .

Amly نهضة العرب

كانت السيارة تسير بهم ببطء شديد . جلس ليماس واضعاً يديه على ركبتيه ، متطلعاً بصورة مستقيمة الى ما أمامه . لم يرغب في مشاهدة برلين تلك الليلة .

تلك كانت فرصته الأخيرة ، وكان يعرف ذلك . بالطريقة التي كان يجلس فيها تلك اللحظة ، كان بامكانه تحريك يده اليمنى والامساك بحنجرة بيترز ، محطماً نتوء زوره .

كان بإمكانه النزول والهرب ، شاقاً طريقه على نحو متموج لتفادي الرصاص من السيارة التي كانت وراءهم . وسيكون حراً ـ فهناك أناس في برلين ممن كانوا سيعتنون به ـ وكان بامكانه التملص .

ولم يفعل شيئاً .

كانت عملية عبور القطاع في غاية السهولة . لم يتوقع ليماس مطلقاً ان يكون العبور بتلك السهولة . وتأخروا حوالي عشرة دقائق في محاولة لتضييع الوقت وخمن ليماس أنه كان عليهم العبور في وقت مرتب مسبقاً . وعندما أقتربوا من نقطة التفتيش الألمانية القريبة ، أسرعت السيارة الـ دي . كي . دبليو وتجاوزتهم بضجيج ظاهر لمحركٍ متعب ، وتوقفت عند سقيفة الشرطة . وانتظرت المرسيدس على بعد ثلاثين ياردة خلفها . وبعد دقيقتين ، رفع الحاجز المصبوغ بالأبيض والأحمر ليسمح للسيارة من طراز دي . كي . دبليو بالمرور ، وخلال هذا ، تحركت السيارتان معاً ، وسيارة المرسيدس تزنجر وهي في وضع النقلة الثانية على ناقل الحركة ، وقد ضغط السائق نفسه الى وراء على مقعده ممسكاً المقود على مرمى ذراع .

وحال عبورهم الياردات الخمسين التي كانت تفصل نقطتي التفتيش ، بدأ ليماس يشاهد ، بإحساس متشائم ، التحصين الجديد على الجانب الشرقي من الجدار ـ أسنان التنين ، أبراج مراقبة ، وحاجزين من الأسلاك الشائكة . لقد زاد الموقف توتراً .

لم تتوقف المرسيدس عند نقطة التفتيش الثانية ، فقد كانت الحواجز مرفوعة سلفاً . واجتازوها مباشرة ، وكان رجال شرطة الحدود يراقبونهم عبر المنظار فقط . وكانت سيارة الـ دي . كي . دبليو قد أختفت . وعندما لمحها ليماس بعد عشر دقائق ، كانت تسير وراءهم مرة أخرى .

كانوا يتقدمون بسرعة هذه المرة ـ وكان ليماس قد اعتقد بأنهم سيتوقفون في برلين الشرقية ، ربما لاستبدال السيارات ، ولتهيئة بعضهم الآخر بنجاح العملية ، لكنهم أستمروا شرقاً عبر المدينة . سأل ليماس : " الى أين نحن ذاهبون ؟ "

Amly نهضة العرب

ـ " نحن هنا . جمهورية المانية الديمقراطية . لقد رتبوا سكناً لك . "
ـ " أعتقدت أننا سنسير الى العمق شرقاً . "
ـ " سنفعل . نقضي يوماً أو يومين هنا أولاً . نعتقد بأن الألمان يريدون التحدث اليك . "
ـ " فهمت . "
ـ " لقد كان معظم عملك يخص الجانب الألماني . أرسلت لهم تفاصيل من إفاداتك . "
ـ " وطلبوا مشاهدتي ؟ "
ـ " لم يحدث أن حصلوا على شيء مثلك تماماً ، شيء قريب جداً . . . من المصدر . وقد وافق جماعتي على ضرورة استغلال فرصة مقابلتك . "
ـ "ومن هناك ؟ الى أين نذهب بعد المانيا ؟ "
ـ " شرقاً مرة أخرى . "
ـ " ومن الذي سأقابله من الجانب الألماني ؟ "
ـ " هل يهم ؟ "
ـ " ليس بالضرورة . فأنا أعرف معظم العاملين في قسم الاستخبارات بالأسماء . هذا كل ما في الأمر . مجرد تساؤل . "
ـ " ومَنْ هم الذين تتوقع مقابلتهم ؟ "
أجاب ليماس على الفور : " فيدلر ، نائب رئيس الأمن ، رجل مندت . وهو الذي يجري كل الاستجوابات . إنه وغد . "
ـ " لماذا ؟ "
ـ " وغد صغير متوحش . لقد سمعت عنه . فقد ألقى القبض على عميل من عملاء بيترز غيلام وكاد أن يقتله شر قتلة . "
قال بيترز بمرارة : " التجسس ليس لعبة كرِكت " . وبعد ذلك جلسا صامتين . فكر ليماس : " اذن فهو فيدلر . "
حسناً ، كان ليماس يعرف فيدلر . عرفه من الصور الملصقة على الملف وأقوال أتباعه السابقين . رجل نحيف وأنيق ، شاب صغير ، رقيق الوجه ، ذو شعر أسود ، وعيون سوداء براقة . ذكي ومتوحش ، كما قال ليماس . جسد رشيق سريع الحركة ، يضم في رأسه عقلاً صبوراً قوي الذاكرة . رجل دون طموح في الظاهر لنفسه لكنه عديم الرحمة في تدمير الآخرين .
كان فيدلر عملة نادرة في قسم الاستخبارات ـ يشارك في دسائس القسم ، ويبدا مقتنعاً بالعيش في ظل مندت دون أمل في الترقية . لم يكن بالامكان تصنيفه عضواً في هذا التكتل أو ذاك ، وحتى أولئك الذين عملوا على مقربة

Amly نهضة العرب

منه في القسم لا يستطيعون تحديد موقعه في هرم سلطة القسم . كان فيدلر معتزلاً ، مخيفاً ، مكروهاً ، وليس موضع ثقة . ومهما كانت الدوافع التي تحركه فإنها كانت مخيفة تحت غطاء من السخرية المدمرة .

ـ " إن فيدلر هو أفضل ما نراهن عليه . " كان المشرف قد أوضح . كانوا جالسين معاً على العشاء ـ هو والمشرف وبيتر غيلام ـ في بيت الأقزام السبعة الموحش الصغير في سوري حيث كان المشرف يعيش مع زوجته المكتنزة القصيرة ، تحيط بهم مناضد هندية من خشب محفور ذات سطوح مصنوعة من النحاس . " فيدلر هو مساعد الكاهن الذي سيطعن يوماً كبير الكهنة في ظهره . وهو الرجل الوحيد الند لـ مندت . وهنا ، أومأ غيلام برأسه موافقاً ـ " وهو يكره شجاعته ـ بالطبع ، فيدلر يهودي ، ومندت هو الشيء المناقض تماماً . ثنائي ليس متجانساً على الإطلاق . كانت مهمتنا ، " أعلن ، مشيراً الى نفسه وغيلام " إعطاء فيدلر السلاح الذي يدمر به مندت . وستكون مهمتك يا عزيزي ليماس ، تشجيعه على استخدامه . بصورة غير مباشرة بطبيعة الحال ، لأنك لن تقابله . في الأقل آمل بالتأكيد ألا تقابله . "

ضحكوا جميعاً في حينها ، حتى غيلام . بدت نكتة جيدة في وقتها . جيدة بحسابات المشرف على أية حال .

لابد أن الوقت كان بعد منتصف الليل .

لبعض الوقت ، كانوا يسيرون على طريق غير معبد ، أحياناً عبر غابة وأخرى عبر ريف مفتوح . توقفوا ، وبعد لحظة ، توقفت سيارة الـ دي . كي . دبليو الى جانبهم .

بعد أن نزل بيترز وليماس ، لاحظ ليماس أن هناك ثلاثة أشخاص في السيارة الثانية . كان إثنان منهم ينزلان من السيارة . وكان الثالث جالساً في المقعد الخلفي ينظر في أوراق في ضوء سقف السيارة ، شكل صغير نصفه في الظلام .

أوقفوا السيارة قرب اسطبلات مهجورة ، وكانت البناية على بعد ثلاثين ياردة الى الخلف . وفي ضوء المصابيح الكبيرة للسيارة ، لمح ليماس بيتاً ريفياً منخفضاً جدرانه من الخشب والطابوق الأبيض. كان القمر مشرقاً ، وساطعاً جداً بحيث أن التلال المغطاة بالأشجار واضحة تماماً مقابل السماء الليلية الشاحبة . ساروا الى البيت ، يتقدمهم بيترز وليماس والرجلان وراءهما . أما الرجل الآخر في السيارة الثانية فلم يقم بأية محاولة حتى الآن للتحرك ـ فقد بقي يقرأ هناك .

وعند وصولهم الباب ، توقف بيترز منتظراً الآخرين كي يلحقا بهما . كان

Amly نهضة العرب

أحدهما يحمل حزمة مفاتيح في يده اليسرى ، وفي الوقت الذي كان يعبث فيه بالمفاتيح ، وقف الآخر جانباً ، واضعاً يديه في جيوبه ، مغطياً زميله .

قال ليماس لـ بيترز : " أنهم لا يخاطرون . ما هي فكرتهم عني ؟ "

أجاب بيترز : " لا يدفع لهم أجر عن الأفكار . " واستدار نحو أحدهما وسأله بالألمانية : " هل سيأتي ؟ "

هز الألماني كتفيه ونظر الى الخلف باتجاه السيارة وقال : " سيأتي . فهو يجب أن يأتي لوحده . "

دخلوا الى البيت وفي مقدمتهم الرجل . كان البيت قد شيّد مثل بيوت موسم الصيد ، قديم جزئياً ، وجديد جزئياً . وكانت الإضاءة فيه ضعيفة من مصابيح معلقة شاحبة . وكانت تفوح من المكان رائحة عفونة واهمال وكأنه قد فتح من أجل تلك المناسبة . كانت هناك لمسات رسمية قليلة هنا وهناك ـ ملاحظة ما يجب عمله في حالة الحريق ـ صبغ أخضر رسمي على الباب وأقفال نابضية ثقيلة ، وفي غرفة الاستقبال التي كانت قد نظمت بطريقة مريحة ، كان هناك أثاث غامق وثقيل ، خربش بشكل سيء ، وكذلك الصور المحتومة للزعماء السوفيت . وقد وجد ليماس في هذه الاشارات البعيدة عن حالة الإغفال التي يفترض أن يكون عليها المكان تعبيراً يكاد أن يكون لاإرادياً عن بيروقراطية جهاز الاستخبارات الألماني . وكان ذلك أمراً اعتاد عليه من خلال عمله في الميدان .

جلس بيترز وكذلك فعل ليماس ، ولعشر دقائق ، ربما أكثر ، انتظروا ، ثم تحدث بيترز الى أحد الرجلين الواقفين بطريقة سمجة عند الطرف الآخر من الغرفة .

ـ " إذهب وأخبره أننا في الانتظار . وجد لنا شيئاً من الطعام ، فنحن جياع . " وعندما تحرك الرجل نحو الباب قال بيترز : " وويسكي ـ قل لهم أن يجلبوا الويسكي وبعض الأقداح . "

هز الرجل كتفيه بطريقة توحي بعدم الرضا وخرج ، تاركاً الباب مفتوحاً وراءه .

سأل ليماس ، " هل سبق وأن كنت هنا من قبل ؟ "

أجاب بيترز : " نعم ، عدة مرات . "

ـ " السبب ؟ "

ـ " شيء من هذا القبيل ـ ليس مثله ، بل من نوع عملنا . ـ "

ـ " مع فيدلر ؟ "

ـ " نعم . "

Amly نهضة العرب

ـ " هل هو طيب ؟ "

هز بيترز كتفيه وأجاب : " بالنسبة ليهودي ، فهو ليس سيئاً . "

عند سماعه صوتاً من الطرف الآخر من الغرفة ، استدار ليماس ورأى فيدلر واقفاً في المدخل .

كان يحمل قنينة ويسكي في يد وأقداحاً ومياهاً معدنية في اليد الأخرى . كان طوله لا يمكن أن يتجاوز خمسة أقدام وستة بوصات . وكان يرتدي بدلة زرقاء غامقة أحادية الأزرار وسترته طويلة جداً . وكان املس وحيوانياً ، وكانت عيناه سوداوين براقتين . لم يكن ينظر اليهما بل إلى الحارس الواقف الى جانب الباب .

قال : " إذهب " . كان يتحدث بلكنة سكسونية . وأضاف : " إذهب وأبلغ الآخر بأن يجلب لنا طعاماً . "

قال بيترز : " أبلغته ، " وأضاف : " يعرفون سلفاً ، لكنهم لم يجلبوا شيئاً . "

قال فيدلر بجفاف بالانجليزية : " إنهم متعجرفون كبار . "

ـ " يظنون أن علينا أن نستخدم خدماً للطعام . "

كان فيدلر قد خدم أثناء الحرب في كندا . وتذكر ليماس ذلك ، ومن هنا تتبع منشأ اللكنة . كان والده من اللاجئين اليهود الألمان ، من الماركسيين ، ولم تعد العائلة الى الوطن إلا في عام ١٩٤٦ ، تواقة للمشاركة في بناء ألمانيا الستالينية مهما كانت الخسارة على المستوى الشخصي .

قال موجهاً كلامه لليماس : " أهلاً ، " بطريقة شبه عريضة ، وأضاف : " سعيد بلقائك . "

ـ " أهلاً فيدلر . "

ـ " وصلت نهاية الطريق . "

سأل ليماس بسرعة : " ماذا تعني بحق الجحيم ؟ "

ـ " أقصد أنني ، بخلاف كل ما قاله لك بيترز ، آسف ، لن تذهب بعيداً الى الشرق . " وبدا فرحاً .

استدار ليماس الى بيترز .

ـ " هل هذا صحيح ؟ " كان صوته يهتز غضباً . " هل هذا صحيح ؟ قل لي ! "

أومأ بيترز برأسه ، " نعم . وأنا الوسيط . كان علينا أن نرتبها بتلك الطريقة . "

ـ " لماذا ؟ "

Amly نهضة العرب

تدخل فيدلر : " سبب قاهر . بدأ التحقيق الأولي معك في الغرب حيث لا تستطيع إلا السفارات تقديم ذلك النوع من الاتصال الذي كنا بحاجة اليه . وليس لجمهورية المانيا الديمقراطية سفارات في الغرب . لم يحن الوقت بعد . ولذلك ، رتب قسم الارتباط التابع لنا التمتع بالتسهيلات والاتصالات والحصانات التي حرمنا منها في الوقت الحاضر . "

همس ليماس مستهجناً : " أنت وغد . أنت وغد قذر ! كنت تعرف أنني لن أسلم نفسي لاستخباراتك العفنة ، ذلك كان هو السبب ،-أليس كذلك ؟ وذلك هو سبب استخدامكم شخصاً روسياً . "

ـ " استخدمنا السفارة السوفيتية في لاهاي . ماذا كان بالامكان أن نفعل غير ذلك ؟ وحتى ذلك الحين كانت العملية عمليتنا ـ وهذا معقول تماماً . فلا نحن ولا أي شخص آخر كان يمكن أن يعرف أن جماعتك في انجلترا سيتوصلون اليك بهذه السرعة . "

ـ " لا ؟ ولا حتى عندما أوصلتهم أنت ألي بنفسك ؟ أليس ذلك هو ما حدث يا فيدلر ؟ حسناً ، أليس كذلك ؟ " كان المشرف قد قال : " تذكر دائماً أن تكرههم . عندها سيعتزون بما يأخذونه منك . "

أجاب فيدلر بايجاز : " ذلك رأي مناف للعقل . " . وبعد أن وجه نظره الى بيترز ، قال شيئاً بالروسية وأومأ بيترز برأسه موافقاً ونهض .

قال مودعاً ليماس : " وداعاً . حظاً سعيداً " . إبتسم بضجر ، أشار برأسه لـ فيدلر ، ثم اتجه نحو الباب .

وضع يده على مقبض الباب ثم استدار وقال لـ ليماس مرة أخرى ، " حظاً سعيداً " . بدا وكأنه يريد من ليماس أن يقول شيئاً ، لكن ، ربما لم يسمع ليماس . كان قد شحب ، مرخياً يديه سائبتين ، والإبهامان الى أعلى وكأنه كان سيدخل معركة . ظل بيترز واقفاً عند الباب .

قال ليماس : " كان يجب أن أعرف ، " ، وكان في صوته تلك النبرة الغريبة الخاطئة لرجل غاضب جداً . وأضاف : " كان يجب أن أخمّن بأنكم لن تمتلكوا الشجاعة لأداء عملكم القذر يا فيدلر .إنها صورة مثالية عن نصف البلد الصغير المتعفن الذي تنتمون إليه ، وعن استخباراتكم الصغيرة الحقيرة . إنك تستنجد بعمر كبير ليؤدي نيابة عنك عملك التافه . لستم بلاداً على الإطلاق ، لستم حكومة ، إنكم دكتاتورية من العصابيين السياسيين من الدرجة الخامسة " . وصرخ رافعاً أصبعه في وجه فيدلر : " أنا أعرفك ، أنت أيها الوغد السادي ،إن هذا متوقع منك . لقد كنت في كندا خلال الحرب ، أليس كذلك ؟ مكان مناسب جداً آنذاك ، أليس كذلك ؟ أراهن

Amly نهضة العرب

أنك كنت تدفن رأسك الكبير في صدرية أمك كلما مرت طائرة . وماذا أنت الآن ؟ مساعد صغير زاحف لـ مندت ، وإثنان وعشرون فرقة تجلس على عتبة دار أمك . نعم يا فيدلر ، أنا أشفق عليك ، في اليوم الذي تنهض من النوم وتجدهم قد رحلوا . عندها سيكون هناك موت ، ولن تنقذك أمك أو أي عم كبير من الحصول على ما تستحق . "

هز فيدلر كتفيه .

ـ " أعتبر الأمر زيارة لطبيب الأسنان . كلما أسرعنا في أدائها ، كلما بكرت في العودة الى الوطن . تناول شيئاً من الطعام واذهب الى الفراش . "

رد ليماس : " تعلم علم اليقين أنني لا أستطيع العودة الى الوطن ، " وأضاف : " لقد كنت وراء ذلك . لقد مزقتني إرباً في إنجلترا ، كان ذلك لا مفر منه ، لكليكما ، وأنت تعلم تماماً أنني لن أجيء الى هنا ما لم اكن مجبراً . "

نظر فيدلر الى أصابعه القوية النحيفة .

قال : " صعب أن يكون هذا الوقت وقت تفلسف . لكنك لا تستطيع التذمر ، كما تعلم . سجل عملنا ـ أنت وأنا ـ متجذر في النظرية القائلة بأن الكل أكثر أهمية من الفرد . ولهذا يرى الشيوعي خدمته السرية امتداداً طبيعياً لذراعه ، ولهذا يعتبر العمل الاستخباري في بلادك مغلفاً بنوع من الحياء الانجليزي . إن استغلال الأفراد يمكن أن يبرر فقط بالحاجة الجماعية ، أليس كذلك ؟ أجد الأمر مثيراً للسخرية قليلاً عندما أراك بمثل هذا الامتعاض . نحن هنا ليس لمراعاة القوانين الأخلاقية لحياة الريف الانجليزي . ورغم كل شيء ، " أضاف برقة : " فإن سلوكك أنت بالذات لم يكن ، من وجهة النظر الأخلاقية ، خالياً من العيوب . "

كان ليماس يراقب فيدلر بتعبير ينم عن الازدراء .

ـ " أعرف وضعك . فأنت كلب مندت ، أليس كذلك ؟ يقولون إنك راغب في منصبه . وأعتقد أنك ستناله الآن . حان وقت إنهاء سلالة مندت . ربما هذا هو الأمر . "

أجاب فيدلر : " لا أفهم . "

أجاب ليماس ساخراً : " أنا نجاحك الكبير . أليس كذلك ؟ "

بدا فيدلر متأملاً لوهلة ثم هز كتفيه وقال : " كانت العملية ناجحة . أما إن كنت تستحق عملية من هذا النوع ، فهو أمر خاضع للنقاش . سنرى . لكنها كانت عملية ناجحة . فقد حققت الشرط الوحيد لمهنتنا : إنها نجحت . "

Amly نهضة العرب

قال ليماس : " أعتقد أنك ستنال الشرف ؟ " مصراً وملقياً نظرة في اتجاه بيترز .

قال فيدلر جازماً : " ليست مسألة شرف ، على الإطلاق . " وجلس على ذراع الأريكة ، ونظر الى ليماس مفكراً لوهلة ثم قال : " رغم ذلك ، فأنت على حق في غضبك بشأن شيء واحد . من أخبر جماعتك أننا التقطناك ؟ نحن لم نخبرهم . قد لا تصدقني ، لكن ، يبدو أن هذه هي الحقيقة . لم نخبرهم . ولا حتى أردنا أن يعرفوا . كانت لدينا أفكار عن استخدامك لصالحنا فيما بعد . . . أفكار أدرك الآن أنها مثيرة للسخرية . إذن ، مَنْ أبلغهم ؟ كنت ضائعاً ، متسكعاً ، لا عنوان لك ، ولا صلات ، ولا أصدقاء . إذن ، كيف بحق الشيطان علموا أنك رحلت ؟ أحدهم أخبرهم بذلك ـ من الصعب أن يكون آش أو كيفير طالما أن كليهما قيد الاعتقال الآن . "

ـ " قيد الاعتقال . "

ـ " هكذا يبدو . ليس بالضبط بسبب مشاركتهما في قضيتك ، لكن هناك أشياء أخرى . . . "

ـ " رائع ، رائع . "

ـ " الحقيقة هي ما قلته للتو . كنا مقتنعين بتقرير بيترز من هولندا . كان بامكانك أن تأخذ نقودك وترحل . لكنك لم تخبرنا بكل شيء . وأنا أريد أن أعرف كل شيء ـ ورغم كل شيء ، فإن وجودك هنا يثير لنا المتاعب ، كما تعلم . "

ـ " حسناً ، لقد حزرتم . أعرف كل شيء ـ وسوف تحصلون على كل ما أعرف . "

ساد صمت ، خرج خلاله بيترز من الغرفة مع إشارة سريعة وودية باتجاه فيدلر .

التقط فيدلر قنينة الويسكي وصب قليلاً في كل قدح . قال : " أخشى اننا لانملك الصودا " هل تحب الماء ؟ لقد طلبت صودا لكنهم جلبوا ليموناً رديئاً . "

قال ليماس : " أوه ، الى الجحيم . " . وفجأة شعر بتعب شديد .

هز فيدلر رأسه .

ـ " أنت رجل متكبر جداً ، " وأضاف : " لكن ، لا تهتم . تناول عشاءك واذهب الى فراشك . "

دخل أحد الحراس حاملاً صينية طعام ـ خبز أسود ، سجق وسلطة

Amly نهضة العرب

خضراء باردة .

قال فيدلر : " إنها وجبة متقشفة بعض الشيء . لكنها مرضية تماماً . أخشى أنها تفتقر الى البطاطا . هل هناك شحة مؤقتة في البطاطا . "

راحا يأكلان بصمت ، وكان فيدلر يأكل بحذر شديد وكأنه كان يحسب سعراته الحرارية .

أوصل الحراس لياس الى غرفة نومه . سمحوا له بحمل أمتعته ـ نفس الأمتعة التي أعطاها إياه كيفير قبل أن يغادر إنجلترا ـ ومشى بينهم عبر الممر الوسطي العريض الذي يبدأ من الباب الأمامي .

وصلوا الى باب مزدوج كبير مطلي بلون أخضر داكن ، وفتحه أحد الحراس . وأشار إلى لياس بالدخول أولاً . دفع الباب ووجد نفسه في غرفة نوم صغيرة بسيطة فيها سريران وكرسي ومنضدة عتيقة . كانت شيئاً يشبه معسكر اعتقال . وكانت هناك صور فتيات على الجدران وكانت النوافذ مغلقة . وفي الطرف البعيد من الغرفة ، كان هناك باب آخر . وأشاروا عليه بالمضي الى أمام مرة أخرى . وبعد أن وضع حقائبه ذهب وفتح الباب . كانت الغرفة الثانية مشابهة للأولى ، لكن ، كان هناك سرير واحد وكانت الجدران عارية .

قال : " أجلب تلك الحقائب . أنا متعب . " أستلقى على السرير بكامل ملابسه وخلال دقائق معدودة سرقه النوم بسرعة .

أيقظه حارس يحمل الافطار : خبز أسود وقهوة إراتز . نهض من الفراش واتجه الى الشباك .

كان البيت مقاماً على تل عالٍ . وكان انحدار الأرض يزداد كلما ابتعدت عن نافذته ، وكانت رؤوس أشجار الصنوبر مرئية من فوق القمة ، ووراءها أمتدت في الأرض الخلاء تلال لا نهاية لها ، كثيفة الشجر ، جميلة الانتظام . وهنا وهناك شكل أخدود من خشب الأشجار أو الأرض المحروثة حاجزاً بنياً صغيراً بين أشجار الصنوبر يكاد يشبه صولجان هارون وهو يعزل باعجاز بحوراً هائلة من الخضرة الزاحفة . لم يكن هناك أثر لإنسان . لا بيت ولا كنيسة ، ولا حتى أطلال بيت قديم ـ الطريق فقط ، الطريق الأصفر الموحل ، خط مرسوم عبر حوض الوادي ، لم يكن هناك صوت . بدا من غير المعقول أن شيئاً كهذا يمكن أن يكون بهذا الهدوء . كان اليوم بارداً إنما صحو . لابد أنها أمطرت في الليل ، فقد كانت الأرض مبتلة والمشهد برمته

Amly نهضة العرب

محدداً بدقة أزاء السماء البيضاء بحيث تمكن ليماس من تمييز الأشجار المنفردة على التلال البعيدة .

ارتدى ملابسه على مهل ، وشرب القهوة المرّة أثناء ذلك . وكاد ان ينتهي من ارتداء ملابسه وعلى وشك أن يبدأ بتناول الخبز عندما دخل فيدلر الغرفة . قال بمرح : " صباح الخير ، لا تدعني أوقفك عن إفطارك . " وجلس على السرير . كان على ليماس أن يقر بأن فيدلر كان شجاعاً . ليس لأن هناك شجاعة في الدخول ورؤيته ، فالحراس ، كما اعتقد ليماس ، كانوا ما يزالون في الغرفة المجاورة ، لكن ، كان هناك تصبر وأناة ، هدف محدد في أسلوبه ، استطاع ليماس إدراكه والإعجاب به .

قال فيدلر : " لقد أوقعتنا في ورطة . "

ـ " أخبرتكم بكل ما أعرف . "

قال مبتسماً : " أوه ، لا ، " وأضاف : " أوه ، لا ، لم تخبرنا . لقد أخبرتنا بكل ما تعي معرفته . "

تمتم ليماس : " ذكي جداً ، " ، دافعاً قدمه الى جانب ومشعلاً سيجارة ـ آخر سجائره .

قال فيدلر : " دعني أسالك سؤالاً ، " مقترحاً برقة مبالغ فيها لرجل يقترح لعبة في حفل . " كضابط مخابرات مجرب ، ماذا تفعل بالمعلومات التي أعطيتنا إياها ؟ "

ـ " أية معلومات ؟ "

ـ " عزيزي ليماس ، لقد أعطيتنا معلومة استخبارية واحدة . لقد أخبرتنا عن رايماك : ونحن نعرف عن رايماك . وأخبرتنا عن تشتت تنظيمك في برلين ، عن شخوصه وعملائه . هذا ، إذا صح القول ، كلام قديم . دقيق ـ نعم ـ خلفية جيدة ، قراءة مثيرة ، هنا وهناك تطابق جيد ، هنا وهناك سمكة صغيرة سنخرجها من الحوض ، لكن ليس ـ إن سمحت لي بأن أكون قاسياً ـ ليس عملاً استخبارياً يستحق خمسة عشر ألف جنيه . كلا . " وابتسم مرة أخرى ، " بمعدلات تبادل العملات الحالية . "

قال ليماس : " إسمع ، لم اقترح هذا الاتفاق ـ أنت الذي اقترح ـ أنت وكيفير وبيترز . لم آت زاحفاً الى أصدقائك المخنثين ، لأبيع بالمفرد معلومات قديمة . فيدلر ، إن جماعتك هم الذين عقدوا الصفقة ، أنت الذي حددت الثمن وقبلت المجازفة . وخلاف ذلك ، لم أحصل على فلس قذر . لذلك لا تلمني إذا ما أخفقت العملية . "

رد فيدلر : " ليس إخفاقاً ، لم تتته ـ ولا يمكن أن تكون إخفاقاً . لم

Amly نهضة العرب

تخبرنا بما تعرف . قلت إنك قدمت لنا معلومة استخبارية واحدة . أنا أتحدث عن رولنغ ستون ـ دعني أسألك مرة أخرى ـ ماذا ستفعل لو أنني أو بيترز أو أي شخص آخر من أمثالنا ، أخبرك بقصة مماثلة ؟ "

هز ليماس كتفيه وقال : " سأشعر بعدم الارتياح . لقد حدث الأمر قبل هذا . تحصل على مؤشر أو ربما عدة مؤشرات ، عن أن هناك جاسوساً في قسم ما أو على مستوى معين . ثم ماذا ؟ لا تستطيع القاء القبض على كل استخبارات الحكومة . ولا تستطيع نصب فخاخ لقسم بأكمله . ما عليك سوى الجلوس متوتراً وانتظار المزيد . وتبقى الأمر في ذهنك . وفي عملية رولنغ ستون لا تستطيع حتى التأكد من البلد الذي يعمل فيه . "

قال فيدلر ضاحكاً : " أنت منفذ يا ليماس ، " وأضاف : " ولست حكماً . إسمح لي بأن أطرح عليك بعض الأسئلة الأولية . "

لم يقل ليماس شيئاً .

ـ " الملف ـ الملف الحقيقي لعملية رولنغ ستون ، ما لونه ؟ "

ـ " رمادي وعليه علامة حمراء ـ وهذا يعني مشاركة محدودة . "

ـ " هل كان هناك شيء ملحق بالغلاف الخارجي ؟ "

ـ " نعم ، التحذير . أي قائمة المشاركين ، مع وجود ملاحظة تقول إن أي شخص غير مخوّل واسمه غير مدوّن في هذه القائمة ، ويجد الملف بين يديه ، يجب أن يعيده على الفور ، دون أن يفتحه ، الى قسم المصارف . "

ـ " من كان على قائمة المشاركين ؟ "

ـ " لعملية رولنغ ستون ؟ "

ـ " أجل . "

ـ " وكيل المشرف الصحفي ، والمشرف ، وسكرتيرته ، وقسم المصارف ، والآنسة بريم من التسجيل الخاص والتوابع رقم أربعة . هذا كل شيء على ما أعتقد ، والبريد الخاص على ما أظن ـ لست متأكداً من ذلك . "

ـ " التوابع رقم أربعة ، ما هو واجبهم ؟ "

ـ " بلدان الستار الحديدي باستثناء الاتحاد السوفيتي والصين . أي المنطقة . "

ـ " تعني جمهورية ألمانيا الديمقراطية ؟ "

ـ " أقصد المنطقة . "

ـ " أليس من الغريب أن يكون قسم بأكمله على قائمة المشاركين ؟ "

ـ " نعم . من المحتمل كذلك . لم أكن لأعرف . لم أعالج أبداً مادة مشاركة محدودة من قبل باستثناء برلين بالطبع . كان الأمر مختلفاً كلياً

Amly نهضة العرب

هناك . "

ـ " مَنْ كان في قسم التوابع رقم أربعة في ذلك الوقت ؟ "

ـ " يا إلهي . غيلام ، هافرليك ، دي يونغ على ما أعتقد . كان دي يونغ عائداً لتوه من برلين . "

ـ " هل كان مسموحاً للجميع بمشاهدة هذا الملف ؟ "

أجاب ليماس بانزعاج : " لا أدري يا فيدلر ، ولو كنت مكانك . . . "

ـ " إذن ، أليس غريباً أن يكون قسم كامل على قائمة المشاركين في حين أن بقية المساهمين هم أفراد ؟ "

ـ " أقول لا أدري . كيف لي أن أعرف ؟ كنت مجرد موظف في هذه القضية . "

ـ " مَنْ كان يحمل الملف من مشارك الى آخر ؟ "

ـ " سكرتيرات ـ على ما أظن ـ لا أتذكر . لقد مضت أشهر طوال منذ . . "

ـ " إذن ، لماذا لم تظهر السكرتيرات في القائمة ؟ كانتْ هناك سكرتيرة المشرف . " ثم ساد صمت قصير .

قال ليماس : " كلا . أنت على حق . أتذكر الآن . " وقد بدت نبرة اندهاش في صوته . " كنا ننقله باليد . "

ـ " ومَنْ هم الآخرون الذين تعاملوا مع ذلك الملف ؟ "

ـ " لا أحد . . . لا أحد . كان ذلك واجبي عندما التحقت بالقسم . وكانت إحدى النساء قد قامت به قبلي ، لكن عندما التحقت ، تسلمت العمل وحذفت أسماؤهم من القائمة . "

ـ " إذن ، فأنت الوحيد الذي مررّ الملف باليد الى القارىء اللاحق ؟ "

ـ " أجل . . . أجل أفترض ذلك . "

ـ " الى من مررته ؟ "

ـ " أنا . . . لا أتذكر . "

ـ " فكر ، " لم يرفع فيدلر صوته ، لكنه كان يحمل حثاً مفاجئاً أخذ به ليماس على حين غرة .

ـ " الى وكيل المشرف الصحفي حسب ما أعتقد ، لأوضح ما كان يجب إتخاذه من إجراءات أو التوصية به . "

ـ " مَنْ جلب الملف ؟ "

قال ليماس بصوت عالٍ فاقداً التوازن : " ماذا تقصد ؟ "

ـ " مَنْ جلب لكَ الملفَ لتقرأه ؟ لابد وأن جلبه شخص ما ممن هم على

Amly نهضة العرب

القائمة . "

لمست أصابع ليماس خده لوهلة في إشارة عصبية لاإرادية .

ـ " نعم . لابد . كما ترى يا فيدلر ، فإنه أمر صعب . كنت مسرفاً في الشرب في تلك الأيام . "

كانت نبرة صوته توفيقية الى حد غريب . " لا تدرك مدى صعوبة أن . . . "

ـ " أطلب إليك مرة أخرى . فكر . مَنْ جلب لك الملف ؟ "

جلس ليماس على المنضدة وهز رأسه .

ـ " لا أتذكر . قد أسترجع الأمر . في هذه اللحظة ، لا أستطيع أن أتذكر فحسب . حقيقة لا أستطيع . لا فائدة من الإلحاح في الموضوع . "

ـ " لا يمكن أن تكون فتاة المشرف ، أليس كذلك ؟ كنت دائماً تعيد الملف الى وكيل المشرف الصحفي ، أنت قلت هذا . إذن ، لا بد وأن شاهده كل الذين كانوا على القائمة قبل المشرف . "

ـ " أجل . هذا هو . على ما أعتقد . "

ـ " ثم هناك التسجيل الخاص ، الآنسة بريم . "

ـ " كانت المرأة الوحيدة التي تدير الغرفة الحصينة للملفات قائمة المشاركين . ذلك كان مكان حفظ الملف عندما لم يكن في حالة عمل . "

قال فيدلر بهدوء : " إذن ، لا بد وأن جلبه قسم التوابع رقم أربعة ، أليس كذلك ؟ "

قال ليماس يائساً : " أجل . أظن أنه كذلك . " وكأنه لم يكن نداً لذكاء فيدلر .

ـ " في أي طابق كان التوابع رقم أربعة يعمل ؟ "

ـ " الثاني . "

ـ " والمصارف ؟ "

ـ " الرابع ـ الى جوار التسجيل الخاص . "

ـ " هل تتذكر من طلبه ؟ أو هل تتذكر ، مثلاً ، النزول لأخذ الملف منهم ؟ "

وهزّ ليماس رأسه يائساً . ثم استدار فجأة نحو فيدلر وصرخ : " نعم . نعم ، أتذكر ! بالطبع أتذكر ! أخذته من بيتر . " وبدا أن ليماس قد صحا ! فقد تورد وجهه ، وقال فرحاً : " هو كذلك . مرة أخذت الملف من بيتر في غرفته . تحدثنا معاً عن النرويج . فقد خدمنا هناك معاً . كما تعلم . "

ـ " بيتر غيلام ؟ "

Amly نهضة العرب

ـ " نعم ـ بيتر ـ نسيت أمره . كان عائداً من أنقرة قبل بضعة أشهر . كان على القائمة ! كان بيتر بالطبع ! هذا هو الموضوع . كان ذلك قسم التوابع رقم أربعة و ب. غ . بين قوسين ، وهي الأحرف الأولى من إسم بيتر . أحدهم قام بالمهمة من قبل وقد ألصق قسم التسجيل الخاص وريقة بيضاء صغيرة على الإسم القديم ووضع الأحرف الأولى من إسم بيتر . "

ـ " ما هي المنطقة التي كان غيلام يغطيها ؟ "

ـ " المنطقة . المانيا الشرقية . شؤون اقتصادية . كان يدير قسماً صغيراً ، أشبه بالموقع المنعزل . كان هو الشخص المعني ، فقد جلب لي مرةً الملف ، أتذكر ذلك الآن . رغم أنه لم يكن مسؤولاً عن عملاء . ولا أعرف بالضبط كيف دخل الى الموضوع ـ فقد كان بيتر ومعه شخصان آخران يقومون ببحث عن حالات نقص الغذاء . عملية تقييم في الواقع . "

ـ " ألم تناقش الموضوع معه ؟ "

ـ " لا . ذلك أمر محظور . لايجوز مع ملفات المشاركين ، مرة تلقيت محاضرة من المرأة العاملة في التسجيل الخاص عن هذا الموضوع ـ لا مناقشة ، لا أسئلة . "

ـ " لكن ، لو أخذنا في الاعتبار المحاذير الأمنية الشديدة المحيطة بعملية رولنغ ستون ، ممكن ، ألا يمكن أن يكون ما يسمى ببحث غيلام ذا علاقة ، ولو جزئية ، بعمل هذا العميل ، أي رولنغ ستون ؟ "

ـ " لقد سبق أن أخبرت بيترز ، " كاد ليماس أن يصرخ ، ضارباً بعنف قبضته على المنضدة ، وأضاف : " من السخف تماماً تصور حدوث أية عملية ضد المانيا الشرقية دون معرفتي ـ ودون معرفة منظمة برلين . كان يجب أن أعرف ، ألا تفهم ؟ كم مرة علي أن أكرر هذا الكلام ؟ كان لا بد أن أعرف . "

قال فيدلر بهدوء : " صحيح ، بالضبط ، " وأضاف : " بالطبع ، كان لابد أن تعرف . " نهض واتجه الى الشباك . قال : " يجب أن ترى المشهد في الخريف ، " متطلعاً الى الخارج . " يكون المشهد رائعاً عندما تكون أشجار الزان في موسم تغير اللون . "

Amly نهضة العرب

١٣ * دبابيس ومثابك ورق .

كان فيدلر يهوى طرح الأسئلة . أحياناً ، ولأنه كان محامياً ، كان يطرحها لمتعته الخاصة فحسب ، ولإظهار التناقض بين الدليل والحقيقة الكاملة . وكان لديه ، في جميع الأحوال ، ذلك الفضول المتواصل الذي يعد غاية بحد ذاتها لدى الصحفيين والمحامين .

خرجا في نزهة بعد ظهر ذلك اليوم ، متخذين طريق الحصى نزولا الى الوادي ، ثم أتجها الى الغابة على امتداد مسلك واسع منقر يكسوه خشب الأشجار المقطّع . وطوال الوقت ، كان فيدلر يسأل دون أن يعطي شيئاً . يسأل عن البناية في ميدان كيمبرج والناس الذين يعملون هناك . من أية طبقة إجتماعية انحدروا ، وأية أجزاء من لندن سكنوا ، و هل كان الأزواج والزوجات يعملون في نفس الأقسام ؟ سأل عن الأجور والإجازة ، والمعنويات ، والمطعم ، سأل عن حياتهم الخاصة ، وعن نميمتهم ، وفلسفتهم . وقد ألح أكثر من أي شيء آخر في السؤال عن فلسفتهم .

بالنسبة لليماس كان ذلك أكثر الأسئلة صعوبة .

أجاب ليماس : " ماذا تعني ، بفلسفة ؟ " . نحن لسنا ماركسيين . نحن لاشيء . مجرد ناس . "

ـ " إذن ، هل أنتم مسيحيون ؟ "

ـ " ليس كثيراً . لا أظن . أنا لا أعرف الكثير . "

سأل فيدلر باصرار : " ما الذي يجعلهم يفعلونها إذن ؟ لا بد أن تكون لديهم فلسفة . "

أجاب ليماس بشيء من العجز : " لماذا يتحتم عليهم ذلك ؟ ربما كانوا لا يعلمون : أو حتى لا يكترثون . ليس لدى كل شخص فلسفة . "

ـ " قل لي إذن ، ما هي فلسفتك ؟ "

أجاب ليماس بسرعة وحدة : " دعنا من هذا بحق المسيح . " وسارا

Amly نهضة العرب

صامتين برهة . بيد أن فيدلر لم يكن ليصد .

ـ " إذا كانوا لا يعرفون ما يريدون ، كيف يتسنى لهم التأكد بأنهم على صواب ؟ "

أجاب ليماس بانزعاج : " بحق الجحيم ، مَنْ قال إنهم كانوا كذلك ؟ "

ـ " لكن ، ما هو التبرير إذن ؟ ما هو ؟ بالنسبة لنا ، الأمر سهل كما قلت لك الليلة الماضية . فالاستخبارات والمنظمات المشابهة لها هي الامتداد الطبيعي لذراع الحزب . وهي في طليعة النضال من أجل السلام والتقدم . وهي بالنسبة للحزب كالحزب بالنسبة للأشتراكية : هي الطليعة . هكذا قال ستالين " . وابتسم ابتسامة جافة وأضاف : " ليس من المألوف الاستشهاد بستالين ، لكنه قال مرةً : " إن تصفية نصف مليون هي إحصائية ، ومقتل رجل في حادث طريق هو مأساة وطنية . " لقد كان يضحك ، كما ترى ، من حساسية البرجوازية من الجماهير . لقد كان ساخراً كبيراً . لكن ، ما قصده لا يزال صحيحاً : فحركة تحمي نفسها من ثورة مضادة يصعب أن تمنع استغلال أو تصفية عدد قليل من الأفراد يا ليماس ، لم نتظاهر أبداً بأننا عادلون كلياً في عملية عقلنة المجتمع . قال أحد الرومان في الإنجيل ، أليس كذلك ، من الخير أن يموت إنسان واحد من أجل صالح عدد من الناس . "

رد ليماس بقلق : " أتوقع ذلك . "

ـ " اذن ما هو رأيك ؟ ما هي فلسفتك ؟ "

قال ليماس بوحشية . " كل ما أعتقده هو أنكم مجموعة من السفلة . "

أومأ فيدلر برأسه موافقاً وقال : " هذا رأي أتفهمه . إنه رأي بدائي وسلبي وغبي جداً ـ لكنه وجهة نظر ، وهي موجودة . لكن ، ماذا عن بقية الميدان ؟ "

ـ " لا أدري . كيف لي أن أعرف ؟ "

ـ " ألم تناقش الفلسفة معهم يوماً ؟ "

ـ " لا . نحن لسنا من الألمان ، " تردد ، ثم أضاف بطريقة غامضة : " أعتقد أنهم لا يحبون الشيوعية . "

ـ " وذلك ، هل يبرر مثلاً هدر الحياة البشرية ؟ ذلك يبرر القنبلة في المطعم المكتظ ، وذلك يبرر معدل التصفية المرتفع بين العملاء ، كل ذلك ؟ "

هزّ ليماس كتفيه وقال : " أظن ذلك . "

تابع فيدلر : " بالنسبة لنا هذا يبرر . " أنا نفسي كنت سأضع قنبلة في مطعم إنْ كانت ستدفعنا إلى نقطة أبعد على الطريق . بعد ذلك أضبط

Amly نهضة العرب

الموازنة - هذا العدد من النساء ، هذا العدد من الأطفال مقابل هذه المسافة قدماً على الطريق . لكن المسيحيين ، ومجتمعك مجتمع مسيحي ـ قد لا يضبطون الموازنة . "

ـ " لم لا ؟ عليهم الدفاع عن أنفسهم ، أليس كذلك ؟ "

ـ " لكنهم يؤمنون بحرمة الحياة البشرية . ويعتقدون بأن لكل إنسان روحاً يمكن إنقاذها . إنهم يؤمنون بالتضحية . "

ـ " لا أدري . و لا أهتم كثيراً ، " أضاف ليماس : " ستالين هو الآخر لم يهتم ، أليس كذلك ؟ "

ابتسم فيدلر وقال : " أحب الانجليز . " ثم أضاف محدثاً نفسه تقريباً : " وكذلك كان أبي . كان مغرماً بالأنجليز . "

ـ " ذلك يمنحني شعوراً لطيفاً ودافئاً . " . وغرق في صمت .

توقفا في الوقت الذي قدم فيه فيدلر سيجارة الى ليماس وأشعلها له . كانا يتسلقان المرتفع في هذه اللحظة . وقد أحب ليماس التمرين ، وراح يتقدم بخطوات طويلة دافعاً كتفيه الى أمام . تبعه فيدلر ، بخفة ورشاقة ، كأنه كلب صيد خلف سيده .

لابد أنهما قضيا ساعة في المشي ، ربما أكثر ، حين انفرجت الأشجار فوقهما فجأة وظهرت السماء . وصلا الى قمة تل صغير وكان بامكانهما النظر الى كتلة متصلة من أشجار الصنوبر لا يفصلها سوى كتل رمادية من الحور هنا وهناك .

وعبر الوادي ، كان بإمكان ليماس أن يلمح منزل الصيد الواقع أسفل قمة التل المقابل ، منخفض ومظلم إزاء الأشجار . وفي وسط المنطقة المقطوعة الأشجار ، كان هناك منبسط مرتفع من الأرض الى جانب كدس من الجذوع المقطوعة والبقايا الرطبة لنار أعدت من الفحم .

قال فيدلر : " سنجلس قليلاً ، ثم نعود " . صمت ثم أضاف : " قل لي ، هذه الأموال ، هذه المبالغ الضخمة في البنوك الأجنبية ـ ما الغرض منها في رأيك ؟ "

ـ " ماذا تقصد ؟ أخبرتك ، إنها كانت مدفوعات لعميل . "

ـ " عميل من وراء الستار الحديدي ؟ "

أجاب ليماس بضجر : " نعم ، اعتقدت ذلك . "

ـ " ولماذا كان هذا أعتقادك ؟ "

ـ " أولا ، كانت المبالغ كبيرة جداً ، ثم هناك تعقيدات الدفع له ، والأمن الخاص ـ وبالطبع تدخل المشرف . "

Amly نهضة العرب

ـ " وماذا كان يفعل العميل بالنقود في رأيك ؟ "

ـ " إسمع ، أخبرتك ـ لا أدري . ولا أدري حتى إن كان العميل قد أخذ نقوده أم لا . لم أعرف شيئاً ، لم أكن سوى صبي الدائرة الملعون . "

ـ " وماذا كنت تفعل بدفاتر الحساب المصرفية ؟ "

ـ " كنت أسلمها حالما أعود الى لندن ـ مع جوازي المزور . "

ـ " هل سبق وأن كتب لك مصرف كوبنهاجن أو هلسنكي على عنوانك في لندن ـ أقصد باسمك المستعار ؟ "

ـ " لا أدري . أعتقد بأن الرسائل كانت تمر على المشرف مباشرة في كل الأحوال . "

ـ " والتواقيع المزورة التي استخدمتها لفتح الحسابات ـ هل كان لدى المشرف عينة منها ؟ "

ـ " نعم . استخدمتها كثيراً وكانت لديهم عينات . "

ـ " اكثر من واحدة . "

ـ " نعم . صفحات كاملة . "

ـ " فهمت . إذن ، كان بالامكان أن تذهب الرسائل الى المصارف بعد أن تكون قد فتحت الحسابات . لم تكن بحاجة لتعرف . وكان بالامكان تزوير التواقيع وإرسال الرسائل دون علمك . "

ـ " نعم . صحيح . وأعتقد أن هذا هو ما حصل . وقد وقعت الكثير من الأوراق المصرفية كذلك . وكنت أفترض دائماً وجود شخص آخر يهتم بالبريد . "

ـ " لكنك في الواقع لم تعرف مطلقاً مثل هذا البريد ؟ "

هز ليماس رأسه . وقال : " لقد فهمتم الأمر بطريقة خاطئة كليا . فهمتموه دون تناسب . فقد كان هناك الكثير من الورق في حالة دوران ـ كان ذلك مجرد جزء من عمل اليوم . ولم يكن ذلك بالشيء الذي يستحق الكثير من التفكير مني . ولماذا يجب أن أهتم ؟ كان أمراً سرياً ، بيد أنني كنت مشغولاً بأشياء طيلة حياتي حيث لا تعرف إلا القليل وحيث يعرف شخص آخر البقية . بالاضافة الى ذلك ، أشعر بالضجر القاتل من العمل المكتبي . ولا أضيع أية فرصة للنوم خلاله . كنت أحب الرحلات بطبيعة الحال ـ وكنت أنتزع العمل الميداني ، الأمر الذي أعانني . لكنني لم اكن أقضي اليوم كله على منضدتي ، متأملاً في قضية رولنغ ستون ، بالاضافة الى ذلك ، " أضاف بشيء من الخجل : " كنت أشرب قليلاً ، "

علق فيدلر : " هذا ما قلته ، وأنا أصدقك بالطبع . "

Amly نهضة العرب

رد ليماس بغضب : " أنا لا أهتم مثقال ذرة إن كنت تصدقني أم لا . "
ابتسم فيدلر .
قال فيدلر : " أنا سعيد . تلك هي فضيلتك ، تلك فضيلتك الكبيرة . أنها فضيلة اللامبالاة . قليل من الامتعاض هنا وقليل من الزهو هناك ، لكن ذلك لا شيء : مثل تشوهات جهاز التسجيل . فأنت موضوعي . وقد خطر لي ، " استمر فيدلر بعد صمت قصير : " أن بإمكانك مساعدتنا في التثبت إن كان أي جزء من تلك الأموال قد سحب أم لا . و ليس هناك ما يمنعك من الكتابة الى كل مصرف وطلب بيان بالموجودات . تستطيع القول إنك كنت تقيم في سويسرا ، تستخدم عنوان سكن ، هل لديك اعتراض على ذلك ؟ "
ـ " قد تنجح . ويعتمد الأمر على ما اذا كان المشرف على اتصال مستقل بالمصرف بواسطة توقيعي المزور . قد لا تفيد هنا . "
ـ " أرى اننا لا نملك الكثير لنخسره . "
ـ " وماذا تكسبون ؟ "
ـ " إذا كانت النقود قد سحبت ، وهو أمر أتفق على أنه مثير للشك ، سنعرف مكان وجود العميل في يوم معين . إن معرفة ذلك يبدو شيئاً مفيداً . "
ـ " أنت تحلم يا فيدلر ، فلن تجده ، ليس بهذا النوع من المعلومات . ما أن يكون في الغرب ، فإنه يستطيع الذهاب الى أية قنصلية حتى ولو في مدينة صغيرة ويحتصل على تأشيرة دخول لبلد آخر . كيف يزيد ذلك من معلوماتك ؟ أنت لاتعرف حتى إن كان الرجل ألمانياً شرقياً أم لا . ما الذي ترمي اليه ؟ "
لم يرد فيدلر مباشرة . كان يحدق على غير هدى عبر الوادي .
ـ " قلت إنك معتاد على معرفة القليل فقط ، ولا أستطيع الإجابة على سؤالك دون إبلاغك بما لا يجب أن تعرفه ، " قال متردداً وأضاف ، " بيد أن رولنغ ستون كانت عملية موجهة ضدنا ، أؤكد لك ذلك . "
ـ " ضدنا ؟ "
ابتسم : " المانيا الديمقراطية . القطاع أن أحببت . لست حساساً جداً في الواقع . "
كان يراقب فيدلر في تلك اللحظة ، و قد وقعت عيناه السوداوان عليه ، متأملاً فيه .
سأل ليماس : " لكن ، ماذا عني ؟ إفرض أنني لا أكتب الرسائل ؟ "

Amly نهضة العرب

بدأ صوته بالتصاعد ، " ألم يحن الوقت يا فيدلر للحديث عني ؟ "

أومأ فيدلر برأسه ثم أجاب موافقاً : " لم لا ؟ "

ساد صمت قصير ثم قال ليماس : " أديت ما عليّ يا فيدلر ، فقد حصلت أنت وبيترز على كل ما أعرف . لم أتفق معك مطلقاً على كتابة رسائل الى المصارف ـ شيء مثل ذلك كان يمكن أن يكون في غاية الخطورة . وأنا أعلم أن ذلك لا يقلقك . وقدر تعلق الأمر بك ، فأنت مستعد للتضحية بها . "

أجاب فيدلر : " الآن ، لأكن صريحاً . هناك ، كما تعلم ، مرحلتان في التحقيق مع منشق . المرحلة الأولى أنجزت تقريباً بالنسبة لقضيتك : فقد أخبرتنا بكل ما نستطيع تسجيله بصورة معقولة وإن لم تخبرنا إن كانت دائرة استخباراتك تفضل الدبابيس أم مشابك الورق ، لأننا لم نسألك ولأنك لم تعتبر الجواب يستحق التطوع في الاجابة عليه . هناك عملية اختيار غير واع من الجانبين . والآن من الممكن دائماً ـ وهذا هو الشيء المقلق يا ليماس ، من الممكن دائماً وكلياً أننا خلال شهر أو شهرين سنحتاج بصورة غير متوقعة وماسة جداً الى أن نعرف عن الدبابيس ومشابك الورق . وذلك أمر محسوب بصورة عادية في المرحلة الثانية ـ ذلك الجزء من الصفقة الذي رفضت قبوله في هولندا . "

ـ " تقصد أنك ستحتجزني ؟ "

لاحظ فيدلر بابتسامة : " إن مهنة المنشق تتطلب صبراً كبيراً . وإن عدداً قليلاً جداً مؤهل لذلك بدرجة مناسبة . "

أصر ليماس : " الى متى ؟ "

وكان فيدلر صامتاً .

ـ " اذن ؟ "

تحدث فيدلر بعجالة مفاجئة وقال : " أعدك أن يكون بأسرع ما أستطيع ، سأبلغك بالجواب على سؤالك ، إسمع ـ بامكاني الكذب عليك ، أليس كذلك ؟ أستطيع القول خلال شهر أو أقل ، لمجرد تشجيعك ، ولكني أقول لك لا أدري ، لأن تلك هي الحقيقة ، فقد أعطيتنا بعض المؤشرات : والى أن نصل الى مصدرها ، لا يمكنني الاصغاء الى حديث عن إخلاء سبيلك . لكن ، بعد ذلك ، اذا ما كانت الأمور كما أعتقد ، ستحتاج الى صديق وذلك الصديق هو أنا . أعدك كألماني . "

فوجيء ليماس بحيث أنه ظل صامتاً للحظة .

وأخيراً قال : " حسنا ، سألعب يا فيدلر ، لكن ، إن كنت تخدعني ،

Amly نهضة العرب

فأنني سأكسر عنقك بطريقة ما . "

أجاب فيدلر بهدوء : " قد يكون ذلك غير ضروري . "

إن إنساناً يلعب دوراً ، ليس مع الآخرين بل لوحده ، يكون عرضة لمخاطر سايكولوجية واضحة . فممارسة الخداع ، بحد ذاتها ، لا تتطلب الكثير من البراعة الخاصة ، إنها مسألة خبرة ، خبرة مهنية ، إنها مهارة يستطيع معظمنا اكتسابها . لكن ، في الوقت الذي يستطيع فيه محتال سلب الناس أموالهم بعد كسب ثقتهم ، أو ممثل أو مقامر العودة من عرضه الى صفوف معجبيه ، فأن العميل السري لا يتمتع بمثل هذه الراحة . وبالنسبة له فان الخداع هو قضية دفاع عن النفس أولاً . ويجب أن يحمي نفسه ليس من الخارج فحسب بل من الداخل كذلك ومن معظم الدوافع الطبيعية : فرغم أنه يكسب ثروة ، فإن دوره قد يمنعه من شراء شقرة حلاقة ، ورغم كونه واسع المعرفة ، فقد يجبر على أن يتمتم بلا شيء سوى التفاهات ، ورغم كونه زوجاً وأبا عطوفاً ، فإن عليه في كل الأحوال أن يسدل حجاباً بينه وبين أولئك الذين تحتم الطبيعة عليه الوثوق بهم .

ولكونه مدركاً للمغريات الجارفة التي تباغت الرجل الذي يعيش في عزلة خداعه الدائمة ، لجأ ليماس الى المسار الذي كان يحميه بأفضل صورة ، فحتى عندما يكون وحيدا ، فإنه يجبر نفسه على العيش مع الشخصية التي كان قد تقمصها . يقال أن بلزاك تساءل بشوق ، وهو على فراش الموت ، عن صحة وأحوال الشخصيات التي كان قد ابتكرها . وبالمثل ، وجد ليماس ، دون التخلي عن قدرته على الأختراع ، نفسه مع ما كان قد أخترعه . فلم تكن الصفات التي عرضها على فيدلر والشك القلق والغطرسة الدفاعية التي تخفي الخجل ، لم تكن سوى امتدادات لصفات كان يمتلكها بالفعل ، ومن هنا جاء السحب الخفيف للأقدام ، صورة الاهمال الشخصي ، عدم المبالاة بالطعام ، واعتماد مثير و متزايد على الكحول والتبغ . وعندما كان لوحده ، ظل ملتزماً بهذه العادات . حتى أنه كان يبالغ فيها قليلاً ، متمتماً مع نفسه بخطايا دائرته .

ونادراً جداً فقط ، كما هي الحال الآن وهو يهم بالنوم ، كان يسمح لنفسه بالتمتع الخطير بالاعتراف بالكذبة الكبرى التي عاشها .

كان المشرف على صواب بدرجة استثنائية . فقد كان فيدلر يسير كرجل مقاد في نومه ، الى الشبكة التي نشرها له المشرف . وكان من الغريب مراقبة التطابق المتناهي في اهتمامات فيدلر والمشرف : وكأنهما أتفقا على نفس الخطة التي أرسل ليماس لتنفيذها .

Amly نهضة العرب

ربما كان ذلك هو الجواب . ربما كان فيدلر هو الاهتمام الخاص الذي قاتل المشرف من أجل الاحتفاظ به بكل قوة . لم يتوقف ليماس عند هذا الاحتمال . ولم يرغب في أن يعرف . ففي قضايا من ذلك النوع ، كان غير ميّال الى التساؤل كلياً . كان يعرف أن لا خير يمكن أن يأتي من استنتاجاته . مع ذلك ، تمنى من الله أن يكون ذلك صحيحاً . كان من الممكن ، الممكن فقط في تلك الحالة ، أن يعود الى الوطن .

Amly نهضة العرب

١٤ * رسالة الى زبون

كان ليماس ما يزال في الفراش في الصباح التالي عندما جلب له فيدلر الرسائل كي يوقعها . واحدة كانت على ورق الكتابة الأزرق الخفيف لفندق سيلر بتنبلك ، بحيرة سبايز ، سويسرا ، والأخرى من بالاس هوتيل ، غستاد .

قرأ ليماس الرسالة الأولى :

الى السيد المدير :

المصرف الأسكندنافي الملكي المحدود ، كوبنهاجن .

سيدي العزيز ..

أنا في حالة سفر منذ بضعة أسابيع ولم أستلم أي بريد من انجلترا . ونتيجة لذلك ، لم أتلق جوابكم على رسالتي المؤرخة في الثالث من آذار التي أطلب فيها بياناً بالموجود من الحساب المدّخر الذي أتقاسمه مع السيد كارلزدورف ، ولتفادي المزيد من التاخير ، أرجو التفضل بارسال نسخة مصورة لي على العنوان التالي حيث سأقيم لمدة أسبوعين ابتداءً من الحادي والعشرين من نيسان :

عناية ي . دوسانجلوت ،

١٣ شارع دي كولومبس ،

باريس ١٢

فرنسا ..

أعتذر عن هذا الإرباك

المخلص (روبرت لانج)

Amly نهضة العرب

سأله ليماس : " ما كل هذا عن رسالة الثالث من آذار ؟ أنا لم أكتب لهم أية رسالة . "

ـ " لا ، لم تكتب . قدر علمنا ، لم يكتب أحد . ذلك سيقلق المصرف . وإذا ما كان هناك أي تضارب بين الرسالة التي نبعث بها اليهم الآن والرسائل التي تلقوها من المشرف ، فإنهم سيفترضون إيجاد الحل في رسالة الثالث من آذار المفقودة . وسيكون رد فعلهم هو إرسال البيان كما تطلب ، مع رسالة تفسير يأسفون فيها لعدم استلامهم رسالتك المؤرخة في الثالث من آذار . "

وكانت الرسالة الثانية مماثلة للأولى ، إلا أن الأسماء كانت مختلفة . وكان العنوان في باريس نفسه . تناول ليماس ورقة بيضاء وقلمه الحبر وكتب ست مرات بيد رشيقة " روبرت لانج " ثم وقع بالحرف الأول . وبعد أن أحنى قلمه الى وراء ، تدرب على التوقيع الثاني الى أن أقتنع به ، ثم كتب " ستيفن بينت " في ذيل الرسالة الثانية .

قال فيدلر : " رائع ، رائع جداً . "

ـ " ماذا نفعل الآن ؟ "

ـ " ستصل الى سويسرا غداً ، في أنترليكن وغستاد . وسيبرق جماعتنا في باريس بالردود لي حالما تصل الرسائل . سنحصل على الجواب في غضون أسبوع . "

ـ " وحتى ذلك الحين ؟ "

ـ " سنكون برفقة بعضنا البعض دائماً . أعرف أن هذا أمر ممقوت لديك وأنا أعتذر . اعتقدت أن بإمكاننا الخروج في نزهات والسباقة في التلال قليلاً ، نقتل الوقت . أريدك أن تسترخي وتتكلم ، تتكلم عن لندن ، عن ميدان كيمبرج والعمل في القسم ، أخبرني عن القيل والقال ، تحدث عن الأجور والإجازة ، والغرف ، والورق والناس . الدبابيس ومشابك الورق . أريد أن أعرف كل الأشياء الصغيرة التي لا تهم . وبالمناسبة . . . " حدث تغير في النبرة .

ـ " نعم ؟ "

ـ " لدينا تسهيلات هنا للناس الذين . . . للناس الذين يقضون بعض الوقت معنا . تسهيلات للتسلية وما الى ذلك . "

سأل ليماس : " هل تعرض عليّ امرأة ؟ "

ـ " نعم . "

ـ " لا ، شكراً . أنا ، بخلافك ، لم أصل المرحلة التي أحتاج بها الى فوّاد . "

Amly نهضة العرب

بدا فيدلر غير مكترث لرده . وأستمر بسرعة قائلاً : " لكن ، كانت لديك امرأة في إنجلترا ، أليس كذلك ؟ الفتاة في المكتبة ؟ "

استدار ليماس نحوه ويداه مفتوحتان عند جانبيه . صرخ : " شيء واحد . ذلك الشيء فقط ـ لا تذكر ذلك مرة أخرى ، ليس كنكتة وليس كتهديد ولا حتى لشد الحبال يا فيدلر ، لأن ذلك لن ينفع ، لن ينفع أبداً ، سأجف ، أتفهم ، ولن تحصل أبداً على أية كلمة لعينة أخرى مني طالما حييت يا فيدلر ، أبلغهم ذلك ، أبلغ مندت وستامبيرجر وأي صعلوك آخر ، أخبرك بأن تقول هذا ـ أبلغهم بما قلت . "

أجاب فيدلر : " سأبلغهم . سأبلغهم . ربما فات الأوان . "

بعد الظهر ، خرجا للتمشي مرة أخرى . كانت السماء مظلمة ومنذرة بالمطر ، والهواء دافئاً .

لاحظ فيدلر عرضياً : " زرت إنجلترا مرة واحدة فقط . كان ذلك في طريقي الى كندا مع والديّ قبل الحرب . كنت طفلاً حينذاك بالطبع . وبقينا هناك ليومين . "

أومأ ليماس برأسه .

واصل فيدلر : " أستطيع أن أؤكد لك الآن . وكدت أن أعود اليها بعد سنوات قليلة . كنت سأحل محل مندت في مفوضية الحديد والصلب ـ هل كنت تعلم أنه كان في لندن مرة ؟ "

قال ليماس بايجاز : " كنت أعرف . "

ـ " كنت أتساءل دائماً ماذا يمكن أن تكون عليه تلك الوظيفة . "

ـ " اللعبة المعتادة في الاندماج مع المفوضيات الأخرى ، على ما أظن . نوع من الاتصال مع شركات بريطانية ـ ليس الكثير من ذلك " . بدا ليماس ضجرا .

ـ " لكن مندت تدبر الأمر . فقد وجده في غاية السهولة . "

قال ليماس : " هذا ما بلغني ؛ حتى أنه تمكن من قتل شخصين . "

ـ " إذن ، سمعت عن ذلك أيضاً ؟ "

ـ " من بيتر غيلام . كان متابعاً لها مع جورج سمايلي وكاد مندت أن يقتل جورج كذلك . "

قال فيدلر متأملاً : " قضية فينان . كان أمراً مدهشاً أن ينجح مندت في الهرب كلياً ، أليس كذلك ؟ "

ـ " أظن ذلك ؟ "

Amly نهضة العرب

قال ليماس : " لا تظن بأن رجلاً وضعت صورته ومتعلقاته الشخصية في ملف في وزارة الخارجية كعضو في مفوضية أجنبية يمكن أن تكون له فرصة مقابل جهاز الأمن البريطاني بأكمله . مما يتناهى الى سمعي أنهم لم يكونوا تواقين جداً للامساك به على أية حال " .

نهض فيدلر فجأة وسأل : " ماذا قلت ؟ "

ـ " أخبرني بيتر غيلام بأنه لم يعتقد بأنهم أرادوا الإمساك بـ مندت ، هذا كل ما قلت ـ في وقتها كانت لنا تركية مختلفة ـ مستشار ، بدلاً من السيطرة على العمليات ـ رجل يدعى ماستن . كان ماستن قد تسبب في فوضى مزعجة في قضية فينان منذ البداية ، ذلك ما قاله غيلام . وحسب بيتر بأنه لو ألقوا القبض على مندت لحدثت فضيحة ـ لكانوا قد حاكموه وربما شنقوه . الوساخة التي ظهرت في العملية كانت ستقضي على مهمة ماستن . لم يعرف بيتر أبداً ما حدث بالضبط ، لكنه كان متأكداً تماماً من عدم وجود بحث شامل عن مندت . "

ـ " هل أنت متأكد من ذلك ، متأكد من أن غيلام أخبرك بذلك بعدد من الكلمات ؟ عدم وجود بحث شامل ؟ "

ـ " بالطبع أنا متأكد . "

ـ " ولم يوح غيلام مطلقاً بأي سبب آخر دفعهم الى ترك مندت يفلت ؟ "

ـ " ماذا تقصد ؟ "

هز فيدلر رأسه واستمرا في المشي على طول الممر .

علّق فيدلر بعد لحظة : " أغلقت مفوضية الحديد والصلب بعد قضية فينان . هذا هو سبب عدم ذهابي . "

ـ " لابد أن مندت كان مجنوناً . قد تتمكن من الإفلات بعد عملية اغتيال في دول البلقان ـ أو هنا ـ لكن ، ليس في لندن . "

تدخل فيدلر بسرعة : " رغم ذلك تمكن من الإفلات ، أليس كذلك ؟ وأنجز عملاً جيداً . "

ـ " مثل تجنيد كيفير وآش ؟ ساعده الله . "

ـ " لقد استطاعا تشغيل امرأة قضية فينان زمناً طويلاً . "

هزّ ليماس كتفيه .

بدأ فيدلر مرة أخرى : " قل لي شيئاً آخر عن كارل رايماك . قابل المشرف مرة ، أليس كذلك ؟ "

ـ " أجل ، في برلين قبل حوالي سنة ، ربما أكثر بقليل . "

ـ " أين تقابلا ؟ "

Amly نهضة العرب

ـ " تقابلنا جيعاً في شقتي . "
ـ " لماذا ؟ "
ـ " كان المشرف يحب أن يكون له دور في النجاح ـ فقد حصلنا على كم كبير من المعلومات الجيدة من كارل ـ أعتقد أن الأمر لقي قبولاً جيداً في لندن . وصل في سفرة قصيرة الى برلين وطلب مني تحديد موعد للقاء بهم . "
ـ " هل اعترضت ؟ "
ـ " ولماذا أعترض ؟ "
ـ " كان عميلك . و ربما لم ترغب في أن يقابل عملاء آخرين . "
ـ " المشرف ليس عميلاً . إنه رئيس قسم . وكان كارل يعرف ذلك وقد داعب هذا غروره . "
ـ " هل كتتم أنتم الثلاثة معاً طوال الوقت ؟ "
ـ " أجل ، ليس بالضبط . تركتهما حوالي ربع ساعة أو شيء قريب من هذا ـ ليس أكثر . المشرف أراد ذلك . طلب بضع دقائق منفردة مع كارل ، الله يعلم لماذا ، لذلك تركت الشقة متذرعاً بعذر ، نسيته . أوه ـ تذكرت ـ تظاهرت بأن الويسكي الذي كان لدينا سينفد . وذهبت بالفعل وجلبت قنينة من دي يونغ . "
ـ " هل تعرف ما دار بينهما أثناء غيابك ؟ "
ـ " وكيف لي أن أعرف ؟ وعلى أية حال ، لم يكن الموضوع يثير اهتمامي . "
ـ " ألم يخبرك كارل بعد ذلك ؟ "
ـ " لم أسأله . كان كارل صفيقاً بطريقة ما ، يتظاهر دائماً بأنه يمتلك شيئاً يتفوق به عليّ . لم أحب الطريقة التي كان يضحك بها على المشرف خفية . هل تفهم ، كان لديه كل الحق في أن يسخر ـ وكان يؤدي أداءً مضحكاً جداً . ضحكنا معاً حول الموضوع قليلاً في الواقع . ولم يكن هناك أي معنى في مداعبة غرور كارل ، كان من المفروض أن يهدف اللقاء الى تلقين كارل درساً . "
ـ " هل كان كارل مبتسماً في حينها ؟ "
ـ " لا . على العكس . كان مدللاً في الأساس . فقد كان يحصل على أجور كثيرة ، وكان محبوباً كثيراً ، وموثوقاً به كثيراً . كنت أتحمل جزءاً من الخطأ وتتحمل لندن الجزء الآخر . فلو لم ندلله لما أخبر امرأته التعيسة تلك عن شبكته . "

Amly نهضة العرب

ـ " ألفيرا ؟ "
ـ " أجل . "
سارا صامتين فترة ، الى أن قطع فيدلر حلم يقظته ليقول : " بدأت أحبك . لكن هناك شيئاً واحداً يحيرني . ومن الغريب ـ إنه لم يقلقني قبل أن أقابلك . "
ـ " ما هو ذلك ؟ "
ـ " لِمَ أتيت . لِمَ ارتددت ؟ " كان ليماس على وشك قول شيء ما عندما ضحك فيدلر وقال : " أخشى أن السؤال لم يكن مهذباً ، أليس كذلك ؟ "

أمضيا ذلك الأسبوع يتمشيان في التلال . وفي الأمسيات ، يعودان الى المنزل ويتناولان وجبة سيئة تزدرد بمساعدة قنينة من الخمر الأبيض العفن ، ويجلسان زمناً طويلاً على أريكة أمام النار . بدت النار من مقترحات فيدلر ـ فلم تكن هناك في البداية ، وفي أحد الأيام ، سمع ليماس فيدلر وهو يبلغ أحد الحراس بجلب الخشب . ولم يعترض ليماس على الأمسيات آنذاك ، وبعد الهواء النقي طوال اليوم ، والنار والمشروبات السيئة ، كان يتحدث دون أن يحثه أحد ، متحدثاً على غير هدى عن دائرته . وظن ليماس أن الحديث كان يسجل . لكنه لم يكترث .
بمرور كل يوم على هذا المنوال ، كان ليماس يشعر بتوتر متزايد لدى رفيقه . وفي إحدى المرات ، خرجا في سيارة الـ دي . كي . دبليو ، وكان الوقت متأخراً في المساء ـ وتوقفا عند كشك هاتف . تركه فيدلر في السيارة وفيها المفاتيح وأجرى مكالمة هاتفية طويلة . وعندما عاد سأله ليماس : " لماذا لم تتصل في البيت ؟ " بيد أن فيدلر لم يفعل شيئاً سوى أنه هز رأسه نفياً . وأجاب ، " يجب أن نحذر ، وأنت كذلك يجب أن تحذر . "
ـ " لماذا ؟ ما الذي يجري ؟ "
ـ " النقود التي أودعتها في مصرف كوينهاجن ـ كتبنا لهم ـ تتذكر؟ "
ـ " بالطبع أتذكر ؟ "
لم يقل فيدلر شيئاً بعد ذلك ، لكنه استمر في السياقة صامتاً باتجاه التلال حيث توقفا . وتحتهما ، تقع نقطة التقاء واديين كبيرين تحجبها جزئياً كتلة خليطة من أشجار الصنوبر الطويلة . وقد سلمت التلال المنحدرة المغطاة بالأشجار على الجانبين ألوانها للغسق المتجمع حيث كانت تقف شاحبة لا حياة فيها لحظة الشفق .

Amly نهضة العرب

قال فيدلر : " مهما يحدث ، لا تقلق . سيكون الأمر على ما يرام . أتفهم ؟ " كان صوته مثقلاً بالتشديد ، وقد وضع يده النحيفة على ذراع ليماس . " قد تحتاج الى الاهتمام بنفسك قليلاً ، لكن الأمر لن يستمر طويلاً ، " وسأله مرة أخرى : " أتفهم ؟ "

ـ " لا . وطالما لن تخبرني ، سيكون عليّ أن انتظر وأرى . فيدلر، لا تقلق كثيراً بشأني . " حرك ذراعه ، لكن يد فيدلر ظلت ممسكة به . وكان ليماس يكره أن يلمسه أحد .

سأل فيدلر : " هل تعرف مندت ؟ هل تعرف شيئاً عنه ؟ "

ـ " لقد تحدثنا عن مندت . "

كرر فيدلر : " نعم ، لقد تحدثنا عنه . يرمي أولاً ثم يطرح أسئلة بعد ذلك . مبدأ الردع . إنه نظام غريب في مهنة يفترض فيها دائماً أن تكون الأسئلة أكثر أهمية من إطلاق النار . "

أدرك ليماس ما كان فيدلر يريد إبلاغه به . واستأنف فيدلر كلامه هامساً : " إنه نظام غريب ما لم تكن مرتعباً من الإجابات . "

إنتظر ليماس . وبعد لحظة قال فيدلر : " لم يعتد التحقيق من قبل . وقد تركه لي دائماً . واعتاد أن يقول لي : " جنز ، أنت تحقق معهم ، لا أحد يستطيع أن ينجزه مثلك . سأمسكهم وأنت تجعلهم يغردون . " وقد اعتاد القول بأن الناس العاملين في المخابرات المضادة مثل الصباغين ـ فهم بحاجة الى رجل يحمل مطرقة خلفهم ليضرب عندما يكونوا قد أنهوا عملهم ، وإلاّ فإنهم ينسون ما يحاولون إنجازه . " سأكون مطرقتك ، " هكذا كان يقول لي . كانت نكتة فيما بيننا في البداية ، ثم بدأت تقتلني . وعندما بدأ يقتل ، يقتلهم قبل أن يغردوا كما قلت بالضبط : واحد هنا وآخر هناك ، مقتول أو مذبوح ـ سألته ، توسلت اليه : " لماذا تلقي القبض عليهم ؟ لماذا لا تدعهم لدي شهراً أو شهرين ؟ ما فائدتهم لك عندما يكونون أمواتاً ؟ " كان يهز رأسه فحسب ويقول إن هناك قانوناً مفاده أن الأشواك يجب أن تقطع قبل أن تزهر . كان لدي شعور بأنه أعدّ الجواب حتى قبل أن أطرح السؤال . إنه عامل جيد ، جيد جداً ، لقد فعل العجائب في قسم الاستخبارات . وأنت تعرف ذلك . وكانت لديه نظريات عن القسم . تحدثت إليه في وقت متأخر من الليل . لا يشرب سوى القهوة ـ لا شيء آخر ـ فهوة فقط طوال الوقت . ويقول إن الألمان يبالغون في الاستبطان بحيث لايمكن تحويلهم إلى عملاء جيدين ، ويظهر كل ذلك في الاستخبارات المضادة . ويقول إن العاملين في الاستخبارات المضادة هم مثل الذئاب التي تفرض عظاماً يابسة ـ عليك أن

Amly نهضة العرب

تبعد العظام وتجبرهم على ايجاد طريدة جديدة . أدرك كل ذلك وأعرف ما يقصد . لكنه ذهب بعيداً جداً . لماذا قتل فيريك ؟ لماذا أبعده عني ؟ كان فيريك طريدة جديدة ، ولم نكن قد فصلنا اللحم عن العظم بعد ، كما ترى . إذن ، لماذا أخذه ؟ ليماس ، لماذا ، لماذا ؟ " كانت اليد الموضوعة على ذراع ليماس تقبض عليها بشدة . وفي الظلمة الكاملة لداخل السيارة كان ليماس مدركاً للكثافة المرعبة لعواطف فيدلر .

فكرت في الموضوع ليل نهار . ومنذ مقتل فيريك وأنا أبحث عن سبب . في البداية ، بدت القضية رائعة . قلت لنفسي إنني كنت غيوراً ، وإن أساليب العمل تقمصتني ، وبأنني كنت أرى الخيانة وراء كل شجرة . لدينا شيء كهذا ، أناس في عالمنا . وإن لم أستطع منع نفسي يا ليماس . كان عليّ أن أفهمها . فقد كانت هناك أشياء أخرى قبلها . كان خائفاً ـ خائفاً من أن يقع في أيدينا مَنْ يتكلم كثيراً ! "

قال ليماس : " ماذا تقول ؟ لقد جننت ، " وقد شاب صوته خيط من الخوف .

ـ " الخيوط مربوطة ، كما ترى . فقد هرب مندت بسهولة بالغة من إنجلترا . أنت أخبرتني بنفسك . وماذا قال لك غيلام ؟ قال إنهم لم يرغبوا في الإمساك به ! لماذا ؟ سأقول لك لماذا ـ كان رجلهم . لقد حولوه . أمسكوا به ، ألا تفهم ، وكان ذلك ثمن حريته ـ ذلك بالإضافة إلى المال الذي دفعوه . "

قال ليماس مستهجناً : " أقول إنك جننت . سيقتلك إذا عرف بأنك تقوم بهذا النوع من العمل . فيدلر ، إن هذا مثل حلوى الـ كراميل . إخرس وعد بنا الى البيت . " وأخيراً أرخت القبضة على ذراع ليماس .

ـ " هذا ما أنت مخطىء فيه . فقد قدمت الجواب بنفسك يا ليماس . وهذا هو سبب حاجتنا لبعضنا . "

صرخ ليماس : " ليس صحيحاً . لقد أخبرتك مرات ومرات أنه ما كان بإمكانهم فعلها . وما كان بامكان الميدان أن يوظفه ضد المنطقة دون علمي . لم يكن الأمر مجرد إمكانية إدارية . تحاول أن تقول لي إن المشرف كان يوجه نائب رئيس الاستخبارات دون علم محطة برلين . أنت مجنون يا فيدلر . أنت فاقد تماماً لعقلك . " فجأة ، بدأ بالضحك بهدوء . " قد تكون راغباً في منصبه . أنت أيها الوغد البائس ، وهذا ليس بالشيء الغريب ، كما تعرف ، لكن أموراً كهذه لم تعد شائعة . " ولم يتحدث أي منهما فترة .

قال فيدلر : " تلك النقود ، في كوبنهاجن . أجاب المصرف على

Amly نهضة العرب

رسالتك . المدير قلق جداً خشية وجود خطأ . فقد سحب شريكك في التوقيع المبلغ بعد أسبوع واحد فقط من إيداعها . ويتصادف تاريخ سحبها مع زيارة لمدة يومين قام بها مندت الى الدنمارك في شهر شباط . وقد سافر الى هناك تحت إسم مستعار لمقابلة عميل أمريكي لنا كان يحضر مؤتمراً علمياً عالمياً . " تردد فيدلر ثم أضاف : " اعتقد أن عليك الكتابة الى المصرف وإخبارهم بأن كل شيء على ما يرام . "

Amly نهضة العرب

١٥ * دعوة الى نزهة

نظرت لز الى الرسالة القادمة من مركز الحزب وتساءلت عن مضمونها . وجدتها محيرة قليلاً . كان عليها أن تقر بأنها كانت فرحة ، لكن لماذا لم يستشيروها أولاً ؟ هل قدمت لجنة المقاطعة إسمها ، أم أنه كان من خيار المركز ؟ لكن ، لا أحد يعرفها في المركز قدر إدراكها . كانت قد قابلت متحدثين غرباء بالطبع ، وصافحت في مؤتمر المقاطعة منظم الحزب . ربما تذكرها ذلك الرجل من العلاقات الثقافية ـ ذلك الرجل الأشقر المتخنث الذي كان كثير المداهنة والتملق . آش ، ذلك كان إسمه . لقد اهتم بها قليلاً وافترضت أن يكون هو الذي قدم إسمها ، أو تذكرها عندما وردت الزمالة . كان رجلاً غريب الأطوار . أخذها الى مقهى " بلاك أند وايت " لتناول القهوة بعد الاجتماع وسألها عن أصدقائها من الرجال . لم يكن عاشقاً أو أي شيء ـ اعتقدت أنه كان شاذاً الى حد ما ، إن أرادت الصدق ، لكنه سألها عدداً كبيراً من الأسئلة عن نفسها . كم مضى عليها في الحزب ، هل تشعر بالغربة وهي تعيش بعيداً عن أبويها ؟ هل كان لديها عدد كبير من الأصدقاء ؟ هل كان هناك صديق واحد أستحوذ على مشاعرها ؟

لم تهتم له كثيراً ، بيد أن حديثه كان مستساغاً تماماً ـ دولة العمال في جمهورية المانيا الديمقراطية ، مفهوم الشاعر ـ العامل وكل ذلك . بالتأكيد كان يعرف كل شيء عن أوربا الشرقية ، لابد وأنه سافر كثيراً .

خمنت بأنه كان مدير مدرسة ، فقد كان يتسم بتلك النبرة التعليمية اللبقة الى حد ما . وبعد ذلك ، كانوا يقومون بجمع تبرعات لصندوق النضال ، وقد وضع فيه آش جنيهاً واحداً . دهشت تماماً . ذلك ما كان ، فقد تأكدت الآن . آش هو الذي تذكرها . وأبلغ شخصاً ما في مقاطعة لندن وقامت المقاطعة بابلاغ المركز أو شيء من هذا القبيل . بدت لها طريقة مضحكة في

Amly نهضة العرب

تسيير الأمور ، لكن الحزب كان دائماً ميالاً الى السرية ـ كان ذلك جزءاً من كونه حزباً ثورياً ، هذا ما ظنته . لم تعجبها السرية كثيراً ، وجدت فيها شيئاً من عدم الأمانة . لكنها افترضت أنها كانت ضرورية ، والله أعلم ، أن هناك عدداً كبيراً ممن أبعدوا من الحزب لعدم التزامهم السرية .

قرأت الرسالة مرة أخرى . كانت مكتوبة على ورق كتابة المركز ، المميز بالكتابة المطبوعة الحمراء في أعلاه والتي كانت تبدأ بـ " رفيقتي العزيزة " . بدت الرسالة عسكرية محضة ، وقد كرهت ذلك . لم تعتد أبداً عبارة " رفيقتي العزيزة . "

رفيقتي العزيزة :

كانت لنا في الفترة الأخيرة مناقشات مع رفاقنا في حزب الوحدة الاشتراكي لجمهورية المانيا الديمقراطية حول إمكانية إجراء تبادلات فعالة بين أعضاء الحزب هنا ورفاقنا في المانيا الديمقراطية . والهدف هو خلق حركة تبادل على مستوى القاعدة بين حزبينا . إن حزب الوحدة الاشتراكي يدرك أن إجراءات التمييز الحالية التي تمارسها وزارة الداخلية البريطانية تجعل من غير المحتمل أن يتمكن مندوبوهم من القدوم الى المملكة المتحدة في المستقبل القريب ، لكنهم يشعرون أن تبادل الخبرات يزداد أهمية لهذا السبب . وقد وجهوا لنا دعوة سخية لترشيح خمس سكرتيرات من الفروع ممن لديهن خبرة جيدة وسجل جيد في تشجيع العمل الجماهيري على مستوى الشارع . وستقضي كل رفيقة منتخبة ثلاثة أسابيع تحضر خلالها مناقشات الفرع ، ودراسة التقدم في الصناعة والرفاة الإجتماعي والمشاهدة المباشرة للاستفزاز الغربي الفاشستي . وهذه فرصة كبيرة لرفاقنا للإفادة من تجارب نظام اشتراكي فتي .

لذلك ، طلبنا من المقاطعة ترشيح أسماء عمال شباب من الكادر في مناطقكم ممن قد يستفيدون من أفضل امتيازات الرحلة ، وقد تم ترشيح إسمك . نرغب في أن تذهبي ، إذا كان ذلك ممكناً ، وتنفذي الجزء الثاني من الخطة ـ ألا وهو إقامة اتصال مع فرع حزبي في جمهورية المانيا الديمقراطية يكون أعضاؤه من خلفيات صناعية مماثلة ولديهم نفس النوع من المشاكل التي لديكم . ولقد وضعنا فرع منطقة بيزوتر ساوث مقابل فرع نوفينهيجن وهي ضاحية من ضواحي لايبزج . وتقوم فريدا لومان ، وهي سكرتيرة نوفينهيجن ، بإعداد استقبال كبير . ونحن واثقون من أنك الرفيقة المناسبة للمهمة ، وأن ذلك سيكون نجاحاً رائعاً . وستقوم الدائرة الثقافية في جمهورية ألمانيا الديمقراطية بدفع كافة النفقات .

Amly نهضة العرب

ونحن واثقون من أنك تقدرين هذا الشرف الكبير ، وواثقون بأنك لن تسمحي للاعتبارات الشخصية بمنعك من القبول . ومن المقرر أن تبدأ الزيارات في نهاية الشهر المقبل ، حوالي الثالث والعشرين منه ، إلا أن الرفاق المتنخين سيسافرون كل على حدة حيث أن دعواتهم ليست متزامنة .

يرجى إطلاعنا بأسرع ما يمكن بشأن قبولك أو عدمه ، وسنزودك بمزيد من التفاصيل .

وكلما زادت في قراءتها ، كلما بدت أغرب . ملاحظة قصيرة كهذه للبداية ـ كيف عرفوا أن بأستطاعتها التملص من المكتبة ؟ ولدهشتها ، تذكرت أن آش كان قد سألها عما كانت تفعله في إجازاتها ، وإن كانت قد أخذت إجازة هذه السنة ، وإن كان عليها أن تقدم الكثير من الإشعارات إنْ هي أرادت التمتع بوقت حر . لماذا لم يخبروها بأسماء المرشحين الآخرين ؟ ليس هناك سبب محدد يدفعهم الى ذلك ، ربما ، لكن ، بدا الأمر غريباً عندما لم يخبروها . كذلك ، كانت رسالة مطولة جداً . كانوا بحاجة ماسة الى مساعدة سكرتيرة في المركز بحيث أنهم اعتادوا على جعل رسائلهم قصيرة ، أو كانوا يطلبون من الرفاق الاتصال هاتفياً بهم . أما هذه الرسالة فقد كانت محبوكة تماماً وجيدة الطبع ، ربما لم تكتب في المركز على الإطلاق . بيد أنها كانت تحمل توقيع المسؤول الثقافي ، كان توقيعه صحيحاً ، دون ريب ، فقد سبق لها مشاهدة التوقيع في ذيل مذكرات مرات كثيرة . وكان أسلوب الرسالة تعوزه الرشاقة ، شبه بيروقراطي وشبه كنسي ، كانت قد تعودت عليه دون أن تحبه أبداً . وكان من الغباء القول بأنها كانت تمتلك سجلاً جيداً في تحضير العمل الجماهيري على مستوى الشارع . لم يكن لديها مثل هذا . وفي الحقيقة ، كانت تكره ذلك الجانب من عمل الحزب ـ مكبرات الصوت عند بوابات المصانع ، بيع صحيفة الـ ديلي وركر عند ركن الشارع ، الانتقال من بيت الى بيت في الانتخابات المحلية . لم تكن تعترض كثيراً على النشاط السلمي .

كان يعني شيئاً لها ، شيئاً ذا معنى . فبامكانك رؤية الأطفال في الشارع وأنت تمر بهم ، الأمهات وهن يدفعن عربات الأطفال والشيوخ وهم يقفون على عتبات الدور ، وبامكانك القول : " أفعل ذلك من أجلهم " . ذلك كان في الحقيقة نضال من أجل السلام . لكنها لم تنظر أبداً الى النضال من أجل الناخبين وبيع الصحف بنفس الطريقة . وفكرت أن ذلك ربما يعود الى

Amly نهضة العرب

تجزئة الأشياء . كان يبدو من السهل إعادة بناء العالم عندما يكون هناك اثنا عشر شخصاً أو ما يقارب ذلك سوية في اجتماع حزبي على مستوى الفرع ، والسير في طليعة الاشتراكية والتحدث عن حتمية التاريخ . وبعد ذلك ، تخرج الى الشوارع حاملة رزمة من جريدة الـ ديلي وركر منتظرة ساعة في أغلب الأحيان ، أو ساعتين ، لتبيع نسخة واحدة . كانت تغش أحياناً ، كما كان الآخرون يغشّون ، وتدفع ثمن دزينة من الصحف لمجرد أن تذهب الى البيت وتتخلص منها .

في الاجتماع التالي ، كانوا يتباهون بذلك ـ متناسين أنهم هم الذين أشتروا الصحف ـ ويقولون " إن الرفيقة جولد باعت ثماني عشرة نسخة ليلة السبت ـ ثماني عشرة ! " ويدخل الموضوع الى محاضر الاجتماعات عندها ، وفي نشرة الحزب على مستوى الفرع أيضاً . وتبدأ منظمة المقاطعة بفرك يدها ، وربما تحصل على ذكر إسمها في ذلك العمود الصغير على الصفحة الأولى الخاص بصندوق النضال . كان عالماً صغيراً جدا ، وتمنت لو أنهم كانوا أكثر نزاهة ، لكنها كذبت على نفسها في كل ذلك أيضاً . ربما كذب الجميع . أو ربما فهم الآخرون لماذا كان عليك أن تكذب كثيراً .

بدا من الغريب جداً أنهم جعلوها سكرتيرة الفرع . لابد أن موليجان هو الذي اقترح إسمها : " رفيقتنا الشابة النشيطة الجذابة . " اعتقد بأنها ستنام معه إذ ما جعلها سكرتيرة . وقد صوت الآخرون لصالحها لأنهم كانوا يحبونها ولأنها كانت تجيد الطباعة . لأنها ستقوم بالعمل ولا تحاول أن تجعلهم يطوفون الشوارع التماساً للدعم في نهايات الأسبوع . ليس في الغالب على أية حال . لقد صوتوا لها لأنهم أرادوا نادياً صغيراً أنيقاً ، نظيفاً وثورياً ودون جلبة . كان ذلك خدعة كبيرة . وقد بدا أن أليك كان يفهم ذلك ، ولم يأخذ الأمر بجدية فحسب . قال مرة : " بعض الناس يربي طيور الكناري ، وبعض الناس ينضم الى الحزب ، " وكان ذلك صحيحاً . وفي بيزوتر ساوث كان صحيحاً على كل حال ، وكانت المقاطعة تعرف ذلك تماماً . ذلك هو سبب غرابة ترشيحها ، وذلك هو السبب في عزوفها عن الاعتقاد بأن المقاطعة كانت ضالعة في العملية . وكانت متأكدة أن التفسير هو آش . ربما كان مفتوناً بها ، ربما لم يكن شاذاً بل بدا كذلك فحسب .

هزت لِز كتفيها هزة استهجان مبالغ فيها الى حد ما ، وهي إشارة مشدّدة يقوم بها الناس عندما يكونون في حالة إثارة أو مستوحدين . وعلى أية حال ، كانت رحلة الى الخارج ، مجانية ، وبدت مثيرة للاهتمام . لم يسبق لها أبداً أن سافرت الى الخارج ، وبالتأكيد ، لا تستطيع دفع التكاليف بنفسها . سيكون

Amly نهضة العرب

الأمر ممتعاً . وكانت لديها تحفظات على الألمان ، ذلك كان صحيحاً . لقد قيل لها ، لقد كانت تعرف ، بأن المانيا الغربية كانت ذات نزعة عسكرية وانتقامية وأن المانيا الشرقية كانت ديمقراطية ومحبة للسلام . لكنها كانت تشك إن كان كل الألمان الطيبين في جانب واحد وكل السيئين في الجانب الآخر . وأن السيئين هم الذين قتلوا والدها . ربما هذا هو السبب وراء اختيار الحزب لها ـ كاجراء كريم في الأسترضاء والتعويض . ربما كان ذلك ما يجمله آش في ذهنه عندما سألها كل تلك الأسئلة . بالطبع ، ذلك هو التفسير . وفجأة ، امتلأت بشعور الدفء والعرفان تجاه الحزب . لقد كانوا حقاً قوماً كرماء وكانت تشعر بالزهو لكونها تنتمي اليهم . أتجهت الى المنضدة وفتحت الدرج حيث كانت تحتفظ في حقيبة مدرسية قديمة بقرطاسية الفرع الحزبي والأختام الخاصة بالمدفوعات . وبعد أن وضعت ورقة في الآلة الكاتبة ، أندرود القديمة ـ إذ كانوا قد بعثوا بها من المقاطعة عندما سمعوا أنها تجيد الضرب على الآلة الكاتبة . الطابعة تقفز قليلاً ، لكنها كانت في حالة جيدة عدا ذلك ـ وطبعت رسالة موافقة أنيقة مليئة بالشكر ـ كان المركز شيئاً رائعاً ـ قوياً ، خيراً ، موضوعياً ودائماً . كانوا قوماً طيبين . أناس ناضلوا من أجل السلام . وعندما أغلقت الدرج ، لمحت بطاقة سمايلي .

تذكرت ذلك الرجل القصير ذا الوجه الجاد المتغضن واقفاً على عتبة غرفتها وهو يقول : " هل كان الحزب على علم بما بينك وبين أليك ؟ " كم كانت ساذجة . حسناً ، فهذه ستبعد تفكيرها عن ذلك الكلام .

Amly نهضة العرب

١٦ * إعتقال

عاد فيدلر وليماس بالسيارة وهما صامتان بقية الطريق . في الغسق ، كانت التلال سوداء وكهفية الظلمة ، وكانت مصابيح الدلالة تجاهد ضد الظلمة المتكدسة مثل مصابيح سفن بعيدة في البحر .

أوقف فيدلر السيارة في سقيفة عند جانب البيت وسارا معاً الى الباب الأمامي . كانا على وشك الدخول عندما سمعا صرخة من جهة الأشجار ، تلتها مناداة شخص ما باسم فيدلر . أستدارا ، ميز ليماس في الشفق ، على بعد عشرين ياردة ، ثلاثة رجال واقفين ، بانتظار فيدلر على ما يبدو .

صاح فيدلر : " ماذا تريد ؟ "

ـ " نريد التحدث اليك . نحن من برلين . "

تردد فيدلر . سأل فيدلر ليماس : " أين ذلك الحارس اللعين ؟ " كان من المفروض أن يكون هناك حارس على الباب الأمامي . "

هز ليماس كتفيه . وسأله ثانيةً : " ولماذا المصابيح مطفأة في الصالة ؟ " بعدها ، ولأنه لا يزال غير مقتنع ، بدأ بالسير متمهلاً نحو الرجال .

أنتظر ليماس لحظة ، وبعدها ، ولعدم سماعه شيئاً ، شق طريقه عبر البيت المظلم الى الملحق الذي خلفه . وقد كان هذا الملحق عبارة عن كوخ مهلهل كبير ملحق بخلفية البناية ومخفي من جميع الجهات بحشود متقاربة من أشجار الصنوبر الصغيرة . وكان الكوخ مقسماً الى ثلاثة غرف نوم متجاورة ، ولم تكن هناك ردهة . خصصت الغرفة الوسطية لـ ليماس ، أما الغرفة الأقرب الى البناية الرئيسة فقد كان يشغلها حارسان ولم يعرف ليماس أبداً مَنْ كان يشغل الغرفة الثالثة . كان قد حاول مرةً أن يفتح الباب الذي يربط تلك الغرفة بغرفته ، لكنه كان مقفولاً . وقد اكتشف فقط أنها غرفة نوم من خلال النظر عبر فتحة ضيقة في ستائر الدانتيللا في أحد الصباحات المبكرة أثناء

Amly نهضة العرب

خروجه في نزهة . لم يكن الحارسان اللذان كانا يتبعانه في كل مكان على بعد خمسين ياردة ، فقد دارا حول زاوية الكوخ ، فاستطاع أن يمعن النظر في الشباك . كانت الغرفة تحتوي على سرير لشخص واحد ومنضدة كتابة صغيرة عليها أوراق . افترض أن أحدهم كان يراقبه من غرفة النوم تلك ، بما عرف عن الألمان من احتراس . بيد أن لياس كان من الدراية بحيث لا يمكن أن يسمح لنفسه بأن ينزعج من المراقبة . وفي برلين ، كانت المراقبة حقيقة حياتية ـ إنْ لم تستطع تشخيصها ، وقع الأسوأ : كانت تعني فقط أنهم كانوا حذرين كثيراً ، أو أنك كنت تفقد زمام الأمور . وعادة ، لأنه كان يقظاً ، ولأنه كان يحسن ذلك الشيء ، ويمتلك ذاكرة جيدة ودقيقة ، وباختصار ، لأنه كان بارعاً في مهنته ، فقد شخصهم رغم كل شيء . كان يعرف التشكيلات التي يفضلها فريق مراقبة ، وكان يعرف الحيل ونقاط الضعف ، والزلات التي تحدث في لحظتها والتي يمكن أن تبعدهم . لم يعنِ له شيئاً أنه كان مراقباً ، لكن ما أن سار عبر المدخل غير الممهد من المسكن إلى الكوخ ووقف في غرفة نوم الحرس حتى انتابه شعور واضح بأن هناك شيئاً على غير مايرام .

كانت المصابيح في الملحق تضاء من نقطة مركزية ما . وكانت تضاء وتطفأ بيد خفية . وفي الصباحات ، كان يوقظ في الغالب بالوهج المفاجيء للمصباح الوحيد المعلق فوق الرأس في غرفته . وفي الليل ، يعجل به الى السرير بسبب الظلام المعتاد نظامياً . وكانت الساعة التاسعة عندما دخل الملحق ، وكانت المصابيح مطفأة في الأساس . وفي المعتاد ، كانت تبقى مضاءة حتى الحادية عشرة ، لكنها الآن مطفأة وقد أنزلت مصاريع النوافذ . كان قد ترك الباب الرابط مفتوحاً ، كي يصل ضوء الشفق الشاحب من ممر الصالة ، لكنه نادراً ما ينفذ الى غرفة منام الحراس ، وبواسطته كان بإمكانه رؤية السريرين الفارغين . وحين وقف هناك يتلصص محدقاً في الغرفة ، مندهشاً لكونها خالية ، أغلق الباب الذي كان خلفه . ربما من ذاته ، بيد أن لياس لم يقم بأية محاولة لفتحه . كان ظلاماً دامساً . ولم يصحب إغلاق الباب أي صوت ، ولا طقطقة ولا وقع أقدام . وبالنسبة للياس ، وقد تنبهت غريزته فجأة ، كان الأمر وكأن التتبع الصوتي قد توقف . ثم شم رائحة دخان السيجارة . لابد أن الرائحة كانت عالقة في الهواء لكنه لم يلاحظها حتى الآن . ومثل أعمى ، صارت حواس اللمس والشم عنده حادة بفعل الظلام .

كان يحمل أعواد ثقاب في جيبه لكنه لم يستخدمها . خطا خطوة الى

Amly نهضة العرب

الجانب ، وضغط ظهره على الجدار وبقي بلا حراك . بالنسبة له ، لم يكن هناك سوى تفسير واحد ـ إنهم كانوا ينتظرون مروره من غرفة الحرس الى غرفته ولذلك عزم على البقاء حيث كان . وبعدها ، ومن اتجاه البناية الرئيسية من حيث أتى ، سمع بوضوح صوت وقع أقدام . ووضع مفتاح في الباب الذي أغلق للتو ، وأدير القفل ، وفتح بسرعة . مع ذلك لم يتحرك لياس ، ليس بعد ، فلم يكن هناك حاجة : أدرك أنه أصبح سجيناً في الكوخ . وببطء شديد ، جثا لياس على ركبتيه واضعاً يده في الجيب الجانبي لسترته أثناء ربوضه . كان هادئاً جداً ، وفرح تقريباً بإمكانية القيام بفعل ، بيد أن الذكريات كانت تجري في ذهنه . " دائماً ستكون لديك أسلحة : منفضة رماد السجائر ، قطع نقدية ، قلم حبر ـ أي شيء يخدش أو يجرح " . تلك كانت الكلمة المأثورة لدى العريف الويلزي القصير الهادىء في ذلك البيت قرب أوكسفورد أبان الحرب ؛ إذ يقول : " لا تستعمل يديك الأثنتين في وقت واحد ، ولا مع سكين أو عصا أو مسدس ، دع يدك اليسرى حرة وضعها عبر البطن . وإذا لم تستطع إيجاد شيء تضرب به ، إفتح يديك وقلّص الإبهامين " . وبعد أن أخرج علبة الثقاب بيده اليمنى ، أمسك بها طولياً وسحقها عامداً بحيث تسللت من بين أصابعه النهايات المثلّمة للعلبة . وبعد أن انتهى من هذا ، شقّ طريقه على طول الجدار الى أن وصل الى كرسي كان يعرف مكانه في زاوية الغرفة . ولأنه لم يبال بالضجة التي يحدثها الآن ، دفع الكرسي الى وسط الغرفة ، وبعد أن حسب خطواته عند عودته من الكرسي ، وضع نفسه في الزاوية المحصورة بين الجدارين . وبعد أن انتهى من ذلك ، سمع باب غرفة نومه يفتح بقوة . وحاول عبثاً أن يميز الشخص الذي كان يقف في المدخل بوضوح ، بيد أن الضوء من غرفته كان مفقوداً أيضاً . كانت الظلمة حالكة . لم يجرؤ على التقدم ليهاجم ، لأن الكرسي صار الآن وسط الغرفة ، إذ كان الكرسي ميزته التكتيكية ، ذلك لأنه كان يعرف مكانه ولم يعرفوا هم . لابد أن يأتوا إليه ، لابد . لا يمكنه أن يدعهم ينتظرون الى ان يصل مساعدهم الذي في الخارج الى المفتاح الرئيسي ويضيء المصابيح .

همس بالألمانية : " تقدموا أيها الأوغاد الجبناء . أنا هنا ، في الزاوية . تعالوا وخذوني ، ألا تستطيعون ؟ " لم تصدر حركة ولا صوت .

بعدها ، سمع أحدهم يتقدم وآخر يتبعه ، ثم تجديف رجل بعد أن تعثّر بالكرسي ، تلك كانت الإشارة التي كان لياس ينتظرها ، فأبعد علبة الثقاب جانباً وزحف ببطء وحذر الى الأمام ، خطوة خطوة ، وذراعه اليسرى ممدودة

Amly نهضة العرب

في هيأة رجل يبعد الأغصان في غابة ، الى أن مسّ ، بهدوء تام ، ذراعاً ، وأحس بالقماش الشائك الدافيء لبدلة عسكرية . ربت عن قصد بيده اليسرى على تلك الذراع مرتين ـ ربتتين واضحتين ـ وسمع صوتاً مرتعباً يهمس قريباً من أذنه بالألمانية : " هانز ، هل هذا أنت ؟ "

همس لياس مجيباً : " إخرس يا أحمق ، " وفي تلك اللحظة ، تقدم وأمسك بشعر الرجل ، ساحباً رأسه الى الأمام والى الأسفل ، وبضربة قاطعة مروّعة ، أنزل جانب يده اليمنى في مؤخرة العنق ، ساحباً إياه الى أعلى مرة أخرى بذراعه ، ووجه له ضربة في الحنجرة مع دفعة الى أعلى بقبضته المفتوحة ، ثم تركه ليسقط حيث تناولته قوة الجاذبية . وبعد أن سقط الرجل على الأرض ، أشتعلت المصابيح .

في المدخل ، كان يقف نقيب شاب من شرطة الشعب يدخن سيجاراً ، ويقف وراءه رجلان . أحدهما كان في زي مدني ، شاب صغير ، وكان يحمل مسدساً في يده . اعتقد لياس أن المسدس كان من الطراز التشيكي الذي يعرف بعتلة التعبئة على نتوء العقب . كانوا جميعاً ينظرون الى الرجل المطروح على الأرض . فتح أحدهم الباب الخارجي وأستدار لياس ليعرف من كان . وعندما استدار ، صدرت صرخة ـ ظن لياس أن النقيب هو الذي صرخ ـ أمراً إياه بعدم التحرك . ومتمهلاً ، استدار وواجه الرجال الثلاثة . كانت يداه عند جنبيه عندما جاءت الضربة التي بدت وكأنها سحقت جمجمته . واثناء سقوطه وهو ينتقل بدفء الى اللاوعي ، تساءل إن كان قد ضُرب بمسدس من الطراز القديم ذي المرود الموجود على عقب المسدس حيث يوتر زناد الاطلاق .

أيقظه صوت رجل يغني وصوت السجان ينادي عليه أن يخرس .

فتح عينيه وأندفع الألم الى دماغه كأنه ضوء مشع . رقد هادئاً ، عازماً على عدم إغماض عينيه . حاول أن يجري تقييماً لنفسه : كانت أقدامه متجمدة ، وكان مدركاً للعفونة الحامضية لسروال السجن الأزرق . توقف الغناء ، وفجأة ، تاق لياس لبدئه من جديد رغم أنه كان يعرف أنه لن يبدأ . حاول أن يدفع يده ويلمس الدم الذي جف على خده ، إلا أن يديه كانتا وراءه . موثقتان معاً . لابد أن قدميه قد رُبطا : فقد منع الدم عنهما ، ذلك هو سبب البرودة فيهما . وبألم ، نظر حوله محاولاً رفع رأسه بوصة أو بوصتين عن الأرض . وقد أدهشته رؤية ركبته أمامه . وبالسليقة ، حاول ان يمد ساقيه ، وعندما فعل ذلك ، هاجمه ألم مفاجيء ومروع بحيث أطلق صرخة ناشجة مؤلمة مثل الصرخة الأخيرة لرجل على المخلعة . رقد هناك

Amly نهضة العرب

لاهثاً وهو يحاول السيطرة على الألم ، وحاول مرة أخرى ، بسبب العناد المحض الذي جبل عليه ، أن يمد ساقيه ببطء شديد ، وفي الحال ، عاد الألم ، لكن ليماس وجد السبب : يداه وقدماه قيدت معاً خلف ظهره . وحالما حاول مد ساقيه كانت السلسة تتوتر منزلة كتفيه الى أسفل ورأسه المحطم على الأرض الصخرية . لابد أنهم ضربوه اثناء غيبوبته ، فقد كان جسده متصلباً ومليئاً بالرضوض ، وكانت أربيته تؤلمه . وراح يتساءل إن كان قد قتل الحارس أم لا . وكان يأمل ذلك . وفوق رأسه سطع الضوء ، كبيراً ، وكاشفاً وشرساً . لا أثاث ، مجرد جدران بيضاء ، قرية جداً من حوله ، والباب الحديدي الرمادي قاس ، اللون الذي تراه على منازل لندن الرشيقة . لم يكن هناك شيء آخر . لا شيء على الاطلاق . لاشيء يفكر به سوى الألم الوحشي . لابد أنه أستلقى ساعات هناك قبل أن يأتوا .

صار الجو حاراً بسبب الضوء ، وكان عطشان لكن رفض أن ينادي . وأخيراً فتح الباب ووقف " مندت " هناك . عرف من عينيه أنه مندت . كان سمايلي قد حكى له عن عينيه .

Amly نهضة العرب

١٧ * مندت

فكوا وثاقه وتركوه يحاول الوقوف . للحظة ، كاد أن ينجح ، بعدها ، وحين أن عاد دوران الدم ليديه وقدميه ، وتخلصت مفاصل جسده من التقلص الذي كانت خاضعة له ، سقط . تركوه مستلقياً هناك يراقبون بتجرد أطفالٍ يتطلعون الى حشرة . مرّ أحد الحراس من أمام مندت وأمر لياس بأن ينهض بصوت عالٍ . زحف لياس الى الجدار ووضع راحتي يديه النابضتين على الطوب الأبيض . كان في منتصف الطريق للوقوف على قدميه عندما رفسه الحارس وسقط ثانيةً . حاول مرة أخرى ، وفي هذه المرة ، تركه الحارس يقف وظهره مستند الى الجدار . شاهد الحارس يهيء ساقه اليسرى وأدرك أنه سيضربه مرة أخرى . وبكل ما تبقى له من قوة دفع لياس نفسه الى الأمام موجهاً رأسه المنخفض الى وجه الحارس . وسقطا معاً ، وكان لياس فوقه . نهض الحارس وظل لياس راقداً في مكانه ينتظر الرد . إلا أن مندت قال شيئاً ما للحارس ، فأحس لياس بأن أحداً رفعه من كتفيه وقدميه وسمع باب زنزانته يغلق وهم يحملونه الى الدهليز . كان في غاية العطش .

أخذوه الى غرفة صغيرة مريحة مفروشة باناقة ومزودة بمنضدة وكراسٍ ذات أذرع ، وقد غطت ستائر سويدية الى النصف الشبابيك المعززة بالقضبان . جلس مندت وراء المنضدة ولياس في كرسي ذي ذراع ، وعيناه نصف مغمضتين . ووقف الحراس عند الباب .

قال لياس : " أعطوني شراباً . "

ـ " ويسكي ؟ "

ـ " ماء . "

ملأ مندت إبريقاً زجاجياً من حوضٍ في الزاوية ووضعه على المنضدة الى جانبه مع قدح .

وأمرهم قائلاً : " أجلبوا له شيئاً يأكله " ، وغادر أحد الحراس الغرفة ،

Amly نهضة العرب

ليعود حاملاً كوز حساء وشيئاً من النقانق المقطعة . شرب وأكل وراحوا يراقبونه بصمت .

سأل ليماس أخيراً : " أين فيدلر ؟ "

رد مندت باقتضاب فظ : " رهن الأعتقال . "

ـ " والسبب ؟ "

ـ " التآمر لتخريب أمن الشعب . "

أومأ ليماس برأسه بتؤدة وقال : " إذن كسبت ، متى ألقيت القبض عليه ؟ "

ـ " الليلة الماضية . "

إنتظر ليماس لحظة محاولاً التركيز على مندت مرة أخرى .

وسأل " وماذا عني ؟ "

ـ " أنت شاهد إثبات . وستحاكم أنت أيضاً بالطبع أمام محكمة فيما بعد . "

ـ " إذن ، فأنا جزء من لعبة مبيتة من لندن للإيقاع بمندت ، أليس كذلك ؟ "

أومأ مندت برأسه ، أشعل سيجارة وناولها الى أحد الحراس ليعطيها لليماس . قال : " هذا صحيح " . انحنى الحارس ، وبأشارة تدل على صمت حقود ، وضع السيجارة بين شفتي ليماس .

قال ليماس مؤكداً : " عملية مدروسة جداً . " لم يقل مندت شيئاً . وأصبح ليماس معتاداً على حالات صمته كلما أستمرت المقابلة . كان مندت يتمتع بصوت جميل الى حد ما ، وذلك شيء ما كان ليماس يتوقعه ، إلا أنه نادراً ما كان يتكلم . ربما كان ذلك جزءاً من ثقة مندت غير العادية بنفسه بحيث أنه لم يتكلم ما لم يرغب في الكلام بالتحديد ، وحتى أنه كان مستعداً للسماح بفترات صمت طويلة بدلاً من تبادل كلمات لا معنى لها . بهذه الصفة ، أختلف عن المحققين المحترفين الذين يعولون كثيراً على المبادرة ، وعلى إثارة الجو وأستغلال ذلك الاتكال السايكولوجي لدى السجين على مَنْ يحقق معه . كان مندت يكره التكنيك : فقد كان رجل حقيقة وفعل . وكان ليماس يفضل ذلك .

كان مظهر مندت يتفق تماماً مع مزاجه . فقد كان يبدو رياضياً . وقد قص شعره الأشقر قصة قصيرة ، وكان يبدو مسرحاً ونظيفاً . وعلى وجهه الصغير ، كان هناك خط صلب وواضح ، وصرامة مخيفة . كان وجهاً يخلو من السماحة أو الخيال . بدا شاباً ، لكنه ليس مليئاً بالشباب . فالرجال

Amly نهضة العرب

الأكبر سناً كانوا سيتعاملون معه بجدية . وكان قوي البنية . وقد لائمته ملابسه لأنه كان رشيقاً . ولم يجد ليماس صعوبة في تذكر أن مندت كان قاتلاً تحوم حوله برودة ، كفاية ذاتية قوية ، سلحته تماماً لمهنة الجلاد . كان مندت رجلاً صعباً جداً .

أضاف مندت بهدوء : " التهمة الأخرى التي ستقدم الى المحاكمة عليها ، إذا كان ذلك ضرورياً ، هي القتل . "

أجاب ليماس : " إذن فقد مات الحارس ، أليس كذلك ؟ " مرت موجة ألم عبر رأسه .

أومأ مندت برأسه مؤكداً الجواب . وقال : " ولأن الأمر كذلك ، فإن محاكمتك بتهمة التجسس هي أكاديمية الى حد ما . وأقترح بأن تذاع القضية ضد فيدلر على الناس وتلك هي أيضا رغبة مجلس الرئاسة . "

ـ " وأنت تريد اعترافي ؟ "

ـ " أجل . "

ـ " بعبارة أخرى ، ليس لديك أي دليل . "

ـ " سنحصل على دليل . وسنحصل على اعترافك " . لم يكن هناك تهديد في صوت مندت ولا أسلوب ولا حركة مسرحية . " من ناحية أخرى ، هناك إمكانية للرحمة في قضيتك ، فقد تعرضت لأبتزاز المخابرات البريطانية ، فقد اتهموك بسرقة أموال ، ثم أجبروك على اعداد فخ أنتقامي ضدي . ستنظر المحكمة بعين العطف لمثل هذا الطلب . "

وبدا أن ليماس قد أخذ على حين غرة .

ـ " كيف عرفت أنهم أتهموني بسرقة أموال ؟ " لكن مندت لم يجر جواباً .

وعلّق مندت قائلاً : " كان فيدلر في غاية الغباء . حالما قرأت تقرير صديقنا بيترز ، أدركت سبب إرسالك ، وأدركت أن فيدلر سيسقط في الفخ . فيدلر يكرهني كثيراً . " أومأ مندت برأسه وكأنه يؤكد صحة ملاحظته . " جماعتك كانوا يعرفون ذلك بالطبع . فقد كانت عملية ذكية جداً . قل لي ، مَنْ أعدّها . هل كان ذلك من عمل سمايلي ؟ هل فعلها ؟ "

لم يقل ليماس شيئاً .

ـ " أردت رؤية تقرير فيدلر عن تحقيقه معك ، أتفهم ، أبلغته بإرسال التقرير لي . وقد ماطل ، فعرفت أنني كنت على حق . بالأمس ، وزع التقرير في مجلس الرئاسة ولم يرسل لي نسخة . أحدهم في لندن كان ذكياً

Amly نهضة العرب

جداً . "

ولم يقل ليماس شيئاً .

سأل مندت سؤالاً عرضياً : " متى رأيت سمايلي لآخر مرة ؟ " تردد ليماس ، غير واثق من نفسه فقد كان رأسه يؤلمه كثيراً .

كرر مندت سؤاله : " متى رأيته آخر مرة ؟ "

قال ليماس أخيراً : " لا أتذكر ، لم يكن في حالة استعداد في الحقيقة . وكان يعبر من حالة الى أخرى . "

ـ " إنه صديق كبير لبيتر غيلام ، أليس كذلك ؟ "

ـ " نعم ، أظن ذلك . "

ـ " كنت تعتقد أن غيلام قد درس الوضع الاقتصادي في جمهورية المانيا الديمقراطية ، في قسم صغير وغريب في دائرتكم . ولم تكن متأكداً تماماً مما كان يؤديه القسم . "

ـ " نعم ، " وبدأ الصوت والصورة بالاختلاط في الخفقان المجنون لرأسه . وكانت عيناه تشتعلان وتؤلمانه . لقد أحس بالمرض .

ـ " حسناً ، متى رأيت سمايلي آخر مرة ؟ "

ـ " لا أتذكر . . . لا أتذكر . "

هز مندت رأسه .

ـ " لديك ذاكرة جيدة ـ لأي شيء يؤدي إلى تجريمي . كلنا نستطيع تذكر آخر مرة شاهدنا فيها شخصاً . على سبيل المثال ، هل شاهدته بعد عودتك من برلين ؟ "

ـ " نعم . أعتقد ذلك . التقيته صدفة . . في الدائرة مرةً ، في لندن . " كان ليماس قد أغمض عينيه وكان يتصبب عرقاً . " لا أستطيع الأستمرار يا مندت . . . ليس أطول من هذا بكثير يا مندت . . . أنا مريض . "

ـ " بعد أن ألتقطك آش ، بعد أن سقط في الفخ الذي نصب له ، تناولتما الغداء معاً ، أليس كذلك ؟ "

ـ " نعم . تغدينا معاً . "

ـ " أنتهى الغداء حوالي الساعة الرابعة . الى أين ذهبت بعد ذلك ؟ "

ـ " أعتقد أني نزلت الى المدينة . لا أتذكر تماماً . . . بحق السماء يا مندت ، " قال وهو يمسك رأسه بيده . " لا أستطيع الإستمرار . رأسي اللعين . . . "

ـ " بعد ذلك ، الى أين ذهبت ؟ ولماذا تخلصت ممن كانوا يلاحقونك ، ولماذا كنت تواقاً للتخلص منهم ؟ "

Amly نهضة العرب

لم يقل ليماس شيئاً : كان يتنفس أنفاساً حارة ، ورأسه مدفون بين يديه .

ـ " أجب على هذا السؤال وبعد ذلك تستطيع أن تذهب . ستحصل على سرير . ويمكنك أن تنام إذا أردت . وإلاّ عليك العودة الى زنزانتك ، هل تفهم ؟ ستربط مرة أخرى وتطعم على الأرض كحيوان ، هل تفهم ؟ قل لي أين ذهبت . " وتزايد الخفقان الوحشي لرأسه فجأة ، وراحت الغرفة تتراقص ، وسمع أصواتاً من حوله وصوت وقع اقدام . مرت أشكال شبحية ، ومرت من جديد ، معزولة عن الصوت والجاذبية . كان أحدهم يصرخ لكن ليس عليه . كان الباب مفتوحاً ، وكان متأكداً أن أحدهم فتح الباب . كانت الغرفة مليئة بالناس ، كلهم يصرخون الآن ، ثم كانوا يخرجون ، بعضهم كان قد خرج ، سمعهم يتعدون ، وكان وقع اقدامهم يشبه نبض رأسه . مات الصدى وساد صمت . ومثل لمسة الرحمة ذاتها ، وضعت على جبهته قطعة قماش باردة ، وحملته بلطف أيدٍ .

أستيقظ ليجد نفسه على سرير مستشفى وفيدلر يقف الى جواره وهو يدخن سيجارة .

Amly نهضة العرب

١٨ * فيدلر

أجرى ليماس جرداً بالموجودات . سرير مع شراشف . ردهة فردية دون قضبان على الشبابيك ، ستائر فقط ، وزجاج خشن الملمس . جدران خضراء شاحبة ، ومشمع أخضر داكن على الأرضية ، وفيدلر يراقبه وهو يدخن .

جلبت له ممرضة الطعام : بيضة ، حساء خفيف ، وفاكهة . أحس برغبة في الموت ، لكنه افترض أنه من الأفضل له تناول الطعام . وهكذا فعل ، بينما راح فيدلر يتابعه .

سأله : " كيف حالك ؟ "

رد ليماس : " في غاية السوء "

ـ " لكن أفضل ؟ "

قال متردداً : " أظن ذلك ، لقد سحقني أولئك الأوغاد . "

ـ " لقد قتلت خفيراً ، أنت تعرف ذلك ؟ "

ـ " أظن أنني . . . ماذا يتوقعون إن هم أعدوا عملية غبية لعينة كهذه ؟ لماذا لم يسحبونا نحن الاثنين في وقت واحد ؟ لماذا أطفأوا الأضواء كلها ؟ لقد كان ذلك مغالاة في التنظيم . "

ـ " أخشى أننا كأمة نميل الى المغالاة في التنظيم . وفي الخارج ، يعد ذلك كفاءة . "

ثم ساد صمت مرة أخرى .

سأل ليماس : " ماذا حدث لك ؟ "

ـ " آه ، تعرضت أنا كذلك لتحقيق . "

ـ " على يد رجال مندت ؟ "

ـ " رجال مندت ومندت . كان إحساساً غريباً جداً . "

ـ " هذه إحدى طرق التعبير عنه . "

Amly نهضة العرب

ـ " لا . لا ، ليس جسدياً ، فعلى المستوى الجسدي كانت كابوساً ، لكن ، كما ترى ، كان لـ مندت اهتمام خاص في تعذيبي ، بغض النظر عن الاعتراف . "

ـ " لأنك تخيلت تلك القصة عن . . "

ـ " لأنني يهودي . "

قال ليماس بهدوء : " يا إلهي . "

ـ " وهذا هو سبب إعطائي معاملة خاصة . كان يهمس لي طوال الوقت . كان الأمر غريباً جداً . "

ـ " ماذا قال ؟ "

لم يرد فيدلر . وأخيراً تمتم قائلاً ، " تلك هي النهاية . "

ـ " لماذا ؟ ماذا حدث ؟ "

ـ " في اليوم الذي ألقي فيه القبض علينا ، تقدمت بطلب الى المجلس الأعلى للحصول على تفويض مدني لالقاء القبض على مندت كعدو للشعب . "

ـ " لكنك مجنون ـ قلت لك يا فيدلر إنك جننت ، فهو لن . . "

ـ " كان هناك دليل آخر ضده غير دليلك . دليل كنت أجمعه عبر السنوات الثلاث الماضية ، شيئاً فشيئاً . وقد قدم دليلك البرهان الذي تحتاج اليه . هذا كل ما في الأمر . وحالما اتضح الأمر ، أعددت تقريراً وأرسلته الى كل عضو في مجلس الرئاسة عدا مندت . أستلموه في نفس اليوم الذي قدمت فيه طلبي للحصول على تفويض . "

ـ " اليوم الذي أعتقلنا فيه . "

ـ " نعم . كنت أعرف أن مندت سيقاتل . وكنت أعرف أن لديه أصدقاء في مجلس الرئاسة ، أو أتباع في الأقل ، أناس كانوا مرتعبين بما فيه الكفاية بحيث أنهم كانوا في عجلة من أمرهم لموافاته حالما تلقوا تقريري . وفي النهاية ، عرفت أنه سيخسر . فقد حصل المجلس الأعلى على السلاح الذي كان بحاجة إليه لتدميره ، حصلوا على تقرير ، وخلال تلك الأيام القلائل التي كنا فيها قيد التحقيق ، قرأوه وأعادوا قراءته حتى أدركوا صحته وكان كل واحد يعرف أن الآخر كان يعرف . وفي النهاية تحركوا . وبسبب إنسياقهم وراء خوفهم المشترك وضعفهم المشترك واطلاعهم المشترك ، تحولوا ضده وطالبوا بمحاكمة . "

ـ " محاكمة ؟ "

ـ " محاكمة سّرية بطبيعة الحال . ستنعقد غداً . ومندت رهن

Amly نهضة العرب

الاعتقال . "

ـ " ما هو هذا الدليل الآخر ؟ الدليل الذي جمعته أنت ؟ "

أجاب فيدلر : " أنتظر وسترى غداً سترى . "

ظل فيدلر صامتاً قليلاً وهو يراقب ليماس يأكل طعامه .

سأل ليماس : " هذه المحاكمة ، كيف ستجرى ؟ "

ـ " الأمر متروك للرئيس . فهي ليست محكمة شعب ـ من الضروري أن تتذكر ذلك ـ وهي في طبيعتها تحقيقية ـ لجنة تحقيقية ، نعم ، يعينها المجلس الأعلى للتحقيق ورفع تقرير عن موضوع معين . ويحتوي تقريرها على توصية . وفي قضية كهذه ، التوصية تعادل قراراً بالحكم ، لكنها تبقى سرية ، كجزء من مداولات مجلس الرئاسة . "

ـ " وكيف تعمل ؟ هل هناك قضاة ومستشار ؟ "

قال فيدلر : " هناك ثلاثة قضاة . وفي الحقيقة هناك مستشار . غداً سأقدم بنفسي الاتهام ضد مندت وسيتولى كاردن الدفاع عنه . "

ـ " مَن هو كاردن ؟ "

تردد فيدلر . وقال : " رجل فظ جداً . كأنه طبيب قروي ، ضئيل ومطبوع على حب الخير . وكان في بوخفالد . "

ـ " ولماذا لا يستطيع مندت الدفاع عن نفسه ؟ "

ـ " كانت تلك رغبة مندت . يقال أن كاردن سيستدعي شاهداً . "

هزّ ليماس كتفيه وقال : " هذا شأنكم . "

ثم ساد صمت . أخيراً ، قال فيدلر متأملاً : " ما كنت لأهتم ـ لا أعتقد أنني كنت سأهتم ، ليس كثيراً على أية حال ـ لو كان قد آذاني لذاتي ، لكراهية أو غير ذلك . هل تفهم ذلك ؟ ذلك الألم الطويل الطويل وطوال الوقت تقول لنفسك : " إما أن يغمى عليّ أو أصمد بوجه الألم ، وستعتني الطبيعة بذلك . " ويتزايد الألم فحسب ، مثل عازف كمان يتنقل الى الوتر الخامس ـ تظن أن الألم لا يمكن أن يتصاعد أكثر لكنه يتصاعد ـ والألم مثل ذلك ، يتصاعد و يتصاعد ، وكل ما تفعله الطبيعة هو أن تنقلك من نوطة الى نوطة مثل طفل أطرش يلقن السماع . وطوال الوقت ، كان يهمس يهودي . يهودي . لقد فهمت ، أنا متأكد انني فهمت ، إن كان قد فعلها من أجل الفكرة ، من أجل الحزب إن شئت ، أو إن كان قد كرهني . لكن الأمر لم يكن كذلك . لقد كره . . "

قال ليماس بايجاز : " حسناً ، كان يجب أن تعرف . إنه وغد . "

قال فيدلر : " نعم ، إنه وغد . " وبدا مهتاجاً . فهو يرغب في التبجح

Amly نهضة العرب

أمام شخص ما ، هكذا أعتقد ليماس . وأضاف فيدلر : " فكرت كثيراً فيك . فكرت في ذلك الحديث الذي دار بيننا ـ تتذكر ـ عن المحرك . "

ـ " أي محرك ؟ "

ابتسم فيدلر : " آسف . تلك ترجمة حرفية . أقصد المحرك ، الماكنة ، الروح ، الحافز ، او أي إسم يطلقه عليه المسيحيون . "

ـ " لست مسيحياً . "

هزّ فيدلر كتفيه . " أنت تعرف ما أقصد . " وابتسم مرة أخرى . " الشيء الذي يحرجك . سأضع الموضوع بطريقة أخرى . إفرض أن مندت محق ؟ كما تعرف ، طلب مني أن أعترف . وكنت سأعترف بأنني كنت متعاوناً مع جواسيس بريطانيين كانوا يخططون لقتله . هل تتابع الفكرة ـ وهي أن العملية برمتها كانت تدار من قبل الاستخبارات البريطانية من أجل إغوائنا ـ إغوائي ، إن شئت ـ لتصفية أفضل رجل في قسم الاستخبارات ، أي لتوجيه سلاحنا ضدنا . "

قال ليماس بلا مبالاة : " لقد حاول ذلك معي . " وأضاف : " كأني طبخت الطبخة السخيفة بأكملها . "

ـ " لكن ما أعنيه هو هذا : إفرض أنك فعلت ذلك ، إفرض أن الأمر كان صحيحاً ـ أنا أتناول مثالاً ، أتفهم ، إفتراض ، هل تقتل رجلاً ، رجلاً بريئاً . . . . "

ـ " إن مندت نفسه قاتل . "

ـ " إفرض أنه لم يكن كذلك . إفرض أنهم أرادوا قتلي أنا : فهل تفعلها لندن ؟ "

ـ " الأمر مرهون ، مرهون بالحاجة . . . . "

قال فيدلر محاججاً : " آه ، الأمر مرهون بالحاجة . مثلما يقول ستالين ، في الواقع . حادثة المرور والاحصاء . ذلك تبرير كبير . "

ـ " لماذا ؟ "

قال فيدلر : " يجب أن تنام قليلاً ، أطلب أي طعام تشتهيه . سيجلبون لك أي شيء تريده . غداً تستطيع أن تتكلم . " وعندما وصل الباب ، ألتفت وقال : " كلنا نعاني المشكلة نفسها كما تعلم ، تلك هي النكتة . "

سرعان ما نام ليماس مقتنعاً بمعرفته أن فيدلر كان حليفه وأنهما سيرسلان مندت الى حتفه في القريب العاجل ـ كان ذلك شيئاً طالما تطلّع اليه منذ زمن بعيد .

Amly نهضة العرب

١٩ * اجتماع الفرع

كانت لِز سعيدة في لايبزج . فقد أعجبتها البساطة وأعطتها إحساساً بالتضحية . كان البيت الصغير الذي أقامت فيه مظلماً وبائساً ، وكان الطعام رديئاً ، وكان معظمه يحول للأطفال . تحدثوا في السياسة في كل وجبة ، هي وفراو لومان ، سكرتيرة فرع محلي في لايبزج ـ نوفنهيجن ، امرأة ضئيلة شاحبة كان زوجها يعمل مديراً لمقلع حصى في ضواحي المدينة . كان الوضع يشبه العيش في مجتمع ديني ، هكذا فكرت لِز . دير أو كيبوتز أو شيء مشابه . ينتابك إحساس بأن العالم كان أفضل لحواء معدتك . كانت لِز تجيد الألمانية نوعا ما ، وكانت قد تعلمتها من عمتها ، وقد دهشت من سرعة قدرتها على استخدامها . حاولت في البدء مع الأطفال الذين كشروا ثم ساعدوها . في البداية ، عاملها الاطفال بطريقة غريبة وكأنها كانت شخصية ذات نوعية خاصة أو قيمة نادرة ، وفي اليوم الثالث ، أستجمع أحدهم الشجاعة وسألها إن كانت قد جلبت شوكولاته من " دروبن " ـ " من هناك . " لم تفكر في ذلك على الاطلاق ، وشعرت بالخجل . بعد ذلك بدا كأنهم قد نسوها .

في الأمسيات ، كان هناك العمل الحزبي . فقد كانوا يوزعون الأدبيات ، ويزورون أعضاء الفرع الذين تخلفوا عن أداء ما بذمتهم أو تأخروا في حضورهم الاجتماعات ، وقاموا بزيارة في المقاطعة لمناقشة حول " المشاكل المرتبطة بالتوزيع المركزي للمنتجات الزراعية " حضرها كل أمناء الفروع ، وحضروا اجتماعاً للمجلس الاستشاري العمالي لمصنع أدوات واقع في ضواحي المدينة .

أخيراً ، وفي اليوم الرابع ، وكان يوم خميس ، انعقد اجتماع فرعهم . وكان هذا بالنسبة لـ لِز على الأقل ، أمتع التجارب على الاطلاق ، كان من الممكن أن يكون نموذجاً لما يمكن أن يصبح عليه فرعها في بيزووتر يوماً ما .

Amly نهضة العرب

وقد اختاروا شعاراً رائعاً لمناقشات الأمسية : " التعايش بعد حربين " وتوقعوا رقماً قياسياً في الحضور . وقد أعدت الردهة بأكملها ، واهتموا بالتحقق من عدم وجود اجتماع منافس في المنطقة في ذلك المساء ، و لم يكن يوم تبضع .

وحضر سبعة أشخاص .

سبعة أشخاص ولز وسكرتيرة الفرع ورجل من المقاطعة . تظاهرت لز بالاهتمام الشديد إلا أنها كانت في غاية الاضطراب . ونادراً ما استطاعت التركيز على المتحدث ، وعندما حاولت ، استخدم جملاً مركبة طويلة بالألمانية بحيث لم تستطع فهم شيء . كان الاجتماع يشبه الاجتماعات في بيزووتر وهو أشبه بصلاة المساء في منتصف الأسبوع عندما اعتادت على زيارة الكنيسة ـ نفس المجموعة الصغيرة من الوجوه الضائعة الخانعة ، نفس الوعي الذاتي المنمق ، نفس الإحساس بفكرة كبيرة في أيدي أشخاص صغار . كانت دائماً تشعر بالشيء نفسه ـ كان أمراً مزعجاً في الحقيقة لكنها كانت تشعر به ـ وكانت تتمنى أن لا يحضر أحد لأن ذلك سيكون رداً واضحاً لا ريب فيه وكان يوحي بالاضطهاد والإذلال ـ كان شيئاً يمكنك أن ترد عليه .

إلا أن سبعة أشخاص كانوا لا شيء ، بل كانوا أسوأ من لا شيء ، لأنهم كانوا يشكّلون دليلاً على خمول الجماهير التي لا يمكن كسبها . لقد كانوا يثيرون الشفقة .

كانت الغرفة أفضل من غرفة المدرسة في بيزووتر ، إلا أن ذلك لم يكن مصدر راحة . ففي بيزووتر ، كان البحث عن غرفة مسألة ممتعة . ففي الأيام الأولى ، كانوا يتظاهرون بأنهم شيء آخر ، و ليس الحزب على الإطلاق . فقد استأجروا غرفاً خلفية في حانات ، غرفة اجتماعات في مقهى أردينا أو كانوا يجتمعون سراً في بيوت بعضهم البعض . ثم التحق بهم بل هازل من المدرسة الثانوية وأستغلوا صفه . وحتى ذلك ، كان مجازفة ـ إذ اعتقد مدير المدرسة أن بل كان يدير مجموعة مسرحية . بصورة ما ، كان ذلك الصف أفضل من قاعة السلام هذه المبنية من القوالب الخرسانية الجاهزة مشققة الزوايا ، وقد علقت فيها صورة لينين . لماذا وضعوا ذلك الإطار السخيف حول الصورة ؟ حزم من أنابيب مثل أنابيب الأرغن ناتئة من الزوايا والرايات ، مليئة بالغبار . بدت الصورة كأنها شيء من مراسيم جنازة فاشية . أحيانا كانت لز تعتقد أن أليك كان على حق ـ لقد آمنت بأشياء لأنك كنت بحاجة الى الإيمان ، وأن ما آمنت به لم تكن له قيمة بحد ذاته ولا وظيفة . ماذا قال ؟ " الكلب يحك حيث يشعر بالحكة . والكلاب المختلفة

Amly نهضة العرب

تحك في أماكن مختلفة . " لا . كان خطأً . كان أليك على خطأ . كان شيئاً مقيتاً ذلك الذي قاله . السلام والحرية والمساواة ـ كانت حقائق بالطبع ، كانت حقائق . وماذا عن التاريخ ؟ كل تلك القوانين التي أثبتها الحزب ؟ لا ، أليك كان مخطئاً : فالحقيقة كانت موجودة خارج الناس ، أثبتها التاريخ وما على الأفراد سوى الانحناء لها ، أو الاتساحق على يدها عند الضرورة . كان الحزب طليعة التاريخ ، ورأس الحربة في النضال من أجل السلام . . أستعرضت الشعار بشيء من الشك . تمنت لو حضر أناس أكثر . فسبعة أشخاص كانوا قليلين جداً . وقد بدوا بائسين ، بائسين وجياعاً .

وبعد انتهاء الاجتماع ، انتظرت لِز فراو لومان لتجمع الأدبيات التي لم تبع من المنضدة الثقيلة قرب الباب ، وتوقع في دفتر حضورها وتلبس معطفها إذ أن الجو كان بارداً ذلك المساء . كان المتحدث قد غادر بأسلوب فج الى حد ما ، هكذا اعتقدت لِز ، قبل المناقشة العامة . وكانت فراو لومان تقف عند الباب ويدها على مفتاح المصباح عندما ظهر رجل من الظلام ، متصباً في المدخل . وللحظة فقط ، ظنت لِز أنه كان آش . كان طويلاً أشقر ويرتدي معطفاً من تلك التي تزرر بازرار جلدية .

تساءل : " الرفيقه لومان ؟ "

ـ " نعم ؟ "

ـ " أبحث عن رفيقة إنجليزية ، تدعى غولد . هل تقيم معك ؟ "

تدخلت لِز وقالت : " أنا إلزابيث غولد " . ودخل الرجل الى القاعة مغلقاً الباب وراءه بحيث كان الضوء يسقط كله على وجهه .

ـ " أنا هولتن من المقاطعة ، " وأخرج ورقة لفراو لومان التي كانت ما تزال واقفه قرب الباب وأومأت برأسها وألقت نظرة سريعة قلقة الى حد ما باتجاه لِز .

ـ " لقد طلبوا مني أن أنقل رسالة الى الرفيقة غولد من مجلس الرئاسة " . وأضاف ، " إنها تتعلق بتغيير في برنامجك ، دعوة لحضور إجتماع خاص . "

قالت لِز بغباء : " أوه . " بدا شيئاً رائعاً أن يكون مجلس الرئاسة نفسه قد سمع عنها .

قال هولتن : " إنها إيماءة . إيماءة بحسن النية والود . "

قالت لِز بارتباك : " لكن أنا . . . لكن فراو لومان . . . "

ـ " أنا متأكد من أن الرفيقة لومان ستسامحك في ظل الظروف . "

قالت لومان بسرعة : " بالطبع . "

Amly نهضة العرب

ـ " أين سيعقد الاجتماع ؟ "

أجاب هولتن : " سيحتم الإجتماع رحيلك الليلة . أمامنا رحلة طويلة . الى جورلتس تقريباً . "

ـ " الى جورلتس . . . وأين تقع ؟ "

قالت فراو لومان بسرعة : " شرقاً . على الحدود البولندية . "

ـ " نستطيع العودة بك الى البيت الآن . وبإمكانك جمع حاجاتك وسنشرع في الرحلة في الحال . "

ـ " الليلة ؟ الآن ؟ "

ـ " نعم " . لم يبد هولتن متوقعاً بأن يكون أمام لِز أي إختيار .

سيارة سوداء كبيرة كانت بانتظارهم . وكان هناك سائق في المقدمة وسارية علم على غطاء محرك السيارة وقد بدت وكأنها سيارة عسكرية .

Amly نهضة العرب

٢٠ * محكمة

لم تكن المحكمة أكبر من صف مدرسي . فعند الطرف الأول من الغرفة ، جلس حراس وسجانون على المصطبات الخمس أو الست التي كانت موجودة ، وجلس بينهم هنا وهناك متفرجون ـ أعضاء من مجلس الرئاسة وموظفون منتخبون . وعند الطرف الآخر من الغرفة ، جلس أعضاء المحكمة الثلاثة على كراسٍ عالية الظهور وراء منضدة بلوطية غير مصقولة . وفوقهم ، تدلت من السقف ، بواسطة ثلاثة أسلاك ، نجمة حمراء كبيرة مصنوعة من رقائق الخشب . وكانت جدران قاعة المحكمة بيضاء مثل جدران زنزانة ليماس .

وعلى الجانبين ، جلس رجلان على كرسيين بمقربة من المنضدة وقد وجه الكرسيان الى الداخل ليواجه أحدهما الآخر . كان أحدهما في منتصف العمر ، ربما في الستين من عمره ، يرتدي بدلة سوداء وربطة عنق رمادية ، من النوع الذي يرتدي في الكنيسة في المقاطعات الريفية الألمانية . وكان الآخر هو فيدلر . كان ليماس يجلس في المؤخرة ، محاطاً بحارسين على جنبيه . وبين رؤوس المشاهدين استطاع ان يرى مندت محاطاً هو الآخر بالشرطة ، وقد حلق شعره الأشقر بقصة قصيرة . وغطت كتفيه العريضين بدلة السجن الرمادية المألوفة . وجد ليماس شيئاً من الغرابة - قد يكون مرده إلى مزاج المحكمة أو إلى نفوذ فيدلر - في أن يرتدي هو نفسه ملابسه الخاصة ، في حين ارتدى مندت بدلة السجن .

لم يطل المقام بـ ليماس في مكانه عندما دق رئيس المحكمة ، الجالس في الوسط ، الجرس . وقد جذب الصوت انتباهه نحو الجرس ، وأنتابته رجفة عندما عرف أن رئيس المحكمة كان امرأة . لا يمكن لومه على عدم ملاحظة ذلك من قبل . فقد كانت امرأة في الخمسين من عمرها ، صغيرة العينين

Amly نهضة العرب

وسمراء . وكان شعرها قصيراً كشعر الرجال وترتدي البدلة العملية الداكنة التي تفضلها الزوجات السوفيتيات . القت نظرة حادة على الغرفة ، وأومأت الى حارس بأن يغلق الباب وبدأت في الحال دون مراسيم في توجيه كلامها الى المحكمة .

ـ " كلكم تعرفون سبب وجودنا هنا . والمداولات سرية ، تذكروا ذلك . وهذه محكمة يعقدها مجلس الرئاسة بشكل خاص . ونحن مسؤولون أمام مجلس الرئاسة فقط . وسنستمع الى الأدلة التي نراها مناسبة . " وأشارت بطريقة روتينية نحو فيدلر . " رفيق فيدلر ، من الأفضل أن تبدأ . "

وقف فيدلر . وهو يوميء بسرعة باتجاه المنضدة ، سحب من الحقيبة الصغيرة التي بجانبه حزمة من الأوراق المرزومة بخيط أسود من إحدى الزوايا .

تحدث بهدوء وسهولة ، وبحياء لم يلاحظه عليه ليماس من قبل أبداً . واعتبره ليماس أداءً جيداً ، ومتلائماً مع دور رجل يقدم على شنق رئيسه بأسى ظاهر .

بدأ فيدلر : " أولاً ، يجب أن تعرفوا ، إن كنتم لا تعرفون أساساً ، أنه في اليوم الذي تسلم فيه مجلس الرئاسة تقريري عن نشاطات الرفيق مندت ، ألقي القبض عليّ مع المنشق ليماس . وسجن كلانا ، وطلب منا . . . تحت الإكراه الشديد ، بأن نعترف بأن كل هذه التهمة المروعة كانت مؤامرة فاشية ضد رفيق مخلص .

تستطيعون أن تفهموا من التقرير الذي سلمته إياكم بالفعل ، كيف وقع ليماس تحت أنظارنا : فقد سعينا إليه نحن بأنفسنا ، وشجعناه على الانشقاق ، وأخيراً جئنا به الى ألمانيا الديمقراطية . لا شيء يمكن أن يوضح أكثر من هذا حيادية ليماس : من أنه ما زال يرفض ، لأسباب سأوضحها ، الأعتقاد بأن مندت كان عميلاً بريطانياً . لذلك ، فمن الغريب أن نوحي بأن ليماس هو شخص مدسوس : فقد كانت المبادرة مبادرتنا ، وأن شهادة ليماس الحيوية ، رغم كونها تحتل موقفاً جزئياً في التهمة ، تقدم الدليل الأخير فقط في سلسلة طويلة من المؤشرات التي ترجع الى السنوات الثلاث الأخيرة .

وأمامكم السجل التحريري لهذه القضية . ولا أحتاج الى أكثر من أن أفسر لكم حقائق أنتم على بينة منها في الأساس .

إن التهمة الموجهة إلى الرفيق مندت هي أنه عميل لدولة إمبريالية . وكان

Amly نهضة العرب

بإمكاني تقديم تهم أخرى ـ إنه قام بتوصيل معلومات الى المخابرات البريطانية ، وأنه حول دائرته الى خادم غير واع لدولة برجوازية ، وانه كان يحمي ، عن قصد ، مجاميع انتقامية معادية للحزب وأنه قبل مبالغ بالعملة الأجنبية مكافأة له . إن هذه التهم الأخرى جميعاً تنطلق من التهمة الأولى ، وهي أن هانز ديتر مندت عميل لدولة إمبريالية . وأن عقوبة هذه الجريمة هي الاعدام . ليس هناك جريمة أكثر خطورة في قانوننا الجنائي ، لا شيء البتة يعرض دولتنا لخطر أعظم ، ولا يتطلب يقظة أكثر من قبل أجهزة حزبنا . " وهنا وضع الأوراق .

ـ " يبلغ الرفيق مندت الثانية والأربعين من عمره ، ويشغل منصب نائب رئيس قسم حماية الشعب . وهو غير متزوج . وقد ظل يعتبر دائماً رجلاً ذا قدرات استثنائية ولا يكل من خدمة مصالح الحزب ، ولا يتقاعس عن حمايتها .

دعوني أعطيكم بعض التفاصيل عن سيرة عمله . جند في القسم في سن الثامنة والعشرين واجتاز التدريب المعتاد . وبعد أن أكمل فترته الاختبارية تولى مهاماً خاصة في البلدان الاسكندنافية ـ وخاصة النرويج ، والسويد ، وفنلندا ـ حيث نجح في تأسيس شبكة استخبارات قادت المعركة ضد المحرضين الفاشيين في معسكر العدو . وقد أدى مهمته بأحسن صورة ، وليس هناك من سبب يدعونا الى الافتراض بأنه في ذلك الوقت لم يكن غير عضو مجتهد في قسمه . لكن ، يارفاق ، يجب أن لاتنسوا ارتباطه الأول بالمنطقة الاسكندنافية . فقد وفرت الشبكات التي أقامها الرفيق مندت بسرعة بعد الحرب العذر له ، وبعد عدة سنوات ، للسفر الى فنلندا والنرويج حيث أصبحت التزاماته غطاءً يمكنه من سحب آلاف الدولارات من مصارف أجنبية مقابل سلوكه الخياني . لا مجال للخطأ : لم يسقط الرفيق مندت ضحيةً لأولئك الذين يحاولون دحض حجج التاريخ . فقد كانت دوافعه هي الجبن أولاً والضعف ثانياً والطمع ثالثاً . وكان تحقيق ثروة كبيرة هو حلمه . وكانت المفارقة هي أن الطريقة المعقدة التي وضعها لإشباع نهمه إلى المال هي التي قادت إليه قوى العدالة . "

صمت فيدلر وجال بنظره حول الغرفة ، وقد شعت عيناه بالحماس . وراح ليماس يراقبه مسحوراً .

صرخ فيدلر : " ليكن ذلك درساً لأعداء الدولة الآخرين الذين يرتكبون الجرائم البشعة التي يضطرون الى تنفيذها خلسة في ساعات الليل السرية ! "

وتصاعدت غمغمة خانعة من مجموعة المشاهدين الصغيرة في مؤخرة الغرفة .

Amly نهضة العرب

ـ " لن يفلتوا من يقظة الشعب الذي يسعون الى بيع دمه . " ربما كان فيدلر يظن أنه كان يخاطب حشداً كبيراً وليس حفنة الموظفين والحراس المتجمعين في الغرفة الصغيرة ذات الجدران البيض .

في تلك اللحظة ، أدرك لياس بأن فيدلر لم يكن يترك شيئاً للمصادفة : فسلوك المحكمة ، والإدعاء العام والشهود يجب أن يكون معصوماً من الخطأ على المستوى السياسي . ولأنه يعرف دون شك بأن خطر التعرض لتهمة مضادة لاحقه كان شيئاً مفروغاً منه في قضايا كهذه ، فقد كان فيدلر يحمي ظهره : فالجدل سيدخل السجلات وسيعد شجاعاً من يقف ليدحضه في هذه اللحظة . فتح فيدلر الملف الذي كان ملقى على المنضدة أمامه .

ـ " في نهاية ١٩٥٦ ، أرسل مندت الى لندن كعضو في هيئة الصليب الألمانية الشرقية . وكان قد كلف بواجب إضافي في اتخاذ إجراءات تخريبية مضادة ضد المجاميع المهاجرة لأسباب سياسية . وفي غضون عمله ، عرض نفسه لمخاطر كبيرة ـ ولا شك في ذلك . وقد حصل على نتائج قيمة . "

شدّ انتباه لياس مرة أخرى الى الأشخاص الثلاثة الجالسين وراء طاولة الوسط . فعلى يسار الرئيسة ، كان هناك رجل أسمر شاب الملامح . وقد بدت عيناه نصف مغمضتين ، وشعره أشعث ، وكانت له ملامح زاهد كالح ونحيل الوجه . وكانت يداه نحيلتين ، تداعبان بقلق زاوية حزمة من الأوراق الموضوعة أمامه . خمّن لياس بأنه كان رجل مندت وقد وجد من الصعب معرفة السبب في تخمينه . وعلى الطرف الآخر من الطاولة ، جلس رجل أكبر بقليل ، أصلع الرأس ، ذو وجه سمح ومقبول . قدر لياس أنه كان غبياً . وخمّن أنه إذا ما تعلق مصير مندت في كفة ميزان ، فإن الشاب سيدافع عنه وتدينه المرأة . وأعتقد أن الرجل الثاني سيحرج بسبب اختلاف الرأي ويقف الى جانب رئيسة المحكمة .

عاد فيدلر الى الكلام مرة أخرى .

وفي نهاية خدمته في لندن ، حدثت عملية تجنيده . قلت إنه عرّض نفسه لمخاطر كبيرة ، وفيما هو يفعل ذلك اصطدم بالشرطة السرية البريطانية ، التي أصدرت أمراً بأعتقاله . وأختبأ مندت الذي لم تكن لديه حصانة دبلوماسية (فبريطانيا الناتو لا تعترف بسيادتنا) وخضعت الموانيء البريطانية للمراقبة ، ووزعت صورته وأوصافه في كل الجزر البريطانية . ومع ذلك وبعد يومين في المخبأ ، أستأجر الرفيق مندت سيارة أجرة الى مطار لندن وطار الى برلين .

ستقولون " ذكاء " ، وهكذا كانت الحال . فمع دخول شرطة بريطانيا كلها حالة الإنذار ، واخضاع طرقها وسكك حديدها والطرق البحرية

Amly نهضة العرب

والجوية لرقابة دائمة ، يأخذ الرفيق مندت طائرة من مطار لندن . " ذكي " في الحقيقة . أو ربما أدركتم أيها الرفاق ، ويفضل إعادة النظر في الأمر ، بأن هروب مندت من إنجلترا كان ذكياً جداً ، سهلاً جداً ، وأنه لولا تواطؤ السلطات البريطانية ما كان يمكن أن يتم على الإطلاق . "

وارتفعت غمغمة أخرى من مؤخرة الغرفة وكانت أكثر تلقائية من الأولى .

ـ " والحقيقة هي ما يلي : أخذ البريطانيون مندت سجيناً ، وفي مقابلة تاريخية قصيرة عرضوا عليه البديل المعروف : أن يقضي سنوات في سجن إمبريالي ، وهو نهاية كل طموحاته الذكية ، أو يقوم بعودة درامية الى وطنه ، عكس كل التوقعات ، ويحقق الآمال المعقودة على ذكائه . واشترط البريطانيون بالطبع أن يزودهم بمعلومات مقابل عودته ، ويدفعون له مبالغ طائلة . وبالتلويح بالمكافأة أمام عينيه وبالعصا خلف ظهره ، جند مندت .

وأصبح من مصلحة بريطانيا تعزيز مهمة مندت في تصفية عملاء غربيين صغار من صنائع أسياده الامبرياليين الذين كان بالإمكان التضحية بهم ـ من أجل تعزيز مكانة مندت . لا نستطيع إثبات ذلك ، بيد انه افتراض يسمح به الدليل .

ومنذ ١٩٦٠ ـ السنة التي أصبح فيها الرفيق مندت رئيساً لقسم التجسس المضاد في الاستخبارات ـ وصلتنا مؤشرات من كل أنحاء العالم بأن هناك جاسوساً رفيع المستوى بين صفوفنا . كلكم تعرفون أن كارل رايماك كان جاسوساً ، واعتقدنا ، عندما تمت تصفيته ، بأننا قد تخلصنا من الشر . لكن الاشاعات استمرت .

وفي أواخر ١٩٦٠ تعامل أحد عملائنا السابقين مع رجل إنجليزي في لبنان عرفت عنه صلاته بدوائرهم الاستخبارية . وعرض عليه ـ وقد اكتشفنا ذلك بسرعة فيما بعد ـ عملية اختراق كاملة لقسمي الأستخبارات الألمانية التي كان يعمل لصالحها في السابق . وقد رفض عرضه بعد أن استشيرت لندن . كان ذلك شيئاً مثيراً للشكوك . ولم يكن يعني سوى أن البريطانيين كانوا يمتلكون المعلومات التي عرضت عليهم ، وكانت كلها معلومات حديثة .

ومنذ أواسط ١٩٦٠ فصاعداً ، كنا نفقد عملاء في الخارج بمعدلات مخيفة . وغالباً ما كان يلقى القبض عليهم خلال أسابيع قليلة من إرسالهم . وأحياناً ، كان العدو يحاول قلب عملائنا ضدنا ، لكن ليس غالباً . وبدا كما لو أن نشاط عملائنا ما كان يسبب لهم إزعاجاً حقيقياً .

وبعد ذلك ـ وكان هذا في بداية ١٩٦١ ، إذا ما أسعفتني الذاكرة ـ

Amly نهضة العرب

حصلنا على ضربة حظ . فقد حصلنا بواسطة وسائل ، لن أتطرق اليها ، على خلاصة بالمعلومات التي كانت المخابرات البريطانية تحتفظ بها عن استخباراتنا . كانت كاملة ودقيقة وحديثة العهد الى درجة مثيرة للدهشة . وعرضتها على مندت بالطبع ، فقد كان رئيسي في العمل . قال لي إنها لم تدهشه : فقد كانت لديه تحقيقات معينة قيد الدرس ويجب أن لا اتخذ إجراء خشية الإضرار بها . واعترف أنه في تلك اللحظة خطرت في ذهني فكرة ، رغم خياليتها وبعدها ، من أن مندت ربما كان هو نفسه الذي زودهم بالمعلومات . وكانت هناك مؤشرات أخرى .

ولا أحتاج الى القول بأن آخر ، وآخر شخص يشتبه به كجاسوس ، هو رئيس قسم التجسس المضاد . إن الفكرة مرعبة جداً وميلودرامية جداً بحيث أن عدداً قليلاً يمكن أن يستسيغها ، ناهيك عن الإفصاح عنها ! وأعترف بأنني كنت أشعر بالذنب من الافراط في التردد في التوصل الى استنتاج خيالي كهذا على ما يبدو . وكان ذلك إحساساً خاطئاً .

لكن يا رفاق ، وقع الدليل الأخير في أيدينا . وأقترح أستدعاء ذلك الدليل الآن . " استدار ، ملقياً نظرة نحو مؤخرة الغرفة . " قدم ليماس الى أمام . "

نهض الحارسان على جانبيه وشق ليماس طريقه على طول الممر الى المشنى الصلب الذي لم يكن عرضه يتجاوز القدمين نحو وسط الغرفة . وأشار اليه أحد الحراس بأن عليه الوقوف بمواجهة المنضدة . وكان فيدلر يقف على بعد ستة أقدام فقط منه . في البداية ، وجهت الرئيسة كلامها إليه .

سألت : " أيها الشاهد ، ما اسمك ؟ "

ـ " أليك ليماس . "

ـ " عمرك ؟ "

ـ " خمسون . "

ـ " متزوج ؟ "

ـ " كلا . "

ـ " لكنك كنت . "

ـ " لست متزوجاً الآن . "

ـ " عملك ؟ "

ـ " مساعد أمين مكتبة . "

وتدخل فيدلر بغضب . سأل بسرعة : " أستخدمتك المخابرات البريطانية

Amly نهضة العرب

في السابق ، أليس كذلك ؟ "

ـ " ذلك صحيح . حتى قبل عام مضى . "

استمر فيدلر : " قرأت المحكمة تقارير التحقيق معك ، أريدك أن تبلغهم عن الحديث الذي دار بينك وبين بيتر غيلام في وقت ما من شهر مايس العام الماضي . "

ـ " تقصد عندما تحدثنا عن مندت ؟ " .

ـ " نعم . "

ـ " أخبرتك . كان ذلك في الميدان ، في لندن ، فمقرنا الرئيسي يقع في ميدان كيمبرج . ألتقيت بيتر صدفة في الممر . كنت أعرف أنه كان متورطاً بقضيه فينان . وسألته عما حلّ بجورج سمايلي . ثم انتقلنا للحديث عن ديتر فري الذي توفي ، وعن مندت الذي كان متورطاً في القضية . قال بيتر إنه كان يعتقد أن ميستون الذي كان مكلفاً بالقضية في حينها ـ لم يرغب بالقاء القبض على مندت . "

سأل فيدلر : " و كيف فسرت ذلك ؟ "

ـ " كنت أعرف أن ميستون قد خلط أوراق قضية فينان واعتقدت أنه لم يرغب في تجديد أو إعادة القضية الى الأذهان بمثول مندت أمام محكمة أولد بيلي . "

وتدخلت رئيسة المحكمة متسائلةً : " لو كان قد ألقي القبض على مندت ، فهل كان سيحاكم قانونياً ؟ "

ـ " الأمر مرهون بمن ألقى القبض عليه . فلو كانت الشرطة هي التي أمسكت به ، لكانت قد رفعت القضية الى وزارة الداخلية . بعد ذلك ، ليس من قوة على الأرض تستطيع منع توجيه الإتهام إليه . "

استفسر فيدلر : " وماذا لو أن استخباراتكم هي التي ألقت القبض عليه ؟ "

ـ " تلك مسألة مختلفة . أعتقد أنهم كانوا سيقومون بواحد من أمرين : فإما أن يحققوا معه ثم يحاولوا استبداله بأحد رجالنا المسجونين عندكم ، أو أن يقطعوا له تذكرة . "

ـ " ماذا يعني ذلك ؟ "

ـ " أن يتخلصوا منه . "

ـ " يصفونه ؟ " صار فيدلر هو الذي يطرح الأسئلة كلها الآن وكان أعضاء المحكمة يدونون بجدية في الملفات التي أمامهم .

ـ " لا أعرف ماذا يفعلون . لم أتورط أبداً في تلك اللعبة . "

Amly نهضة العرب

ـ " ألم يحاولوا تجنيده كعميل لهم ؟ "
ـ " نعم . إلا أنهم لم ينجحوا . "
ـ " كيف عرفت ذلك ؟ "
ـ " أوه ، بحق السماء ، لقد أخبرتك مراراً وتكراراً . فأنا لست حيوان فقمة أستعراضي مقيت ! كنت رئيساً لفرقة برلين لأربع سنوات . ولو كان مندت أحد رجالنا ، لكنت قد علمت . ولما استطعت منع نفسي من الاطلاع . "
ـ " تمام . "

بدا فيدلر مقتنعاً بتلك الإجابة ، وربما واثقاً بأن بقية المحكمة لم تكن مقتنعة . ثم وجه عنايته الى عملية رولنغ ستون ، معيداً ليماس مرة أخرى إلى الحديث عن التعقيدات الأمنية الخاصة التي تحكم توزيع الملف ، والرسائل الى مصارف ستوكهولم وهلسنكي والرد الوحيد الذي تسلمه ليماس . وعلّق فيدلر ، وهو يوجه كلامه الى المحكمة :

ـ " لم نحصل على رد من هلسنكي . ولا أعرف السبب . لكن ، دعوني ألخص لكم : أودع ليماس مالاً في ستوكهولم في الخامس عشر من حزيران . وبين الأوراق التي أمامكم ، صورة طبق الأصل من رسالة من المصرف الأسكندنافي الملكي إلى رويرت لانج . وكان رويرت لانج هو الإسم الذي أستخدمه ليماس لفتح حساب الإدخار في كوينهاجن . ومن تلك الرسالة (وتسلسلها الثاني عشر في ملفاتكم) ستلاحظون أن المبلغ بأكمله ـ عشرة آلاف دولار ـ قد سحب من قبل الموقع الشريك في الحساب بعد أسبوع . "

واستأنف فيدلر كلامه قائلاً وهو يشير برأسه الى مندت الواقف بلا حراك في الصف الأمامي ، " أتخيل أن المدعى عليه لن ينكر بأنه كان في كوينهاجن في الحادي والعشرين من حزيران ، مرتبط شكلياً بعمل سري نيابة عن قسم الاستخبارات ، " صمت ثم أستمر قائلاً : " جاءت زيارة ليماس الى هلسنكي ـ الزيارة الثانية التي قام بها لإيداع المبلغ ، في حوالي الرابع والعشرين من أيلول . " استدار ونظر الى مندت مباشرة ، رافعاً صوته ، " في الثالث من تشرين أول قام الرفيق مندت بزيارة سرية الى فنلندا ـ ومرة أخرى بدعوى مصالح قسم الاستخبارات . "

ساد صمت . استدار فيدلر متمهلاً ووجه كلامه مرة أخرى الى المحكمة . وبصوت خافت وتهديدي سأل : " هل تظنون أن الدليل عرضي ؟ دعوني أذكركم بشيء آخر . " ووجه نظره نحو ليماس .

ـ " أيها الشاهد ، خلال نشاطاتك في برلين ، صار لديك ارتباط مع

Amly نهضة العرب

كارل رايباك ، الأمين السابق للحزب الاشتراكي الموحد . ماذا كانت طبيعة ذلك الارتباط ؟ "

ـ " كان عميلي الى أن قتله رجال مندت . "

ـ " تمام . قتله رجال مندت ـ واحد من عدة جواسيس تمت تصفيتهم بسرعة على يد الرفيق مندت قبل أن يتم استجوابهم . لكن ، قبل اغتياله على يد رجال مندت كان عميلاً للشرطة السرية البريطانية ؟ "

هز ليماس رأسه موافقاً .

ـ " هلا وصفت لقاء رايباك مع الرجل الذي تدعوه المشرف ؟ "

ـ " لقد وصل المشرف من لندن الى برلين لرؤية كارل . فيقد كان كارل واحداً من أكثر عملائنا إنتاجية على ما أظن ، وقد أراد المشرف مقابلته . "

وهنا تدخل فيدلر : " وكان من أكثر الثقات ؟ "

ـ " نعم . نعم . كانت لندن تحب كارل ، لم يكن ممن يرتكبون الأخطاء . وعندما ظهر المشرف ، رتبت الأمر لكارل ليصل الى شقتي وتناولنا نحن الثلاثة طعام الغداء سوية .

" لم أحبذ في الحقيقة قدوم كارل الى هناك ، لكنني لم أستطع إبلاغ المشرف بذلك . من الصعب أن أوضح ، لكن لديهم أفكار في لندن ، وهم بعيدون عن الحالة ومقطوعون بحيث كنت هلعاً من أنهم قد يجدون عذراً لتولي أمر كارل بأنفسهم ـ وهم قادرون على ذلك تماماً . "

تدخل فيدلر باقتضاب : " إذن ، رتبت لقاءكم أنتم الثلاثة ؟ وماذا حدث ؟ "

ـ " قبل كل شيء ، طلب المشرف مني أن أتركه ليختلي بكارل ربع ساعة ، لذلك تظاهرت في ذلك المساء بأن ما لدينا من ويسكي قد نفد . وغادرت الشقة وذهبت الى منزل دي يونغ . تناولت هناك كأسين ، واقترضت قنينة وعدت . "

ـ " وكيف وجدتهما ؟ "

ـ " ماذا تقصد ؟ "

ـ " هل كان المشرف ورايباك ما زالا يتحدثان ؟ وإذا كانا كذلك ، فماذا كان موضوع حديثهما ؟ "

ـ " لم يكونا يتحدثان مطلقاً عندما عدت . "

ـ " شكراً . بامكانك أن تجلس . "

عاد ليماس الى مقعده في مؤخرة الغرفة . واستدار فيدلر نحو أعضاء المحكمة الثلاثة وقال : " أود الحديث أولاً عن الجاسوس رايباك الذي قُتل ـ

Amly نهضة العرب

كارل رايباك . أمامكم قائمة بكل المعلومات التي نقلها رايباك الى أليك ليماس في برلين ، قدر استطاعة ليماس تذكرها . إنه سجل خيانة مرعب . دعوني ألخصه لكم . فقد قدّم رايباك لأسياده تحليلاً مفصلاً عن عمل وشخصيات قسم الاستخبارات بأكمله . فقد كان قادراً ، إذا ما صدقنا ليماس ، على وصف أعمال أكثر جلساتنا سرية . وبأعتبارهِ سكرتير مجلس الرئاسة ، قدم محاضر أكثر مداولات المجلس سريةً .

كان ذلك سهلاً عليه ، فقد كان يقوم بجمع سجل كل اجتماع . بيد أن وصول رايباك الى شؤون الاستخبارات السرية أمر مختلف . من أختار رايباك لعضوية لجنة حماية الشعب في نهاية ١٩٥٩ ، تلك اللجنة الفرعية الحيوية المنبثقة عن مجلس الرئاسة والتي تنسق وتناقش شؤون أجهزتنا الأمنية ؟ من أقترح ضرورة حصول رايباك على امتياز الإطلاع على ملفات الاستخبارات ؟ مَن في نهاية كل مرحلة من حياة رايباك العملية منذ ١٩٥٩ (السنة التي عاد فيها مندت من انجلترا ، كما تذكرون) ، أنتقاه لمناصب ذات مسؤولية أستثنائية ؟ سأخبركم . إنه نفس الرجل الذي يحتل المنصب الوحيد الذي يمكن من خلاله تغطية نشاطاته التجسسية : هانز ديتر مندت . دعونا نتذكر كيف اتصل رايباك بوكالات المخابرات الغربية في برلين ـ وكيف خرج محمد في البحث عن سيارة دي يونغ في نزهة ويضع القلم في داخلها . ألا تندهشون من معرفة رايباك المسبقة ؟ كيف تسنى له معرفة مكان تلك السيارة وفي ذلك اليوم نفسه ؟ لم يكن رايباك يمتلك سيارة خاصة به ، ولم يكن بإمكانه متابعة سيارة دي يونغ من منزله في برلين الغربية .

كانت هناك طريقة واحدة يستطيع بواسطتها أن يعرفه ـ من خلال مساعدة شرطة أمننا التي بعثت بتقرير عن وجود دي يونغ كمسألة روتينية حالما مرت السيارة من نقطة تفتيش القطاع الدولي . تلك المعلومة كانت متاحة لـ مندت ، ووفرها مندت لـ رايباك . تلك هي القضية ضد هانز ديتر مندت ـ أقول لكم ، إن رايباك كان صنيعته ، حلقة الوصل بين مندت وأسياده الإمبرياليين ! "

صمت فيدلر ثم أضاف بهدوء : " مندت ـ رايباك ـ ليماس : تلك كانت سلسلة القيادة ، وإنها من بديهيات التكتيك الاستخباري في كل أنحاء العالم أن تبقى كل حلقة في السلسلة جاهلة بالحلقات الأخرى قدر الامكان . وهكذا ، صحيح أن يؤكد ليماس أنه لا يعرف شيئاً يضر بـ مندت : وذلك ليس اكثر من برهان على حسن العمل الأمني لدن أسياده في لندن .

وقد أبلغتم كذلك كيف إن القضية المعروفة باسم رولنغ ستون قد جرت

Amly نهضة العرب

في ظل ظروف سرية خاصة وكيف أن لياس كان يعرف بشيء من الغموض عن قسم استخباري برئاسة بيتر غيلام كان يفترض فيه أنه يعنى بالشؤون الاقتصادية في جمهوريتنا ، قسم كان ، ويا للعجب ، على قائمة توزيع رولنغ ستون . دعوني أذكركم أن نفس بيتر غيلام كان واحداً من عدد من ضباط الأمن البريطانيين الذين تورطوا في التحقيق في نشاطات مندت أثناء وجوده في إنجلترا . "

رفع الرجل شاب الملامح الجالس وراء المنضدة ، قلم الرصاص ، وهو ينظر الى فيدلر بعينيه القاسيتين الباردتين المفتوحتين ، وسأله : " إذن ، لماذا قام مندت بتصفية رايباك ، إذا ما كان رايباك عميله ؟ "

ـ " لم يكن لديه بديل . فقد كان رايباك محط اشتباه . فقد خانته خليلته في طيش متبجح . وأصدر مندت الأمر بقتله حال رؤيته ، وأبلغ رايباك بالهرب ، وتم القضاء على خطر الخيانة . وفيما بعد ، اغتال مندت المرأة .

أود أن أتوقف برهة عند أسلوب مندت . فبعد عودته الى المانيا في ١٩٥٩ ، لعبت المخابرات البريطانية لعبة انتظار . فقد كان لا بد من إظهار استعداد مندت للتعاون معهم ، لذلك أعطوه تعليمات وانتظروا بصبر أن تثمر الأموال التي دفعوها له . في ذلك الوقت ، لم يكن مندت موظفاً كبيراً في دائرتنا ـ ولا في حزبنا ـ لكنه شاهد الكثير ، وبدأ بكتابة تقارير عما رأى . وكان بالطبع يتصل بأسياده دون مساعدة . ويجب أن نفترض أنهم قابلوه في برلين الغربية ، وأنه تم الاتصال به والتحقيق معه في رحلاته القصيرة الى اسكندنافيا ومناطق أخرى . ولا بد من أن البريطانيين كانوا يقظين في البداية ـ ومَنْ لا يمكن أن يكون حذراً ؟

قلّبوا الرأي فيما أعطاهم بدقة متناهية مقابل ما كانوا يعرفونه أصلاً ، لكنهم كانوا يخشون قيامه بدور مزدوج . لكن ، تدريجياً ، أدركوا أنهم اكتشفوا منجم ذهب . وقد باشر مندت بعمله الخياني بالكفاءة المنظمة التي يعرف بها . أولا ـ وهذا تخميني ـ لكنه تخمين يستند ، أيها الرفاق ، على خبرة طويلة . في هذا الميدان وعلى شهادة لياس - وفي الأشهر القليلة الأولى ، لم يهتموا باقامة أي نوع من الشبكات التي شملت مندت . فقد تركوه ليكون ذئباً وحيداً ، وخدموه ، ودفعوا له وأرشدوه بمعزل عن منظمتهم في برلين . وفي لندن ، شكّلوا قسماً صغيراً سرياً ، بقيادة غيلام (ذلك لأنه هو الذي جند مندت في إنجلترا) ، لم تكن مهمته معروفة حتى داخل الدائرة باستثناء مجموعة خاصة . وكانوا يدفعون لمندت عن طريق نظام خاص أسموه رولنغ ستون ، وبلا شك ، عاملوا المعلومات التي زودهم بها

Amly نهضة العرب

بحذر استثنائي . وهكذا ، كما ترون ، فإن الكلام يتفق مع اعتراضات ليماس من أن وجود مندت لم يكن معلوماً لديه ، رغم ـ وكما سترون ـ أنه لم يدفع له فحسب ، بل تسلم في النهاية فعلاً من رايماك وعبر الى لندن المعلومات التي حصل عليها مندت .

ونحو نهاية ١٩٥٩ ، أبلغ مندت أسياده في لندن أنه عثر داخل مجلس الرئاسة على رجل يمكن أن يكون وسيطاً بينه وبينهم . ذلك الرجل كان كارل رايماك . كيف عثر مندت على رايماك ؟ وكيف تجرأ في التحقق من استعداد رايماك للتعاون ؟ لا بد أن تتذكروا منصب مندت الاستثنائي : فقد كان يستطيع الوصول الى كل الملفات الأمنية ، والتنصت على الهواتف ، وفتح الرسائل ، واستخدام مراقبين ، وكان بامكانه استجواب أي شخص بلا جدال ، وكانت لديه الصورة المفصلة عن حياتهم الخاصة ـ وفوق كل شيء ، كان يستطيع إخماد أي شك بلحظة واحدة فهو يستطيع أن يستخدم ضد أشخاص معينين ، " وهنا أخذ صوت فيدلر يتموج غضباً : " السلاح الذي وُضع لحمايتهم . " وبعد أن عاد بهدوء الى أسلوبه العقلاني السابق ، أستأنف فيدلر كلامه : " بإمكانكم الآن أن تشاهدوا ما فعلته لندن . فبعد أن استمروا في إخفاء هوية مندت ، تغاضوا عن تجنيد رايماك وساعدوا في إقامة صلة غير مباشرة بين مندت وقيادة برلين . تلك هي أهمية إتصال رايماك بـ دي يونغ وليماس . هكذا يجب أن تفسروا شهادة ليماس ، وهكذا يجب أن تقيسوا خيانة مندت " .

إستدار ، وبعد أن نظر ملياً في وجه مندت ، صرخ قائلاً : " أيها الارهابي ! المخرب . هذا هو الرجل الذي باع حقوق الشعب !

أوشكت على الانتهاء . شيء واحد آخر فقط لا بد من قوله . لقد كسب مندت سمعة كمدافع مخلص وذكي عن الشعب ، وقد أخرس والى الأبد تلك الألسن التي كانت تستطيع إفشاء سره . وهكذا قتل باسم الشعب ليغطي خيانته الفاشية ، وتقدم وظيفياً داخل مخابراتنا . ليس ممكناً تخيل جريمة أكثر بشاعة من هذه . ولهذا ، وبعد أن أتم ـ في النهاية ـ ما كان يستطيعه لحماية كارل رايماك من الشك الذي كان يحوم حوله بصورة متصاعدة ، أصدر الأوامر بقتل رايماك حال مشاهدته . ولهذا ، رتب لاغتيال عشيقة رايماك . وعندما يحين الوقت لأرفع قراركم الى مجلس الرئاسة ، لا تترددوا في كشف الوحشية الكاملة لجريمة هذا الرجل . فالموت بالنسبة لهانز ـ ديتر مندت هو حكم بالرحمة . "

Amly نهضة العرب

٢١ * الشاهد

استدارت الرئيسة الى الرجل القصير ذي البدلة السوداء الجالس مقابل فيدلر مباشرة .

ـ " رفيق كاردن ، أنت تتحدث نيابة عن الرفيق مندت . هل ترغب في استجواب الشاهد ليماس ؟ "

أجاب وهو ينهض بثاقل ويسحب نهاية نظارته ذهبية الحواف فوق أذنيه : " نعم ، نعم ، سأفعل ذلك خلال فترة قصيرة . " . كان لطيفاً ، فيه شيء من البساطة ، وأبيض الشعر .

بدأ كلامه : " إن دفاع الرفيق مندت ، " وهنا غير من طبقة صوته الهادىء بطريقة جذابة ، " هو أن ليماس يكذب ، وأن الرفيق فيدلر قد انجر عن قصد أو سوء حظ الى مؤامرة تهدف إلى تدمير قسم الاستخبارات ، ومن ثم تشويه سمعة أجهزة الدفاع عن دولتنا الاشتراكية . لا نجادل بأن كارل رايماك كان جاسوساً بريطانياً ـ فهناك دليل على ذلك . لكننا نفند القول بأن مندت كان على صلة به ، أو قبل مالاً لخيانة حزبنا . نقول ليس هناك دليل موضوعي على هذا الإتهام ، وأن الرفيق فيدلر مهووس بأحلام السلطة ومعمي عن التفكير العقلاني . ونحن نرى أنه منذ اللحظة التي عاد بها ليماس من برلين الى لندن عاش معزولاً ، وأنه تظاهر بالانحدار السريع الى الانحلال والسكر والاستدانة ، وأنه هاجم بقالاً أمام أنظار الناس وأثار عواطف معادية لأمريكا ـ كل ذلك من أجل جذب انتباه استخباراتنا فقط . ونحن نعتقد أن المخابرات البريطانية قد حاكت عن عمد شبكة من البراهين العرضية حول الرفيق مندت ـ دفع أموال لمصارف أجنبية ، وسحبها لتتوافق مع وجود مندت في هلسنكي في ذلك الوقت ، الدليل العرضي الكاذب من بيتر غيلام ، الاجتماع السري بين الضوء ورايماك الذي توقشت فيه نقاط لم يستطع ليماس

Amly نهضة العرب

سماعها : وقد وفرت كل هذه سلسلة أدلة كاذبة قبلها الرفيق فيدلر الذي عولت المخابرات البريطانية بدقة كبيرة على طموحاته . وهكذا صار طرفاً في مؤامرة خبيثة للتدمير ـ للقتل ، في الحقيقة ، لأن مندت يقف الآن ليواجه الموت ـ وهو واحد من أفضل حماة جمهوريتنا اليقظين .

أليس من الطبيعي ، وهم أصحاب سجل في التخريب والهدم والمتاجرة بالأنسان ، أن يقوم البريطانيون بتدبير هذه المؤامرة البائسة ؟ وأي طريق آخر أمامهم بعد أن شيد السور عبر برلين وتم إيقاف تدفق الجواسيس الغربيين ؟ لقد وقعنا ضحية لمؤامرتهم ، وفي أفضل الأحوال ، فإن الرفيق فيدلر مذنب بخطأ خطير جداً ، وفي أسوأ الأحوال مذنب بالتواطؤ مع جواسيس إمبرياليين لإضعاف أمن دولة العمال وسفك الدماء البريئة .

نحن أيضاً لدينا شاهد ، " وأومأ برأسه بلطف نحو المحكمة . " نعم . نحن أيضا لدينا شاهد . فهل تعتقدون حقاً أن الرفيق مندت كان غافلاً كل هذا الوقت عن تآمر فيدلر المحموم ؟ هل تعتقدون ذلك حقاً ؟ لقد كان مدركاً ، وعلى مدى عدة شهور ، مرض فيدلر العقلي . وكان الرفيق مندت هو الذي أصدر الأمر بالتعامل مع ليماس في إنجلترا : فهل ترون أنه كان سيقوم بمثل هذه المجازفة المجنونة إذا ما كان هو نفسه متورطاً في الأمر ؟

وعندما وصلت تقارير أول استجواب مع ليماس في لاهاي الى مجلس الرئاسة ، هل تعتقدون أن الرفيق مندت قد نحى الاستجواب جانباً دون قراءة ؟ وعندما باشر فيدلر باستجوابه الخاص بعد أن وصل ليماس بلادنا ، هل تظنون أن الرفيق مندت كان من البلادة بحيث لم يعرف ما الذي كان يضمره فيدلر ؟ وعندما وصلت أولى التقارير من بيترز في لاهاي ، ما كان على مندت سوى القاء نظرة على تواريخ زيارات ليماس الى كوبنهاجن وهلسنكي ليدرك أن الأمر كله كان مؤامرة ـ مؤامرة لتشويه سمعة مندت . وتتصادف تلك التواريخ في الواقع مع زيارات مندت الى الدنمارك وفنلندا : فقد أختارتها لندن لذلك السبب فقط . وكان مندت قد علم بتلك " المؤشرات المبكرة " كما عرفها فيدلر ، تذكروا ذلك . فقد كان مندت هو الآخر يبحث عن جاسوس في صفوف استخباراتنا .

وهكذا ، في اللحظة التي وصل فيها ليماس الى المانيا الديمقراطية ، كان مندت يراقب بدهشة كيف غذى ليماس شكوك فيدلر بتلميحات ومؤشرات تعوزها الدقة ـ إشارات لم يفرط في أدائها أبداً ، كما تفهمون ، لم يؤكد عليها مطلقاً ، بل أسقطت هنا وهناك بخبث مخادع . وبذلك الوقت ، تهيأت الظروف ـ الرجل الذي ألتقاه في لبنان ـ والنبأ المعجزة الذي أشار إليه فيدلر ،

Amly نهضة العرب

وهما ظرفان يبدو كأنهما يؤكدان وجود جاسوس رفيع المستوى بين صفوف قسم الاستخبارات .

لقد أعدت الخطة بطريقة مدهشة . وكان بامكانها أن تحول ـ ولا تزال الفرصة قائمة ـ الهزيمة التي ذاقتها بريطانيا بفقدان كارل رايماك الى نصر مرموق .

وقد أنفذ الرفيق مندت إجراءً وقائياً واحداً أثناء قيام البريطانيين ، بمساعدة فيدلر ، بالتخطيط لقتله . فقد أمر بإجراء تحريات شديدة الدقة في لندن . وتفحص كل تفصيل صغير لتلك الحياة المزدوجة التي كان ليماس يحياها في بيزووتر . وقد كان يبحث ، كما ترون ، عن خطأ بشري في مخطط ذي خبائة فوق بشرية ـ وظن أنه سيجده في نقطة ما في مرحلة اعتزال ليماس الطويلة .

كان لا بد أن يحنث بوعده أو بعهده في العيش في فقر ، وسُكر ، وانحلال ، وفوق كل شيء في عزلة . كان لابد أن يحتاج الى أنيس ، ربما الى خليلة ، وكان لا بد أن يشعر بالحنين الى دفء العلاقة الإنسانية ، الحنين إلى الكشف عن الجزء الآخر من الروح الكامنة في صدره . كما ترون ، كان الرفيق مندت على صواب . فقد ارتكب ليماس ـ ذلك العميل الماهر المجرب ، خطأ بدائياً وإنسانياً جداً ـ " وابتسم كاردن ، " ستستمعون الى الشاهد ، لكن ليس الآن . الشاهد هنا ، أحضره الرفيق مندت بعد جهد جهيد . وكان احتراساً مثيراً للأعجاب . فيما بعد ، سأطلب ذلك الشاهد . "

نظر نظرة ماكرة وكأنه يريد أن يسمح له بنكتته الصغيرة . " في هذه الاثناء ، أود ، إنْ سمحتم ، أن أوجه سؤالاً أو سؤالين الى هذا الشاهد المكره ، السيد أليك ليماس . "

بدأ : " قل لي ، هل أنت رجل غني ؟ "

قال ليماس باختصار : " لا تكن ساذجاً . أنت تعرف كيف تم التقاطي . "

أعلن كاردن : " نعم ، كانت عملية رائعة حقاً . أفهم إذن أنك تسمح لي بالأعتقاد بأنك لا تملك مالاً على الإطلاق . "

ـ " نعم . أسمح لك بذلك . "

ـ " هل لديك أصدقاء يقرضونك المال ، أو ربما يعطونك إياه ؟ أو يسددون ديونك ؟ "

Amly نهضة العرب

ـ " لو كان لدي لما كنت هنا الآن . "
ـ " ليس لديك أحد ؟ ألا يمكنك أن تتخيل وجود محسن كريم ، أو ربما شخص نسيته تقريباً ، ممن كرسوا أنفسهم لإيقاظك على قدميك . . . أو تسوية ديونك وشيء من ذلك القبيل ؟ "
ـ " لا . "
ـ " شكراً . سؤال آخر : هل تعرف جورج سمايلي ؟ "
ـ " بالطبع أعرفه . كان في " الميدان " . "
ـ " وقد ترك المخابرات البريطانية الآن ؟ "
ـ " تركها بعد قضية " فينان " . "
ـ " أجل ـ تلك القضية التي ورد فيها إسم مندت . هل رأيته منذ ذلك الحين ؟ "
ـ " مرة أو مرتين . "
ـ " هل رأيته منذ أن تركت الميدان ؟ "
تردد ليماس ثم قال : " لا . "
ـ " ألم يزرك في السجن ؟ "
ـ " لا . لم يزرني أحد . "
ـ " وقبل أن تدخل السجن ؟ "
ـ " لا . "
ـ " بعد أن غادرت السجن ـ أي يوم إطلاق سراحك في الحقيقة ، ألتقطك رجل . يدعى آش ، أليس كذلك ؟ "
ـ " نعم . "
ـ " وتناولت الغداء معه في سوهو . وبعد أن افترقتما ، أين ذهبت ؟ "
ـ " لا أتذكر . ربما ذهبت الى حانة . ليس لدي فكرة . "
ـ " دعني أساعدك . في نهاية الأمر ، ذهبت الى شارع فليت وأخذت حافلة . ومن هناك يبدو أنك تعرجت في طريقك مستقلاً حافلة ، ثم قطار انفاق ، ثم سيارة خاصة ـ وهو أمر لا يدل على حذاقة لرجل بخبرتك ـ باتجاه تشلسي هل تتذكر ذلك ؟ أستطيع أن أريك التقرير إذا أحببت ـ فهو موجود معي هنا . "
ـ " ربما تكون مصيباً . ثم ماذا ؟ "
ـ " جورج سمايلي يسكن في شارع " بايووتر ، على مقربة من شارع كنج رود ، تلك هي ملاحظتي . اتجهت سيارتك الى بايووتر وذكر وكيلنا في تقريره بأنهم انزلوك عند المنزل رقم ٩ . إنه منزل سمايلي . "

Amly نهضة العرب

قال ليماس : " هذا هراء ، أظن أني ذهبت الى أيت بلز . وهي واحدة من حاناتي المفضلة . "

ـ " بسيارة خاصة ؟ "

ـ " ذلك هراء كذلك . أعتقد أنني ذهبت بسيارة أجرة . فلو توفر لدي مال ، لكنت أنفقه . "

ـ " لكن ، لماذا كل هذا الطواف مسبقاً ؟ "

ـ " ذلك مجرد سخافة . ربما كانوا يلاحقون رجلاً آخر وكان ذلك أمراً معتاداً تماماً . "

ـ " وأعود الى سؤالي : ألا تتصور أن يكون سمايلي قد أولاك شيئاً من الأهتمام بعد تركك الميدان ؟ "

ـ " يا إلهي ، لا . "

ـ " ولم يهتم بيأحوالك بعد دخولك السجن ، ولم ينفق أموالاً على مَنْ تعيل ، ولم يرغب في لقائك بعد أن ألتقيت آش ؟ "

ـ " لا ، ليس لدي أدنى فكرة عما تحاول قوله يا كاردن ، بيد أن الجواب هو لا . لو كنت قد قابلت سمايلي لما سألت . فنحن مختلفان قدر ما يمكن أن يكون الاختلاف . "

بدا كاردن مسروراً الى حد ما بهذا ، وهو يبتسم لنفسه ويومىء برأسه اثناء تعديله نظاراته ، راجعاً بأناة الى ملفه .

قال كأنه نسي شيئاً : " أوه . نعم ، عندما طلبت أن تستدين من البقال ، كم كان لديك ؟ "

ـ قال ليماس بلا مبالاة : " لا شيء . كنت مفلساً لمدة أسبوع أو أكثر على ما أظن . "

ـ " وعلام كنت تعيش ؟ "

ـ " نتف وكسر . كنت مريضاً . نوع من الحمى ـ لم أتناول شيئاً يذكر لمدة أسبوع . وأعتقد أن ذلك جعلني متوتر الأعصاب ـ لقد قلبت الموازين . "

ـ " بالطبع كانوا مدينين لك ببعض المال في المكتبة ، أليس كذلك ؟ "

سأل ليماس بحدة : " كيف عرفت ذلك ؟ هل كنت . . . "

ـ " لماذا لم تذهب الى المكتبة وتأخذه ؟ عندها ما كنت ستحتاج الى أن تستدين ، أليس كذلك يا ليماس ؟ "

هز ليماس كتفيه لامبالياً .

ـ " نسيت . ربما لأن المكتبة كانت تغلق صباح يوم السبت . "

Amly نهضة العرب

ـ " فهمت . هل أنت متأكد من أن المكتبة تغلق أبوابها صباح السبت ؟ "

ـ " لا . مجرد تخمين . "

ـ " تمام . شكراً . هذا كل ما لدي من الأسئلة . "

كان ليماس على وشك الجلوس عندما فتحت الباب ودخلت امرأة . كانت ضخمة وقبيحة ، ترتدي بدلة رمادية ذات حمالتين عليها شارات رتبة عسكرية على ردن واحدة . وخلفها وقفت لِز .

Amly نهضة العرب

٢٢ * الرئيسة

دخلت المحكمة مترددة ، تنظر حواليها ، مشدودةً ، مثل طفل نصف مستيقظ يدخل غرفة شديدة الإضاءة . كان ليماس قد نسي كم كانت صغيرة ، وعندما رأته جالساً بين حارسين ، توقفت : " أليك . "

وضع الحارس الذي كان الى جانبها يده على ذراعها وقادها الى الأمام ، الى المكان الذي كان ليماس يقف فيه . وكان الهدوء مخيماً على غرفة المحكمة .

سألتها الرئيسة على نحو مفاجيء : " ما اسمك يا طفلتي ؟ " . كانت يداها الطويلتان مسبلتين الى جنبيها ، وأصابعها في وضع مستقيم .

ـ " ما اسمك ؟ " كررت الرئيسة سؤالها بصوت عالٍ هذه المرة .

ـ " إلزابيث غولد . "

ـ " أنت عضو في الحزب الشيوعي البريطاني ؟ "

ـ " نعم . "

ـ " وكنت تقيمين في لايبزج مؤخراً ؟ "

ـ " نعم . "

ـ " متى أنتميت الى الحزب ؟ "

ـ " ١٩٥٥ ـ لا . ٥٤ ـ أظن أنه كان . . . " قاطعها صوت حركة ، صرير أثاث يزاح جانباً ، وصوت ليماس ، الأجش ، عالي الطبقة ، القبيح يملأ الغرفة .

ـ " أنتم يا أوغاد ، أتركوها لحال سبيلها ! "

استدارت لِز مرتعبة ورأته واقفاً ، ووجهه الشاحب ينزف وملابسه رثة ، ورأت حارساً يضربه بقبضته حتى كاد أن يسقط ، ثم وقف الحارسان فوقه ، رفعاه ، وألقيا بذراعيه عالياً وراء ظهره . سقط رأسه الى أمام على صدره ، ثم تلوى على الجانبين من الألم .

Amly نهضة العرب

أمرت الرئيسة : " إذا تحرك مرة أخرى ، أخرجوه . " وهزت رأسها بأتجاه ليماس محذرةً : " تستطيع أن تتكلم مرة أخرى فيما بعد إن أردت . انتظر . "

بعد أن استدارت نحو لِز ، قالت بحدة : " بالتأكيد تعرفين متى انضممت الى الحزب ؟ "

لم تقل لِز شيئاً ، وبعد أن انتظرت لحظة ، هزت الرئيسة كتفيها علامة أستغراب . وبعد أن اتكأت الى أمام محدقة في لِز عن قصد سألتها : " إلزابيث ، هل سبق وأن بلغت في الحزب عن الحاجة الى السرية ؟ "

أومأت لِز برأسها .

ـ " وقد بلغت بأن لا يجوز طرح أسئلة مطلقاً على رفيق آخر في التنظيم بشأن الترتيبات الحزبية ؟ "

أومأت لِز برأسها مرة أخرى وقالت : " نعم ، بالطبع . "

ـ " اليوم ستخضعين لأختبار قاس في تلك القاعدة . ومن الأفضل لك ، الأفضل جداً ، ألاّ تعرفي شيئاً . لا شيء . " أضافت الرئيسة بتأكيد مفاجيء . " ليكن هذا كافياً : نحن الثلاثة ، الجالسون على هذه المائدة نتبوأ مراكز عالية جداً في الحزب . ونحن نعمل بعلم من مجلس رئاستنا ، لصالح أمن الحزب . وعلينا أن نسألك بعض الأسئلة ، إن اجاباتك ستكون ذات أهمية قصوى . وبالرد الصادق والشجاع ستساعدين قضية الإشتراكية . "

همست لِز : " لكن مَن ؟ مَن المتهم ؟ ماذا فعل أليك ؟ "

نظرت الرئيسة من ورائها الى مندت وقالت : " ربما ليس هناك متهم . تلك هي المشكلة . ربما هناك اتهام فقط . إن هوية المتهم ليست هي المهمة . وكونك لا تعرفين مَن هو المتهم دليل على حيادك . "

ساد صمت قصير في الغرفة الصغيرة . ومن ثم ، وبصوت هاديء جداً اضطر الرئيسة لأن تدير رأسها عفوياً لتلتقط الكلام ، قالت لِز : " هل هو أليك ؟ هل هو ليماس ؟ "

قالت رئيسة المحكمة باصرار : " أؤكد لك ، من الأفضل لك ـ الأفضل كثيراً ـ ألا تعرفي . عليك الإدلاء بالحقيقة والرحيل . هذا أكثر الاشياء حكمة . "

لابد أن لِز قامت بإشارة ما أو همست بكلمات لم يسمعها الآخرون لأن الرئيسة أحنت رأسها الى أمام مرة أخرى ، وقالت بتأكيد كبير : " إسمعي يا طفلتي ، هل تريدين العودة الى بلادك ؟ إفعلي كما أخبرك وستعودين . لكن ، إذا ما . . " توقفت عن الكلام وأشارت الى كاردن بيدها وأضافت

Amly نهضة العرب

بـأيجـاز : " هذا الرفـيق يريد أن يسألك بعض الأسئلة ، إنها ليـست كـثيرة ، بعدها تغادرين . قولي الحقيقة . "

نهض كـادرن مرة أخرى ، وابتـسم ابتسامته اللطيفة الوقور .

ـ " إلزابيث ، كان أليك ليماس عشيقك ، أليس كذلك ؟ "

أومأت برأسها بالإيجاب .

ـ " ألتقيتما في المكتبة في بيزووتر حيث تعملين . "

ـ " نعم . "

ـ " لم تكوني قد عرفته قبل ذلك ؟ "

هزت رأسـها نفياً : " ألتقينا في المكتبة . "

ـ " إلزابيث ، هل كان لديك عشاق كثيرون ؟ "

لم يسـمع أحـد مـا قـالت بعـد أن صرخ ليماس مـرة أخـرى : " كاردن يا خنزير . " لكن ، بعـد أن سـمـعـته استدارت وقالت بصوت عالٍ مسمـوع : " أليك ، لا تصرخ . سيأخذونك " .

قالت الرئيسة بجفاف : " نعم ، سيأخذونه . "

اسـتأنف كـاردن استجوابه بهدوء : " قولي لي . هل كان أليك شيوعياً ؟ "

ـ " لا . "

ـ " هل كان يعلم أنك كنت شيوعية ؟ "

ـ " نعم . أخبرته . "

ـ " مـاذا قال عندما أخبرته بذلك ، يا إلزابيث ؟ "

لم تعـرف إن كـان عليـها أن تكذب أم لا ، كان ذلك هو الشيء الفظيع . فـقـد تقـاطرت الأسئلة بسرعـة بحيث لم تتح لها فـرصة للتفكير . كانوا طوال الوقت يصـغـون ، ويراقـبون ، وينتظرون كلمة ، ربما إشارة ، يمكن أن توقع ضرراً مـريعـاً بـ أليك . ما كان بوسعها أن تكذب دون أن تعرف طبيعة الخطر المحـدق ، خطأ منهـا ويمـوت أليك ـ لأنها لم تشك في داخلها أن ليماس كان في خطر .

كـرر كاردن سؤاله : " ماذا قال عندها ؟ "

ـ " ضحك . فقد كان فوق مستوى كل ذلك . "

ـ " هل تعتقدين بأنه كان فوق مستوى ذلك ؟ "

ـ " بالطبع . "

تحـدث الشـاب الجـالس وراء منضـدة القـضاة للمرة الثانية ، وكانت عيناه نصف مـغمضتين : " هل تعتبرين ذلك حكماً صحيحاً عن إنسان ؟ بأنه فوق مـسيرة التاريخ وقوانين الجدل ؟ "

Amly نهضة العرب

ـ " لا ادري . إنه ما اعتقدت ، هذا كل شيء . "
قال كاردن : " لا تقلقي . أخبريني ، هل كان شخصاً مرحاً ، دائم الضحك أو شيئاً من ذلك القبيل ؟ "
ـ " لا . لم يكن يضحك في أغلب الأوقات . "
ـ " لكنه ضحك عندما أخبرته بأنك منتمية للحزب ، هل تعرفين السبب ؟ "
ـ " أعتقد أنه كان يستخف بالحزب . "
سألها كاردن عرضياً : " هل تعتقدين بأنه كان يكره الحزب ؟ "
أجابت لِز بطريقة مثيرة للشفقة : " لا أدري " .
ـ " هل كان رجلاً ذا نزوات قوية ؟ "
ـ " كلا . . كلا . لم يكن . "
ـ " لكنه هاجم بقالاً . والآن ، لماذا فعل ذلك ؟ "
فجأة لم تثق لِز بـ كاردن بعد ذلك . لم تثق بالصوت اللطيف والوجه الذي يشبه وجه الجني الطيب .
ـ " لا أعرف . "
ـ " لكنكِ فكرت في الأمر ؟ "
ـ " نعم . "
ـ " حسناً ، وأي استنتاج خرجت به ؟ "
قالت لِز ببرود : " لا شيء . " .
نظر اليها كاردن بتأمل ، ربما خائب الظن نوعاً ما وكأنها نسيت تعليماتها العقائدية . وسألها ، وربما كان هذا السؤال أكثر الأسئلة وضوحاً : " هل كنت تعرفين أن ليماس كان ينوي ضرب البقال ؟ "
أجابت لِز : " لا ، " ربما بسرعة شديدة حتى أن ابتسامة كاردن تراجعت أمام نظرة حب استطلاع مثيرة في فترة الصمت التي تلت .
سألها أخيراً : " حتى الآن ، الى هذا اليوم ؟ متى رأيت ليماس آخر مرة ؟ "
ـ " لم أره مرة أخرى بعد أن زج به في السجن . "
ـ " إذن ، متى كانت آخر مرة شاهدته فيها ؟ " كان صوته رقيقاً لكن مصراً .
لقد كرهت لِز أن يكون ظهرها مواجهاً للمحكمة . وتمنت لو تستطيع الدوران ورؤية ليماس ، ربما رؤية وجهه ، ولتقرأ فيه نصيحة ما ، إشارة ما تخبرها عن كيفية الإجابة . بدأت تخاف على نفسها . تلك الأسئلة التي

Amly نهضة العرب

انبثقت عن تهم وشكوك لم تعرف عنها شيئاً . لابد أن يعرفوا أنها أرادت مساعدة أليك ، وأنها كانت خائفة ـ بيد ان أحداً لم يساعدها ـ لم لا يساعدها أحد ؟

ـ " إلزابيث ، متى كان آخر لقاء لك مع ليماس ؟ " آه من ذلك الصوت ، كم كرهته ، ذلك الصوت الناعم .

أجابت : " الليلة السابقة لحدوث المشاجرة ، " الليلة التي سبقت شجاره مع السيد فورد . "

ـ " الشجار ؟ لم يكن شجاراً يا إلزابيث . فالبقال لم يرد على ضربته ـ أليس كذلك ـ لم تتوفر له فرصة ـ أمر غير لائق بالروح الرياضية ! " ضحك كاردن . وكان ذلك أكثر الأشياء فظاعةً لأن أحداً لم يضحك معه . " أخبريني ، أين قابلتِ ليماس في تلك الليلة الأخيرة ؟ "

ـ " في شقته . كان مريضاً وعاطلاً . كان طريح الفراش وكنت أزوره وأطبخ له . "

ـ " وتشترين الطعام ؟ وتتسوقين له ؟ "

ـ " نعم . "

ـ " يالكرمك . لابد أن كلفك ذلك الكثير من المال ؟ "

قال كاردن بلهجة متعاطفة : " هل كنت قادرة على إعالته ؟ "

ـ " لم أعله . أخذت المال من أليك . كان هو . . "

قال كاردن بحدة : " أوه ، إذن كان لديه شيء من المال ؟ "

فكرت لِز : آه يا إلهي يا إلهي ، ماذا قلت ؟

قالت بسرعة : " ليس كثيراً ، ليس كثيراً . أنا أعرف . جنيه واحد ، إثنان ، ليس أكثر . لم يكن لديه أكثر من ذلك . لم يستطع دفع فواتيره ـ قائمة الكهرباء وبدل الإيجار ـ دفعت كلها فيما بعد ، كما ترى ، بعد أن رحل ، من قبل صديق . كان على أحد الاصدقاء أن يسدد وليس أليك . "

قال كاردن بهدوء : " بالطبع . دفع صديق . جاء خصيصاً ودفع كل قوائمه . صديق قديم من أصدقاء ليماس ، شخص عرفه قبل أن ينتقل الى بيزووتر ، ربما . إلزابيث ، هل قابلت هذا الصديق مرة ؟ "

هزت رأسها نفياً .

ـ " فهمت . ما هي القوائم الأخرى التي دفعها هذا الصديق الطيب ، هل تعرفين ؟ "

ـ " لا . . . لا . "

ـ " لماذا تترددين ؟ "

Amly نهضة العرب

ردت لِز بشراسة : " قلت لا أعرف . "
أوضح كاردن : " لكنك ترددتِ ، وتساءلت إن كان لديكِ أفكار ثانية . "
ـ " لا . "
ـ " هل سبق وأن تحدث ليماس مرة عن هذا الصديق ؟ صديق ميسور الحال كان يعرف أين يعيش ليماس ؟ "
ـ " لم يذكر إسم صديق على الإطلاق . لم اعتقد أن لديه اي أصدقاء . "
ـ " آه . "
ساد الغرفة صمت فظيع ، أكثر فظاعة بالنسبة لـ لِز لأنها كانت منقطعة عن كل أولئك المحيطين بها مثل طفل أعمى بين المبصرين . كانوا يقيسون إجاباتها وفق مقياس سري ، ولم تستطع أن تعرف من الصمت المخيف ما الذي وجدوه فيها .
ـ " إلزابيث ، كم تكسبين ؟ "
ـ " ستة جنيهات أسبوعياً . "
ـ " هل لديك أية مدخرات ؟ "
ـ " قليل . بضعة جنيهات . "
ـ " وكم يبلغ إيجار شقتك ؟ "
ـ " خمسون شلناً أسبوعياً . "
ـ " ذلك كثير جداً ، أليس كذلك ، يا إلزابيث ؟ هل دفعت ايجارك مؤخراً ؟ "
هزت رأسها بيأس .
استمر كاردن : " لم لا ؟ ليس معك مال ؟ "
وأجابت هامسة : " لدي عقد إيجار . أحدهم اشترى العقد وبعث به إليّ . "
ـ " منْ ؟ "
ـ " لست أدري ؟ " كانت الدموع تتقاطر منهمرة على وجهها . " لا أدري . . . أرجوك ، لا تطرح علي المزيد من الأسئلة . لا أعرف مَنْ كان . . . قبل ستة أسابيع أرسلوا العقد ، مصرف في المدينة . . مؤسسة خيرية ما قامت بالعمل . . ألف جنيه . أقسم أنني لا أعرف مَنْ . . . هدية من مؤسسة خيرية ، هكذا قالوا . أنتم تعرفون كل شيء . . أنتم مَنْ يخبرني من هو . . "
بعد أن دفنت وجهها في يديها ، بكت ، وظهرها ما زال نحو المحكمة ،

Amly نهضة العرب

وكتفاها يتحركان لأن النشيج كان يهز جسدها . لم يتحرك أحد ، وأخيراً ، خفضت يديها لكنها لم ترفع عينيها .

سألها كاردن ببساطة : " لماذا لم تتساءلي ؟ هل أنت معتادة على استلام هدايا من مجهولين بقيمة ألف جنيه ؟ "

لم تقل شيئاً وأستمر كاردن : " لم تستفسري لأنك خمنت . أليس ذلك صحيحاً ؟ "

بعد أن رفعت يدها الى وجهها مرة اخرى ، أومأت برأسها .

ـ " خمنت أنها جاءت من ليماس أو من صديق لليماس ، أليس كذلك ؟ "

ـ " نعم " . نجحت في أن تنطقها . " سمعت في الشارع أن البقال تلقى بعض المال ، الكثير من المال من مكان ما بعد المحاكمة . كان هناك الكثير من الكلام حول الموضوع . وعرفت أنه لا بد وأن يكون صديق لـ أليك . . . "

قال كاردن كأنه يحدث نفسه : " يا للغرابة . يا للغرابة . " ثم : " إلزابيث ، قولي لي ، هل اتصل بك أحد بعد أن دخل ليماس السجن ؟ "

كذبت : " لا . " أدركت الآن ، وتأكدت أنهم أرادوا إثبات شيء ما ضد أليك ، شيء ما عن النقود أو عن أصدقائه ، شيء ما عن البقال .

ـ " هل أنتِ متأكدة ؟ " سألها كاردن وقد أرتفع حاجباه فوق الحواف الذهبية لنظارته .

ـ " نعم . "

قال كاردن معترضاً بتأنٍ : " لكن جارك يا إلزابيث ، يقول إن رجالاً ـ أو رجلين ـ زاراك بعد أن حكم على ليماس مباشرة ، أم هل أنهم مجرد عشاق ، يا إلزابيث ؟ عشاق عابرون ، مثل ليماس ، ممن كانوا يدفعون المال ؟ "

صرخت : " لم يكن أليك عاشقاً عابراً . كيف تستطيع ـ "

ـ " لكنه أعطاك مالاً . هل أعطاك الرجال مالاً كذلك ؟ "

قالت وهي تنشج : " يا ألهي . لا تسأل . . . . "

ـ " مَن كان هؤلاء ؟ " لم ترد ، فجأة ، صرخ كاردن ، وكانت تلك هي المرة الأولى التي يرفع فيها صوته : " مَن ؟ "

ـ " لا أعرف ـ جاؤوا في سيارة . أصدقاء لـ أليك . "

ـ " مزيد من الأصدقاء ؟ ماذا أرادوا ؟ "

ـ " لا أعرف . ألحوا في سؤالي عما أخبرني به . وأبلغوني أن أتصل بهم

Amly نهضة العرب

إذا . . . . "

ـ " كيف ؟ كيف تتصلين بهم ؟ "

وأخيراً أجابت : " كان يعيش في تشلسي . . . وكان إسمه سمايلي . . . جورج سمايلي . . . وكان من المفروض أن أهاتفه . "

ـ " وهل هاتفته ؟ "

ـ " لا . "

ألقى كاردن بملفه . وحلّ صمت رهيب على قاعة المحكمة . وهو يؤشر نحو ليماس ، قال كاردن ، بصوت أكثر تأثيراً لأنه كان تحت السيطرة الكاملة : " أراد سمايلي أن يعرف إن كان ليماس قد أخبرها بما هو أكثر من اللازم . لقد ارتكب ليماس الشيء الوحيد الذي لم تتوقعه منه المخابرات البريطانية على الإطلاق . ألا وهو : أحب فتاة وبكى على كتفها . "

ثم ضحك كاردن بهدوء كأن الأمر كله نكتة بارعة . " كما فعل كارل رايماك بالضبط . لقد أرتكب الخطأ نفسه . "

وأستأنف كاردن : " هل حدث وأن تحدث ليماس عن نفسه مرةً ؟ "

ـ " لا . "

ـ " ألا تعرفين شيئاً عن ماضيه ؟ "

ـ " لا . عرفت أنه قام بشيء ما في برلين . شيء لصالح الحكومة . "

ـ " إذن تحدث عن ماضيه ، أليس كذلك ؟ هل أخبرك بأنه كان متزوجاً ؟ "

ساد صمت طويل . ثم أومأت لِز برأسها .

ـ " لماذا لم تقابليه بعد أن دخل السجن ؟ ، كان بإمكانك زيارته . "

ـ " لم أعتقد بأنه كان بحاجة الي . "

" فهمت . هل كتبت له ؟ "

ـ " لا . نعم ، مرةً . . . لمجرد أن أقول بأني سأنتظر . لم أعتقد بأنه كان يمانع . "

ـ " لم تعتقدي بأنه كان يرغب في ذلك أيضاً ؟ "

ـ " لا . "

ـ " وبعد ما أنهى محكوميته في السجن ، ألم تحاولي الأتصال به ؟ "

ـ " لا . "

ـ " هل كان لديه مكان يأوي اليه ، هل كانت هناك وظيفة تنتظره ـ أصدقاء كانوا سيعينونه ؟ "

Amly نهضة العرب

ـ " لا أدري . . . لا أدري . "

سألها ساخراً : " في الحقيقة ، أنتهت صلتك به ، أليس كذلك ؟ هل وجدت عشيقاً آخر ؟ "

قالت لتؤكد موقفها : " لا ! كنت بانتظاره . . . وسأبقى بانتظاره دائماً . أردت عودته . "

ـ " لماذا لم تكتبي إذن ؟ ولماذا لم تحاولي معرفة مكانه ؟ "

ـ " لم يردني أن أفعل ذلك ، ألا تفهم ! لقد جعلني أقسم أن لا أتبعه أبداً . . . أن لا . . . "

تساءل كاردن بنغمة المنتصر : " إذن ، كان يتوقع دخول السجن ، أليس كذلك ؟ "

ـ " لا . لا أعرف . كيف لي أن أخبرك بما لا أعرف . "

أصر كاردن وقد أخشوشن صوته واستأسد : " وفي تلك الأمسية الأخيرة ، في الأمسية ، وقبل أن يضرب البقّال ، هل جعلك تكررين وعدك ؟ هل فعل ؟ "

بأرهاق لامتناه ، أومأت برأسها بإشارة استسلام مثيرة للشفقة ، " نعم . "

ـ " وقلت وداعاً ؟ "

ـ " ودعنا بعضنا . "

ـ " بعد العشاء بالطبع . كان الوقت متأخراً جداً . أم أنك قضيت الليلة معه ؟ "

ـ " بعد العشاء . ذهبت الى البيت ـ ليس مباشرة ، خرجت في نزهة أتمشى أولا ، لا أدري الى أين . كنت أمشي فقط . "

ـ " ما هو السبب الذي قدمه لقطع علاقتكما ؟ "

قالت : " لم يقطعها . أبداً . قال إن هناك شيئاً كان عليه أن يفعله ، شخص ما يسوي معه حسابه ، مهما كلف الأمر ، وبعد ذلك ، ربما في يوم ما ، وعندما يكون كل شيء قد انتهى . . . وعد . . . بأن يعود ، إن كنت هناك و . . . "

قاطعها ساخراً : " وقلت ، بأنك ستبقين دائماً بانتظاره ، بلا شك ؟ وبأنك ستحبينه دائماً ؟ "

أجابت لِز ببساطة : " نعم . "

ـ " هل قال إنه سيبعث لك بمال ؟ "

ـ " قال . . . قال إن الأمور لم تكن بالسوء الذي بدت فيه . وإن

Amly نهضة العرب

هناك . . . مَنْ سيرعاني . "

ـ " وذلك هو سبب عدم تساؤلك ، بعد ذلك ، أليس كذلك ؟ عندما منحتك مؤسسة خيرية في المدينة بطريقة عرضية مبلغ ألف جنيه ؟ "

ـ " نعم ! نعم ! هذا صحيح ! ها أنت تعرف كل شيء ـ كنت تعرف في الأساس . لماذا أرسلت في طلبي إن كنت تعرف ؟ "

إنتظر كاردن بهدوء توقفها عن البكاء .

وجه كلامه الى المحكمة قائلاً : " ذلك دليل الدفاع . وأنا آسف بأن يعتبر رفاقنا البريطانيون فتاة غيمت العواطف إدراكها ويلّد المال يقظتها ، شخصاً مناسباً لمنصب حزبي . "

بعد أن نظر أولاً الى ليماس ثم الى فيدلر ، أضاف بوحشية : " إنها غبية . مع ذلك ، فمن حسن الحظ أن ليماس قد التقى بها . إنها ليست المرة الأولى التي تكشف فيها مؤامرة إنتقامية من خلال انحطاط مخططيها . "

وبانحناءة قصيرة ومرسومة نحو المحكمة ، جلس كاردن . وبعد أن جلس ، نهض ليماس ، وفي هذه المره تركه الحراس لوحده .

لا بد وأن لندن قد جنت . كان قد أخبرهم ـ تلك كانت النكتة ـ أخبرهم أن يتركوها لحال سبيلها . وها قد اتضح أنه منذ اللحظة ، اللحظة التي غادر فيها انجلترا ، وحتى قبل ذلك ، وحالما دخل السجن ، ذهب أحد الحمقى يرتب الأمور ـ يدفع القوائم ، يسوي الأمر مع البقال ، ومالك الشقة ، وفوق كل شيء ، لِز . كان فعلاً مجنوناً ، خيالياً . ماذا كانوا يحاولون ؟ قتل فيدلر ، قتل عميلهم ؟ تخريب عمليتهم ؟ هل كان سمايلي وخده ؟ هل جره ضميره البائس الصغير الى هذا ؟ كان هناك شيء واحد يجب أداؤه ـ إخراج لِز وفيدلر من العملية وتحمل الأوزار . ربما كان هو قد عد مشطوباً عليه . لو أستطاع إنقاذ فيدلر ـ لو تمكن من ذلك ـ فقد تكون في ذلك فرصة لإخراج لِز .

كيف عرفوا كل هذا بحق الجحيم ؟ كان متأكداً من أن أحداً لم يكن يلاحقه الى بيت سمايلي بعد ظهر ذلك اليوم . والأموال ، كيف التقطوا قصة قيامه بسرقة أموال من الميدان ؟ كان ذلك موضوعاً للاستهلاك المحلي فقط . . . إذن كيف ؟ بحق السماء ، كيف ؟

حائراً ، غاضباً ، وخجلاً بمرارة ، سار مترددا الى الممشى ، متصلباً ، مثل رجل يسير نحو المشنقة .

Amly نهضة العرب

٢٣ * إعتراف

ـ " حسناً يا كاردن ، " كان وجهه شاحباً وصلباً كصخرة ، ورأسه مائلاً الى الوراء ، الى أحد الجانبين قليلاً ، في هيئة رجل يصغي لصوت بعيد . ومن حوله ، حام سكون مخيف ، ليس سكون الاستسلام بل السيطرة على النفس بحيث أن كامل جسده بدا في قبضة إرادته الحديدية .

ـ " حسناً يا كاردن ، دعها تذهب . "

كانت لز تحدق فيه ، وقد تغضن ووجهها وقبح ، وملأت الدموع عينيها السوداوين .

قالت لِز : " لا ، أليك . . . لا ، " . لم يكن هناك شخص آخر في الغرفة ـ غير ليماس ، طويل ومنتصب كجندي .

قالت وقد تصاعد صوتها : " لا تخبرهم مهما كان الموضوع ، لا تخبرهم من أجلي فقط . . . فأنا لن أهتم بعد الآن يا أليك ، أعدك بأني لن أهتم . "

قال ليماس بخشونة : " إخرسي يا لِز ، لقد فات الأوان الآن " . أدار نظره نحو الرئيسة . " إنها لا تعرف شيئاً . لا شيء على الإطلاق . أخرجوها من هذا المكان وأعيدوها الى الوطن . سأخبركم بالبقية . "

رمقت الرئيسة الرجلين الجالسين الى جانبيها بنظرة سريعة . تداولت ثم قالت : " تستطيع مغادرة المحكمة ، لكن ، لا تستطيع العودة الى بلادها الى أن تنتهي المحاكمة . بعدها سنرى . "

صرخ ليماس قائلاً : " أؤكد لك أنها لا تعرف شيئاً . "

ـ " كاردن على حق ، ألا تفهمين ؟ كانت عملية ، عملية مخططة . كيف لها أن تعرف ؟ هي مجرد فتاة صغيرة محبطة من مكتبة مهملة ـ إنها لا تفيدكم بشيء ! "

ردت الرئيسة باختصار : " إنها شاهدة . وقد يحتاج فيدلر الى

Amly نهضة العرب

استجوابها . " هذه المرة ، لم تقل الرفيق فيدلر .

عند ذكر إسمه ، بدا وكأن فيدلر قد صحا من الحلم الذي غرق فيه ، ونظرت اليه لز بوعي للمرة الأولى . أستقرت عيناه السوداوان عليها برهة وابتسم ابتسامة قصيرة جداً كأنه تعرف عليها . رأته شخصاً صغيراً منسياً ، مسترخياً بطريقة غريبة .

قال فيدلر : " لا تعرف شيئاً ، ليماس على حق ، دعوها تذهب . " كان صوته متعباً .

سألته الرئيسة : " أتدرك ما تقول ؟ هل تدرك ما معنى هذا ؟ أليس لديك أسئلة تطرحها عليها ؟ "

ـ " قالت ما كان يجب أن تقوله . " كانت يدا فيدلر مطويتين على ركبتيه وكان يتأملها وكأنهما تثيران اهتمامه أكثر من مداولات المحكمة . وأومأ برأسه وقال ، " لقد حيكت بذكاء كبير . "

ـ " دعوها تذهب . لا تستطيع أن تخبرنا بما لا تعلم . " وبرسمية ساخرة محددة أضاف ، " ليس لدي أسئلة أطرحها على الشاهدة . "

فتح حارس الباب ونادى في الممر الخارجي . وفي الصمت المطبق الذي لفّ المحكمة ، سمعوا صوت إجابة امرأة وصوت وقع أقدامها الثقيل يقترب ببطء ، وعندما وصلت الباب ، استدارت و نظرت خلفها الى ليماس بيد أنه كان ينظر جانباً مشيحاً النظر عنها مثل رجل لا يستطيع تحمل مشهد الدم .

قال فيدلر : " عودي الى إنجلترا ، عودي الى إنجلترا " وفجأة ، بدأت لز بالنشيج بطريقة يتعذر بها إيقافها . وضعت السجانة ذراعاً حول كتفها ، لإسنادها وليس لإراحتها ، وقادتها الى خارج الغرفة . وأغلق الحرس الباب ، وتدريجياً ، إضمحل صوت بكائها .

ابتدأ ليماس كلامه بالقول : " ليس لدي الكثير ، وكاردن على حق . فقد كانت مؤامرة محبوكة . عندما فقدنا كارل رايماك ، فقدنا عميلنا الوحيد المحترم في القطاع . كل الآخرين كانت قد تمت تصفيتهم . لم نستطع فهم اللعبة ـ فقد بدا أن مندت التقطهم حتى قبل أن نجندهم . عدت الى لندن وألتقيت بالمشرف . وكان هناك بيتر غيلام وجورج سمايلي . في الواقع ، كان جورج متقاعداً ، يقوم بشيء فكري ، دراسة فقه اللغة أو شيء من هذا القبيل .

على أية حال ، لقد رسموا الفكرة . دفع إنسان ليوقع نفسه في فخ . ذاك ما قاله المشرف . إفعل شيئاً ولاحظ إن كان سينجح . ثم أعددنا الخطة ـ الى

Amly نهضة العرب

وراء إذا صحّ القول . سمّاها سمايلي " إستقرائية . " إذا كان مندت عميلنا ، فكيف تسنى لنا دفع مبالغ له ، كيف كانت ستبدو الملفات ، وهلم جرا . تذكر بيتر أن شخصاً عربياً حاول بيعنا عملية اختراق لقسم الاستخبارات الألمانية قبل سنة أو ستين ، وأننا قد رفضنا عرضه . فيما بعد ، اكتشفنا أننا قد ارتكبنا خطأ . وكان بيتر يرى أن نلعب على الوتر ـ وكأننا قد رفضناها لأننا كنا نعرف مسبقاً . وكانت تلك فكرة ذكية .

وبامكانكم تصور البقية . التظاهر بالانحلال : الشرب ، مشاكل مالية ، إشاعات تقول بأن ليماس سرق الخزانة ، كل هذه الأشياء شكلت وحدة متماسكة . واستخدمنا إلزي من قسم الحسابات لتساعدنا في نشر الخبر ، وموظفة أخرى أو اثنتين . وقد نجحن في ذلك نجاحاً باهراً ، " أضاف بشيء من الزهو . " ثم أخترت صباحاً ـ صباح يوم سبت ، حيث كان هناك الكثير من الناس من حولنا ، وتشاجرت . وقد أثار تصرفي الصحافة المحلية ، وحتى صحيفة الـ وركر على ما أعتقد ، وفي ذلك الوقت ، التقطها عملاؤكم . ومن ذلك الحين ، " أضاف بازدراء ، " حفّرتم قبوركم بأيديكم . "

قال مندت بهدوء : " قبرك أنت " . كان ينظر بتأمل الى ليماس بعينيه الشاحبتين : " وربما قبر الرفيق فيدلر . "

قال ليماس بلا مبالاة : " من الصعب أن تضع اللوم على فيدلر . فقد صادف أن يكون الرجل المطلوب ، وهو ليس الوحيد في الاستخبارات الألمانية ممن يودون شنقك يا مندت عن طيب خاطر . "

قال مندت مؤكداً : " سنشنقك في كل الأحوال ، فقد قتلت حارساً وحاولت قتلي . "

ابتسم ليماس ابتسامة جافة .

ـ " كل القطط متشابهة في الظلام يا مندت . . . فقد كان سمايلي يقول دائماً إن العملية قد تعطي نتيجة خاطئة . وقال إنها قد تثير رد فعل لا نستطيع التحكم فيه . لقد تحطمت أعصابه ـ تعرفون ذلك . لم يعد كما كان قبل قضية فينان ـ قضية مندت في لندن . يقولون إن شيئاً حدث له في حينها ـ ولهذا ترك الميدان . وهذا ما لا أفهمه ، لماذا دفعوا الفواتير ، والفتاة وكل ذلك . لابد وأن ذلك كان من فعل سمايلي الذي حاول تدمير العملية عن قصد ، لا بد أن كان . لابد أنه عانى أزمة ضمير ، أعتقد أنه من الخطأ أن يقتل أو شيء من هذا القبيل . كان جنوناً ، بعد كل تلك التحضيرات ، وكل ذلك العمل ، إفساد العملية بتلك الطريقة .

Amly نهضة العرب

إلا أن سمايلي كان يكرهك يا مندت . وكلنا كنا نكرهك على ما أعتقد ، رغم أننا لم نصرح بذلك . خططنا الأمر ليبدو كأنه جزء من لعبة . . . ومن الصعب أن أشرح الآن . كنا ندرك أن ظهورنا للجدار : فقد فشلنا في مواجهة مندت وها نحن نحاول قتله . مع ذلك ظلت لعبة . " وبعد أن توجه الى القضاة قال : " أنتم مخطئون بشأن فيدلر ـ فهو ليس رجلنا . وإلاّ فلماذا تجازف لندن مع رجل في منزلة فيدلر ؟ أعترف ، بأنهم عولوا عليه ، وكانوا يعرفون أنه كان يكره مندت ـ ولماذا لا يكرهه ؟ فـ فيدلر يهودي ، أليس كذلك ؟ تعلمون ، ويجب أن تعلموا جميعكم ما هي سمعة مندت ، وما هو رأيه في اليهود .

سأقول لكم شيئاً ـ لن يقوله أحد غيري ، لذا سأقوله لكم . لقد أمر مندت بتعذيب فيدلر ، وطوال الوقت ، وأثناء استمرار الضرب ، كان مندت يسخر منه لكونه يهودياً . كلكم تعرفون أي إنسان هو مندت ، وتصبرون عليه لأنه ناجح في عمله . لكن ـ " تلعثم لحظة ، ثم أستأنف كلامه : " لكن ، بحق السماء . . . لقد تورط عدد كبير من الناس في القضية دون إقحام فيدلر فيها . أؤكد لكم أن فيدلر لا غبار عليه . . سالم إيديولوجياً ، هذا هو التعبير الذي تستعملونه ، أليس كذلك ؟ "

نظر الى القضاة . وراحوا يتابعونه بلا تعاطف ، ويتلهف تقريباً ، وعيونهم باردة وشاخصة . نظر فيدلر ، الذي كان قد عاد الى كرسيه والذي كان يصغي بتجرد مدروس الى حد ما ، نظر الى ليماس بانشداه لوهلة .

سأل : " وقد أفسدت الأمر كله يا ليماس ، أليس كذلك ؟ إن كلباً عجوزاً مثل ليماس ، منهمك في ذروة عمليات حياته ، يقع من أجل . . . ماذا أسميتها ؟ . . . فتاة صغيرة محبطة من مكتبة مهملة ؟ لابد وأن لندن كانت على علم ، فما كان بمقدور سمايلي أن يقوم بها وحده ، " وتوجه فيدلر بنظره نحو مندت : " مندت ، هنا شيء غريب ، فلا بد أنهم يعرفون أنك كنت ستدقق في كل جزء من قصته . ذلك هو سبب اتباع ليماس ذلك النمط من العيش . مع ذلك ، فقد أرسلوا مالاً فيما بعد الى البقال ، ودفعوا بدل الإيجار وأشتروا عقد الأيجار للفتاة . ومن أغرب الأشياء التي قاموا بها ، وهم على ما هم عليه من خبرة ، هو دفعهم ألف جنيه لفتاة ـ لعضو في الحزب ـ كان يفترض أنها كانت تحسبه مفلساً . لا تقل لي بأن ضمير سمايلي يذهب الى ذلك الحد . لابد أن لندن كانت وراء العملية . يا لها من مجازفة ! "

هزّ ليماس كتفيه .

Amly نهضة العرب

ـ " كان سمايلي على حق . لم نستطع منع رد الفعل . لم نتوقع منك أن تجيء بي الى هنا ـ أن تأخذني الى هولندا ـ ممكن ـ لكن ، ليس الى هنا . "
صمت لحظة ثم قال : " لم أفكر أنك ستجلب الفتاة . لقد كنت أحمق غبياً . "

قاطعه فيدلر بسرعة : " لكن مندت لم يكن كذلك . كان مندت يعرف عم يبحث ـ حتى أنه كان يعلم أن الفتاة ستقدم البرهان ـ لا بد لي من الاعتراف بأن ذلك كان ذكاء من مندت ـ وحتى أنه كان على علم بذلك العقد ـ مدهش حقاً . أقصد ، كيف تسنى له الاكتشاف ؟ لم تخبر أحداً . أعرف تلك الفتاة ، أفهمها . . . ما كانت لتخبر أحداً البتة . " رمق مندت بنظرة . " ربما أخبرنا مندت كيف عرف ؟ "

تردد مندت لحظة ظنها ليماس طويلة جداً . قال : " كان ذلك بسبب اشتراكها المالي . فقبل شهر زادت من اشتراكها الحزبي عشر شلنات في الشهر . سمعت عن ذلك . لذلك حاولت أن أعرف من أين جاءت تلك الإمكانية على الدفع ونجحت . "

علّق فيدلر ببرود : " تفسير ضليع . "

ساد صمت .

قالت رئيسة المحكمة وهي ترمق زميليها بنظراتها : " أعتقد أن المحكمة الآن في وضع يمكّنها من رفع تقريرها الى مجلس الرئاسة . وبعد أن وجهت عينيها الصغيرتين القاسيتين الى فيدلر ، أضافت : " إلا إذا كان لديك شيء آخر تقوله . "

هز فيدلر رأسه نفياً . وبدا كما لو أنه ما يزال هناك شيء يمنعه .

استأنفت الرئيسة : " في هذه الحالة ، زملائي متفقون على ضرورة إعفاء الرفيق فيدلر من واجباته الى أن تنظر لجنة الانضباط التابعة لمجلس الرئاسة في وضعه .

وليماس هو قيد الاعتقال . وأود أن أذكركم جميعاً أن المحكمة لا تمتلك صلاحيات تنفيذية . وأن مدعي الشعب العام ، بالتعاون مع الرفيق مندت ، سيدرسان بلا شك الإجراء الذي يتخذ بحق عميل بريطاني محرض وقاتل . "

تحولت بنظرها من ليماس إلى مندت . إلا أن مندت كان ينظر الى فيدلر بالنظرة الباردة للجلاد الذي يقيس ضحيته ليعرف حجم الحبل الذي يلائمها .

فجأة ، وبالوضوح المرعب لرجل خدع طويلاً ، فهم ليماس الخدعة المروعة برمتها .

Amly نهضة العرب

٢٤ * المفوضة

وقفت لِز قرب الشباك وظهرها الى السجّانة وراحت تحدق بانشداه في الباحة الصغيرة خارج الغرفة . أعتقدت أن السجناء كانوا يمارسون تمارينهم هناك . كانت في مكتب شخص ما ، فقد كان هناك طعام على المنضدة الى جانب الهواتف إلا أنها لم تستطع لمسه . كانت تشعر بالمرض والتعب الشديد ، التعب الجسدي . كانت تشعر بألم في ساقيها وقد تصلّب وجهها وترطب من البكاء . شعرت بأنها قذرة وتاقت الى حمام .

سألت المرأة ثانية : " لِمَ لا تأكلين ؟ لقد انتهى كل شيء الآن . " قالتها بلا عاطفة ، وكأن الفتاة كانت غبية لعدم تناولها الطعام عندما كان موجوداً .

ـ " لست جائعة . "

هزت السجّانة كتفيها . لاحظت : " قد تقومين برحلة طويلة ، ليس هناك الكثير من الطعام في الجانب الآخر . "

ـ " ماذا تقصدين ؟ "

صرخت باقتناع : " العمال يتضورون جوعاً في إنجلترا . الرأسماليون يجعلونهم يتضورون جوعاً . "

فكرت لِز بقول شيء ، لكن ، ظهر لها عدم جدوى ذلك . ثم أنها ، أرادت أن تعرف ؛ وكان عليها أن تعرف ، وبإمكان هذه المرأة أن تخبرها .

ـ " ما هذا المكان ؟ "

ضحكت السجانة : " ألا تعرفين ؟ يجب أن تسألي أولئك الذين هناك ، " وأشارت برأسها نحو الشباك . " بإمكانهم أن يخبروك عن ماهية المكان . "

ـ " مَنْ هم ؟ "

ـ " سجناء . "

ـ " أي نوع من السجناء ؟ "

Amly نهضة العرب

ردت على الفور : " أعداء الدولة . جواسيس محرضون . "

ـ " كيف تعرفين أنهم جواسيس ؟ "

ـ " الحزب يعرف ـ الحزب يعرف عن الناس أكثر مما يعرفون عن أنفسهم ـ ألم يبلغوك بذلك ؟ " نظرت السجانة اليها وهزت رأسها ولاحظت : " الإنجليز ! لقد أكل الأغنياء مستقبلكم ، وأنتم الفقراء منحتموهم الطعام ـ ذلك ما حدث للإنجليز . "

ـ " من أخبرك بذلك ؟ "

ابتسمت المرأة ولم تقل شيئاً . بدت راضية عن نفسها .

كررت لِز : " هذا سجن للجواسيس ؟ "

ـ " إنه سجن لأولئك الذين يفشلون في استيعاب الواقع الاشتراكي ، لأولئك الذين يظنون بأن لهم الحق في ارتكاب الخطأ ، لأولئك الذين يؤخرون المسيرة . خونة " . أختتمت كلامها بإيجاز .

ـ " لكن ، ماذا فعلوا ؟ "

ـ " لا نستطيع بناء الشيوعية دون التخلص من الفردية . لا تستطيعين تخطيط بناية كبيرة إذا ما بنى خنزير زرية على موقعك . "

نظرت اليها لِز بدهشة . " من قال لك كل ذلك ؟ "

قالت متأخرة : " أنا مفوضة حزبية هنا ، وأعمل في السجن . "

قالت لِز في محاولة للتقرب اليها : " أنت ذكية جداً . "

قالت المرأة بلهجة جادة : " أنت عاملة . لابد من تحطيم مفهوم عمال الفكر كفئة راقية . ليس هناك فئات ، هناك عمال فقط . لا تضاد بين العمل البدني والفكري . ألم تقرأي لينين ؟ "

ـ " إذن ، فالسجناء هنا مثقفون ؟ "

ابتسمت المرأة . قالت : " نعم . إنهم رجعيون يسمون أنفسهم تقدميين ! يدافعون عن الفرد ضد الدولة . هل تعرفين ماذا قال خروشوف عن الثورة المضادة في هنغاريا ؟ "

هزت لز رأسها بالنفي . لا بد أن تظهر اهتماماً ، يجب أن تجعل المرأة تتكلم .

ـ " قال ما كانت لتحدث أبداً لو تم إعدام كاتبين في الوقت المناسب . "

سألت لِز بسرعة : " ومَن سيعدمون الآن ؟ بعد المحاكمة ؟ "

أجابت المرأة بلا إكتراث : " ليماس . واليهودي فيدلر . " فكرت لِز لحظة بأنها كانت ستسقط ، إلا أن يدها عثرت على ظهر كرسي وتمكنت من الجلوس .

Amly نهضة العرب

همست : " وماذا فعل ليماس ؟ " نظرت المرأة اليها بعينيها الصغيرتين الخبيثتين . كانت ضخمة جداً ، وكان شعرها خفيفاً ، مشدوداً عبر رأسها الى عقدة فوق عنقها السميك . وجهها قاس ، قسماتها مترهلة وسائبة .

قالت المرأة : " قتل حارساً . "

ـ " لماذا ؟ "

هزت المرأة كتفيها .

واصلت : " أما بالنسبة لليهودي . فقد وجه اتهاماً ضد رفيق مخلص . "

سألت لِز غير مصدقة : " هل سيعدمون فيدلر بسبب ذلك ؟ "

علّقت المرأة : " كل اليهود متشابهون . الرفيق مندت يعرف ماذا يفعل مع اليهود . لسنا بحاجة الى صنفهم هنا . إذا ما انتموا للحزب يظنون أنه ملكهم ، وإذا ما بقوا خارجه ، يظنون أنه يتآمر عليهم . يقال أن ليماس وفيدلر تآمرا معاً ضد مندت " . ثم سألت وهي تشير الى الطعام على المنضدة : " هل ستأكلين ذلك ؟ " هزت لِز رأسها نفياً . " إذن ، أنا سآكله ، " قالت المرأة مع محاولة بشعة في التردد . " لقد أعطوك بطاطس . لا بد أن لك عشيقاً في المطبخ . " وقد رافقها مرح هذه الملاحظة الى أن أنتهت من وجبة طعام لِز .

عادت لِز الى الشباك .

في خضم اضطراب ذهن لِز وفي فوران الخجل والحزن والخوف ، هيمنت صورة ليماس المخيفه في آخر مرة رأته فيها في قاعة المحكمة ، جالساً بتصلب ، مشيحاً بعينيه عن عينيها . لقد خذلته ولم يجرؤ على النظر اليها قبل أن يموت . لم يرد لها أن ترى الاحتقار ، وربما الخوف ، الذي كان مرسوماً على وجهه .

لكن ، كيف كان لها أن تفعل العكس ؟ لو كان ليماس قد أخبرها بما كان عليه أن يفعل ـ فحتى الآن ، الأمر غير واضح لها ـ لكانت قد كذبت وغشّت من أجله ، أي شيء ، لو كان قد أخبرها فقط ! بالتأكيد فهم ذلك ، بالتأكيد كان يفهمها جيداً الى درجة تكفي ليدرك أنها ستفعل في النهاية كل شيء يقوله لها ، إنها ستأخذ شكله وكيانه ، إرادته ، حياته ، صورته ، ألمه ، إن كان ذلك بالمستطاع ، وأنها تتضرع من أجل الحصول على مجرد فرصة لفعل ذلك . لكن ، كيف كان لها أن تعرف ، إن لم يخبرها أحد ، كيفية الإجابة على تلك الأسئلة المغلّفة الماكرة ؟ بدا أن ليس هناك من نهاية للخراب الذي سببته .

وتذكرت ، في خضم حالتها الذهنية المضطربة ، كيف أرعبوها في طفولتها

Amly نهضة العرب

عندما علمت أن آلاف المخلوقات كانت تسحق مع كل خطوة تخطوها ، والآن ، سواء كذبت أم قالت الحقيقة ، أو حتى لو لزمت الصمت ، فإن ذلك كان أكيداً ، فقد أجبرت على تدمير إنسان ، ربما إنسانين ، ألم يكن هناك فيدلر ، الذي كان رفيقاً معها ، آخذاً بيدها وقائلاً لها أن عودي الى إنجلترا ؟ سيعدمون فيدلر ، ذاك ما قالته المرأة . لماذا يجب أن يكون فيدلر ـ لم لم يكن الرجل العجوز الذي كان يطرح الأسئلة ، أو الأشقر في الصف الأمامي بين الجنديين ، ذلك الذي كان مبتسماً طوال الوقت ؟ فكلما استدارت ، كانت ترى رأسه الأشقر الأملس ، ووجهه الأملس القاسي مبتسماً وكأن الأمر كله كان نكتة كبيرة . وقد أراحها أن ليباس وفيدلر كانا على نفس الجانب .

أتجهت الى المرأة مرة أخرى وسألتها : " لماذا ننتظر هنا ؟ " . دفعت السجانة الصحن جانباً ونهضت .

أجابت : " من أجل التعليمات . إنهم يقررون الآن إنْ كنتِ ستبقين أم لا ؟ "

كررت لِز بانشداه : " أبقى ؟ "

ـ " إنها مسألة أدلة . وقد يحاكم فيدلر . قلت لك : إنهم يشكّون بمؤامرة بين فيدلر وليباس . "

ـ " لكن ، ضد مَنْ ؟ كيف يمكنه التآمر في إنجلترا ؟ وكيف جاء الى هنا ؟ فهو ليس في الحزب . "

هزت المرأة رأسها .

أجابت : " إنه سر . الأمر يخص مجلس الرئاسة وحده . ربما جاء به اليهودي الى هنا . "

أصرت لِز : " لكنك تعرفين ، " وقد اعترت صوتها نبرة مداهنة ، " أنت مفوضة حزبية في السجن . لقد أخبروك بالتأكيد ؟ "

أجابت المرأة باقتناع : " ربما . إنه أمر سري جداً . "

رن الهاتف . رفعت المرأة السماعة وأصغت . بعد لحظة رمقت لِز بنظرة .

قالت : " نعم يا رفيقي . في الحال ، " ووضعت السماعة .

قالت المرأة باختصار : " أنت ملزمة بالبقاء ، " " سيدرس مجلس الرئاسة قضية فيدلر . في هذا الوقت ستبقين هنا . تلك رغبة الرفيق مندت . "

ـ " مَنْ هو مندت ؟ "

بدت المرأة خبيثة . قالت : " إنها رغبة مجلس الرئاسة . "

صرخت لِز : " لا أريد البقاء . أريد . . . . "

Amly نهضة العرب

قاطعت المرأة : " الحزب يعرف عنا أكثر مما نعرف عن أنفسنا . يجب أن تبقي هنا . إنها رغبة الحزب . "

سألت لِز مرة ثانية : " مَنْ هو مندت ؟ " إلا أنها لم تجب رغم ذلك .

ببطء ، تبعتها لِز على امتداد ممرات لا نهاية لها ، عبر حواجز من قضبان متصالبة يحرسها رجال ، من أمام أبواب حديدية لم يصدر منها صوت ، نزولاً الى سلالم لانهاية لها ، وعبر باحات بعيدة تحت الأرض ، الى أن ظنت أنها نزلت الى أحشاء جهنم نفسها ، وما كان أحد ليخبرها إن كان ليماس قد مات .

لم تكن لديها فكرة عن الوقت عندما سمعت وقع أقدام في الممر خارج زنزانتها . ربما كانت الساعة الخامسة مساء ـ ربما كانت منتصف الليل ـ كانت مستيقظة ـ تحدق ببلاهة في الظلام الدامس ، تواقة لسماع صوت . لم تتخيل أبداً ان الصمت يمكن أن يكون بهذا الرعب . مرة صرخت ، ولم يكن هناك صدى . لا شيء ، سوى ذكرى صوتها . تصورت الصوت يصطدم بالظلام الكثيف مثل قبضة على صخرة . حركت يديها من حولها وهي تجلس على السرير ، وبدا لها أن الظلام قد جعلها ثقيلتين ، وكأنها كانت تتلمس طريقها في الماء . كانت تعرف أن الزنزانة صغيرة . وأنها كانت تحوي السرير الذي جلست عليه ، وحوض غسيل دون صنابير ، ومنضدة خشنة . كانت قد رأت هذه الأشياء عندما دخلت . بعدها انطفأ الضوء ، وركضت بوحشية الى المكان الذي عرفت فيه موضع السرير ، ورفسته بمقدمة ساقيها ، وظلت هناك ، ترتجف خوفاً ، إلى أن سمعت وقع الأقدام ، وفتح باب زنزانتها على نحو مفاجيء .

ميزته في الحال رغم أنها لم تر إلا ظله في الضوء الأزرق الشاحب في الممر . الجسم الرشيق الأنيق ، الخط الواضح للخد ، والشعر الذهبي القصير الذي لمسه الضوء من خلفه للتو .

قال : " أنا مندت ، تعالي معي فوراً . " كان صوته مزدرياً لكنه كان مكتوماً ، كأنه لم يكن راغباً في أن يسمعه أحد .

انتاب لِز خوف مفاجيء . تذكرت قول السجّانة : " مندت يعرف ماذا يفعل مع اليهود " . وقفت قرب السرير تحدق فيه ، لا تعرف ماذا تفعل .

ـ " أسرعي يا حمقاء ، " كان مندت قد تقدم وأمسك برسغها . " أسرعي " . تركت نفسها تسحب الى الممر .

راحت تراقب مندت ، حائرةً ، وهو يعيد إغلاق باب زنزانتها بهدوء .

Amly نهضة العرب

أمسك بذراعها بخشونة ودفعها بسرعة الى الممر الأول ، نصف راكض ونصف ماشٍ . تناهى الى سمعها الأزيز البعيد لمكيفات الهواء . وبين فترة وأخرى ، كانت تسمع صوت وقع أقدام أخرى في الممرات المتفرعة عن الممر الذي كانا فيه . لاحظت أن مندت كان يتردد ، ويتراجع ، عندما كان آخرون يظهرون في الممرات الأخرى ، يتقدم ويتأكد من عدم وجود أحد ، ثم يؤشر لها بالتقدم . بدا أنه افترض بأنها كانت مستعدة للسير وراءه ، وأنها كانت تعرف السبب . بدا الأمر كأنه كان يعاملها على أنها شريكة . وفجأة ، توقف ، دافعاً مفتاحاً في فتحة باب حديدي صغير . انتظرت مذعورة . دفع الباب بقوة وحشية الى الخارج ، وهبّ على وجهها هواء أمسية شتوية ، بارد وجميل ، أشر لها مرة أخرى ، وبنفس العجالة ، تبعته نازلة خطوتين الى طريق حصوي كان يشق حديقة مطبخ غير مشذّبة .

سلكا الطريق باتجاه بوابة قوطية محكمة تؤدي الى الطريق الذي وراءها . وفي البوابة ، كانت هناك سيارة واقفة . والى جانبها كان أليك ليماس . حذرها مندت عندما بدأت بالتحرك الى أمام . " إبقي في مكانك . "

تقدم مندت وحده ، ولفترة بدت كأنها دهر ، راقبت الرجلين يقفان معاً ، ويتحدثان بهدوء فيما بينهما . كان قلبها ينبض بجنون ، وجسدها كله يرتعش من البرد والخوف . أخيراً عاد مندت .

قال : " تعالي معي . " وقادها الى حيث كان ليماس واقفاً . تطلع الرجلان الى بعضهما للحظة .

قال مندت بلا اكتراث : " وداعاً . " ليماس ، أنت أحمق . وهي تافهة مثل فيدلر " . واستدار دون كلمة أخرى وأختفى بسرعة في ضوء الشفق . مدت يدها ولمسته ، وهو نصف مستدير عنها ، دافعاً يدها بعيداً عنه وهو يفتح باب السيارة . أومأ لها برأسه أن تركب ، لكنها ترددت .

همست : " أليك ، أليك ، ماذا تفعل ؟ كيف تركوك تذهب ؟ "

قال مستهجناً : " إخرسي . لا تفكري في الموضوع أبداً ، أتسمعين ؟ إركبي . "

ـ " ماذا قال مندت بشأن فيدلر ؟ أليك ، لماذا يتركنا نذهب ؟ "

ـ " يتركنا نذهب لأننا أكملنا واجبنا . إصعدي الى السيارة . أسرعي ! "

وتحت ضغط رغبته غير العادية ، صعدت الى السيارة وأغلقت الباب . وصعد ليماس الى جانبها .

قالت باصرار : " أية صفقة عقدت معه ؟ " وقد تصاعد الشك والخوف في صوتها . " قالوا إنك حاولت التآمر عليه ، أنت وفيدلر . إذن ، لماذا يخلي

Amly نهضة العرب

سبيلك ؟ "

كان ليماس قد أدار محرك السيارة وسرعان ما بدأ بالسياقة فوق الشارع الضيق . وعلى الجانب الآخر ، كانت هناك حقول جرداء ، وفي البعيد ، كانت تلال مظلمة كئيبة تمتزج مع الظلام المتراكم .

نظر ليماس الى ساعته .

قالت : " نحن على بعد خمس ساعات من برلين . يجب أن نصل كوبنك عند الواحدة إلاّ ربعاً . يجب أن نصل بسهولة . "

لبرهة ، لم تقل لِز شيئاً . حدقت عبر الحاجب الزجاجي للسيارة في الشارع الخالي ، مضطربة وضائعة في متاهة من الأفكار نصفية التكوين . كان قمر كامل قد بزغ ، وراح الصقيع يخيم في شكل أغطية طويلة فوق الحقول . واستدارا الى خط سيارات سريع .

قالت أخيراً : " هل أثقلت على ضميرك يا أليك ؟ ألهذا جعلت مندت يخلي سبيلي ؟ "

لم يقل ليماس شيئاً .

ـ " أنت ومندت عدوان ، أليس كذلك ؟ "

مع ذلك لم يقل شيئاً . بدأ يسوق بسرعة الآن ، وأشار عداد السرعة الى مائة وعشرين كيلومتر . وكان الطريق السريع كثير المطبات والحفر . كان قد أضاء مصابيح السيارة العالية ، هذا ما لاحظته لِز ، ولم يكلف نفسه إعطاء اشارة ضوئية للسيارات القادمة على الخط الآخر . كان يقود سيارته باضطراب ، منحنياً الى أمام ، واضعاً مرفقيه على المقود تقريباً .

سألت لِز فجأة : " ماذا سيحل بـ فيدلر ؟ " وفي هذه المرة أجاب ليماس . " سيعدم رمياً بالرصاص . "

واصلت لِز بسرعة : " إذن ، لماذا لم يعدموك ؟ " . فقد تآمرت مع فيدلر على مندت ، هذا ما قالوه . وقتلت حارساً . لماذا أخلى مندت سبيلك ؟ "

صاح ليماس فجأة : " حسناً . " ، " سأخبرك ـ سأخبرك بما لم ولن تعرفيه قط ، لا أنت ولا أنا ـ إسمعي : مندت هو رجل لندن ، عميلها . اشتروه عندما كان في إنجلترا . ونحن نشهد النهاية الحقيرة لعملية قذرة خسيسة لانقاذ مندت . لانقاذه من مساعد صغير ذكي في قسمه كان قد بدأ يشك بالحقيقة . لقد جعلونا نقتله ، هل تفهمين ، نقتل المساعد . ها أنت تفهمين . وكان الله في عوننا نحن الاثنين . "

Amly نهضة العرب

٢٥ * الجدار

قالت لز : " إذا كان الأمر كذلك ، ماذا كان دوري في كل هذا ؟ " كان صوتها هادئاً تماماً ، وعملياً تقريباً .

ـ " لا يمكنني سوى التخمين مما أعرف ومما أخبرني به مندت قبل أن نغادر يا لِز . كان فيدلر يشك بـ مندت ، كان يشك به منذ أن عاد مندت من إنجلترا . ظن أن مندت كان يلعب دوراً مزدوجاً . بالطبع كان يكرهني ، ولِم لا يكرهني ، لكنه كان على حق : فقد كان مندت رجل لندن . وكان فيدلر من القوة بحيث يصعب على مندت تصفيته وحده ، لذلك قررت لندن القيام بذلك نيابة عنه . أراهم يضعون الخطة ، فهم أكاديميون ملعونون . أراهم يجلسون حول نار في أحد أنديتهم الراقية القذرة . كانوا يعرفون ألاّ فائدة من تصفية فيدلر وحده ـ ربما كان قد أخبر بعض أصدقائه ، أو نشر اتهامات : كان عليهم تصفية الشك . إعادة تأهيل عام ، هذا ما نظموه لـ مندت . "

زاغ الى الجانب الأيسر ليتجاوز شاحنة ومقطورة . وعندما قام بذلك قفزت الشاحنة بصورة غير متوقعة أمامه بحيث أضطر للتوقف بعنف على الطريق المحفر لتفادي الاصطدام الحتمي بالسياج على يساره .

قال ليامس ببساطة : " أبلغوني بأن أنصب الشباك لـ مندت ، قالوا إنه كان لا بد أن يقتل ، وكنت أنا الطعم . كانت تلك هي مهمتي الأخيرة . لذلك خرجت لأوزع الأدوار ، وضربت البقال ـ وتعرفين كل ذلك . "

سألت بهدوء : " وأوقعت نفسك في الحب ؟ "

هز رأسه نفياً ، " لكن هذه هي المسألة ، كما ترين ، كان مندت على علم بكل شيء ، كان يعرف الخطة ، وجعلهم يلتقطونني ، هو وفيدلر . بعدها ترك المهمة لـ فيدلر لأنه كان يدرك أن فيدلر سيشنق نفسه في النهاية . وكانت

Amly نهضة العرب

مهمتي هي جعلهم يعتقدون بما كان ، في الواقع ، عين الحقيقة : ألا وهو أن مندت كان جاسوساً بريطانياً . " تلكأ في كلامه ثم قال : " وكانت مهمتك إثبات عدم مصداقيتي . لقد حكم على فيدلر بالموت وأنقذ مندت ، أنقذ بقدرة قادر من مؤامرة فاشية . إنه المبدأ القديم : الخروج من المأزق عن طريق الحب . "

صاحت لِز : " لكن ، كيف عرفوا عني ، كيف عرفوا بأننا كنا سنلتقي معاً ؟ بالله عليك يا أليك ، هل بإمكانهم أن يعرفوا متى يقع الناس في الحب ؟ "

ـ " لم يكن مهماً ـ لم يعتمد الأمر على ذلك ـ اختاروك لأنك كنت شابة وجميلة وفي الحزب ، لأنهم كانوا يعرفون أنك ستوافقين على المجيء الى المانيا إذا ما رتبوا دعوة . ذلك الرجل في مكتب العمل ، بِت ، هو الذي أرسلني الى هناك ، كانوا يعرفون بأنني سأعمل في مكتبة . كان بِت يعمل لصالح المخابرات خلال الحرب وأعتقد أنهم رشوه . ما كان عليهم سوى أن يضعوني على اتصال معك ، حتى ولو ليوم واحد ، لم يكن ذلك يهم ، وبعد ذلك يستطيعون استدعاءك ، ويرسلون لك المبلغ ، ويجعلون القضية وكأنها قصة حب حتى وإن لم تكن ، ألا تفهمين ؟ ربما يجعلونها افتتاناً . والنقطة المهمة الوحيدة ، بعد أن يجمعونا معاً ، كانت إرسال المبلغ إليك وجعل الأمر يبدو كما لو كان بطلب مني . وكما رأيت ، فقد سهلّنا الأمر لهم . . . "

قالت : " نعم ، سهلّنا الأمر لهم . أشعر أنني قذرة يا أليك ، وكأني أستخدمت لغرض حقير . "

لم يقل ليماس شيئاً .

واصلت لِز : " هل يريح ضمير دائرتك ، بشكل خاص ، استغلال . . . إنسان في الحزب ، وليس مجرد أي شخص آخر ؟ "

قال ليماس : " ربما . في الحقيقة أنهم لا يفكرون بهذه الصيغ . كانت مجرد وسيلة مناسبة . "

ـ " كان بالإمكان أن أظل في ذلك السجن ، أليس كذلك ؟ ذاك ما كان يريده مندت ، أليس كذلك ؟ لم يجد مسوغاً للمجازفة ـ فقد كان بإمكاني أن أسمع الكثير ، وأخمن الكثير . وعلى الرغم من كل شيء ، كان فيدلر بريئاً ، أليس كذلك ؟ لايبدو أن ذلك مهم على الإطلاق ، أليس كذلك ؟ "

صرخ ليماس : " أوه ، بحق السماء . "

قالت متأملة : " يبدو من الغريب أن يخلي مندت سبيلي ، حتى ولو كجزء من الصفقة معك . " أنا شيء خطير الآن ، أليس كذلك ؟ أقصد

Amly نهضة العرب

عندما نعود الى إنجلترا : عضو في الحزب تعرف كل هذا . . . يبدو من غير المنطقي أن يخلى سبيلي . "

أجاب ليماس: " أتوقع أنه سيستغل هروبنا ليبرهن لمجلس الرئاسة على أن هناك آخرين من أمثال فيدلر في قسمه ممن يجب اصطيادهم . "

ـ " ويهود آخرون ؟ "

أجاب ليماس باقتضاب : " تتيح له فرصة تأمين وضعه . "

ـ " بقتل المزيد من الأبرياء ؟ يبدو أن الأمر لا يقلقك كثيراً . "

ـ " بالطبع يقلقني . ويجعلني أتقزز من الشعور بالعار والغضب و . . . لكنني نشأت بطريقة مختلفة يا لِز . لا أستطيع رؤية الأشياء بالأسود والأبيض . ومن يدخل هذه اللعبة يتحمل المجازفة . خسر فيدلر وربح مندت . لندن كسبت ـ تلك هي المسألة . كانت عملية قذرة . لكنها حققت هدفها ، وتلك هي القاعدة الوحيدة . " واثناء ما كان يتحدث ، تصاعد صوته حتى كاد أن يصرخ في نهاية الحديث .

صرخت لِز : " أنت تحاول إقناع نفسك . لقد قمت بعمل شرير . كيف تستطيع قتل فيدلر ؟ لقد كان طيباً يا أليك ، أعلم أنه كان كذلك . ومندت ـ "

سألها ليماس بخشونة : " ممَ تتذمرين بحق الجحيم ؟ إن حزبك في حرب دائماً ، أليس كذلك ؟ يضحي بالفرد من أجل الجماهير . هذا ما يقوله . الواقع الاشتراكي : القتال ليل نهار ـ المعركة القاسية ـ هذا ما يقولون ـ أليس كذلك ؟ لقد نجوتِ على الأقل . لم أسمع أبداً أن الشيوعيين ينادون بحرمة الحياة البشرية ـ ربما فهمتها خطأً ، " وأضاف بلهجة ساخرة : " اتفق . نعم اتفق معك ، ربما كان بالإمكان القضاء عليك . كان ذلك ضمن اللعبة . فـ مندت خنزير متوحش . لم ير معنى في إبقائك حية . ووعده ـ أظن أنه وعد بأن يبذل قصارى جهده من أجلك ـ لم يكن يساوي الكثير . لذلك ربما مت ـ اليوم ، السنة القادمة ، أو خلال عشرين سنة من الآن ـ في سجن في فردوس العمال . وكذلك الحال معي . لكن ، أليس صحيحاً أن الحزب يهدف الى تدمير طبقة بكاملها . أم إني فهمت الأمر خطأ ؟ " أخرج علبة سجائره من جيب سترته وناولها سيجارتين مع علبة ثقاب ، فارتعشت أصابعها وهي تشعلها وناولت ليماس واحدة .

سألت : " لقد حسبت كل شيء ، أليس كذلك ؟ "

أصر ليماس : " صادف أننا كنا مناسبين للقالب . أنا آسف ـ آسف من أجل الآخرين كذلك ، الآخرين الذين يناسبون القالب . لِز ، لا تشتكي من

Amly نهضة العرب

التعابير ، إنها مصطلحات الحزب . ثمن صغير لمردود كبير . واحد يضحى به من أجل كثيرين ـ أنا أعرف أنه ليس جميلاً تحويل الخطة الى بشر ـ ممن يقع عليهم الاختيار . "

أصغت في الظلام ، ولوهلة ، لم تكن تعي شيئاً سوى الطريق المتلاشي أمامها ، والرعب الكامن في ذهنها . أخيراً قالت : " لكنهم جعلوني أحبك . وأنت جعلتني أصدقك وأحبك . "

رد ليماس بقسوة : " لقد استغلونا . خدعونا لأن ذلك كان ضرورياً . كانت تلك هي الطريقة الوحيدة ، فقد كاد فيدلر أن يصل الى هدفه ، ألا تتفهمين ؟ وكاد مندت أن يمسك . ألا تستطعين فهم ذلك ؟ "

صرخت لِز فجأة : " كيف تستطيع قلب العالم رأساً على عقب ؟ كان فيدلر لطيفاً ومحترماً ، وكان يؤدي واجبه فحسب ، وها أنت قتلته . مندت جاسوس وخائن وأنت تحميه . مندت نازي ، هل تعرف ذلك ؟ الى أي جانب تقف ؟ كيف تستطيع . . . ؟ "

رد ليماس : " هناك قانون واحد في هذه اللعبة . مندت رجلهم ، يعطيهم ما يحتاجون اليه ، هذا سهل الفهم ، أليس كذلك ؟ اللينينية ـ نفعية التحالفات المؤقتة . ماذا تظنين الجواسيس ؟ قساوسة أم قديسون وشهداء ؟ إنهم مجموعة قذرة من الحمقى التافهين ، والخونة كذلك ، نعم ، مخنثون وساديون ومدمنون ، أناس يؤدون أدوار رعاة البقر والهنود الحمر ليضفوا بريقاً على حياتهم المتعفنة . هل تعتقدين أنهم يجلسون مثل الرهبان في لندن يوازنون الصحيح والخطأ ؟ كنت أريد قتل مندت لو استطعت ، فأنا أمقته ، لكن ، ليس الآن . هكذا تسير الأمور بحيث أنهم بحاجة اليه . يحتاجون اليه كي تنام الجماهير الغفيرة المغفلة التي تثير إعجابك ، نوماً عميقاً في فراشها في الليل . يحتاجون اليه من أجل سلامة أناس عاديين تافهين مثلي ومثلك . "

ـ " لكن ، ماذا عن فيدلر ـ ألا تشعر بشيء نحوه ؟ "

أجاب ليماس : " هذه حرب . إنها نظرية وكريهة لأنها تشن على مقياس صغير ويمدى قريب ، تشن مع خسارة أرواح بريئة أحياناً ، أعترف بذلك لكن هذا لا شيء ، لا شيء على الإطلاق مقارنة بالحروب الأخرى ـ الأخيرة أو القادمة . "

قالت لِز بهدوء : " يا إلهي . أنت لا تفهم . لا تريد أن تفهم . أنت تحاول اقناع نفسك . أن ما يفعلونه أفظع من ذلك بكثير جداً . إيجاد اللاانسانية في وفي الناس وفي أي شخص آخر يستغلونه ، تحويلها الى سلاح في أيديهم يستخدمونه للاذى والقتل . . . "

Amly نهضة العرب

صرخ ليماس : " يا إلهي . هل فعل الناس شيئاً آخر منذ بدء الخليقة ؟ أنا لا أؤمن بأي شيء ، ألا تفهمين ـ ولا حتى بالتدمير والفوضى . لقد سئمت ، سئمت القتل ، لكنني لا أرى أي شيء آخر يستطيعون أن يفعلوه . إنهم لا يدعون الى الهداية ، إنهم لا يقفون على منابر الوعظ أو على منابر الحزب ويدعوننا الى القتال من أجل السلام أو في سبيل الله أو أي شيء آخر . إنهم مجموعة أشقياء يحاولون منع الوعاظ من تقطيع بعضهم بعضاً . "

قالت لِز يائسة : " أنت مخطىء . إنهم أكثر شراً منا جميعاً . "

سأل ليماس بوحشية : " لأنني مارست الحب معك حين اعتقدتِ أنني كنت مشرداً ؟ "

ردت لِز : " بسبب احتقارهم . احتقارهم لكل ما هو حقيقي وخير . احتقارهم للحب ، احتقارهم لـ . . . "

قال ليماس موافقاً وقد اعتراه الضجر فجأة : " نعم ، ذلك هو الثمن الذي يدفعونه ، مقت الله وكارل ماركس في الجملة ذاتها . إن كان ذلك هو ما تقصدين . "

واصلت لِز : " هذا يجعلك مثلهم ، مثل مندت والبقية . . . كان يجب أن أعرف بأنني كنت الانسانة التي تساء معاملتها ، على أيديهم ، على يديك لأنك لا تكترث ، أليس كذلك ؟ لا شيء . . . مجرد عملة تتداولونها ، أليك ، أنتم كلكم متشابهون . "

قال يائساً : " آه يا لِز ، بالله عليك ، صدقيني . إني أكرهه ، أكره كل هذا . أنا متعب . لكنه العالم ، البشرية التي ذهب عقلها ، نحن ثمن بسيط يدفع . . . لكن الأمر سيان في كل مكان ، أناس يخدعون ويضللون ، حيوات بكاملها تلقى جانباً ، أناس يقتلون ويسجنون ، بجاميع وطبقات كاملة من الناس تمحى للاشيء . وأنت ، وحزبك ، الله يعلم أنه بني على أجساد الناس العاديين . لم تشاهدي مثلي أبداً بشراً يموتون يا لِز . . . "

خلال حديثه ، تذكرت لِز باحة السجن الكئيبة ، والسجانة وهي تقول : " إنه سجن لأولئك الذين يظنون أن لهم الحق في الخطأ . "

فجأة ، توتر ليماس ، وراح يحدق الى الأمام عبر الحاجز الزجاجي الأمامي للسيارة . وفي ضوء المصابيح العالية للسيارة ، لمحت لِز شخصاً يقف في الطريق . كان يحمل في يده مصباحاً صغيراً كان يشعله ويطفئه مع اقتراب السيارة . تمتم ليماس : " ذاك هو ، " وأطفأ المصابيح العالية والمحرك ، وانحدر بصمت الى الأمام . وعندما توقفوا ، مال ليماس الى الخلف وفتح الباب الخلفي .

Amly نهضة العرب

لم تستدر لز لتراه عندما ركب السيارة . كانت تحدق بجمود الى الأمام ، في الشارع ، بالمطر المتساقط .

قال الرجل : " قدْ بسرعة ثلاثين كيلومتر " . كان صوته متوتراً وخائفاً . " سأدلك على الطريق . عندما نصل الى المكان ، عليك أن تخرج وتركض الى الجدار . سيسقط النور الكشاف على النقطة التي يجب أن تتسلق منها . قف في ضوء المصباح الكشاف وعندما يبتعد الشعاع ابدأ في التسلق . لديك تسعون ثانية للعبور . أنت تصعد أولاً . ثم تتبعك الفتاة . هناك سلالم حديدية في الجزء الأسفل ـ بعد ذلك عليك أن تدفع نفسك الى اعلى بأقصى ما تستطيع . عليك أن تجلس على القمة وتسحب الفتاة الى أعلى . هل تفهم ؟ "

قال ليماس : " نحن نفهم . كم بقي لنا من الطريق ؟ "

ـ " إذا ما سقت بمعدل ثلاثين كيلومتر سنكون هناك خلال حوالي تسع دقائق . سيكون المصباح الكشاف على الجدار عند الواحدة وخمس دقائق بالضبط ـ يستطيعون منحك تسعين ثانية . لا أكثر . "

سأل ليماس : " وماذا يحدث بعد تسعين ثانية ؟ "

كرر الرجل : " يستطيعون منحك تسعين ثانية . خلاف هذا ، سيكون الوضع خطيراً جداً . فقد أبلغنا فصيلة واحدة فقط . يعتقدون أننا نجعلكم تتسللون الى برلين الغربية . وقد أبلغوا بعدم جعل الأمر سهلاً جداً . تسعون ثانية تكفي . "

قال ليماس بجفاف : " آمل ذلك فعلاً . في أي وقت نبدأ ؟ "

رد الرجل : " اتفقت على التوقيت مع العريف المسؤول في الفصيل . " اشتعل وانطفأ مصباح خلف السيارة . " الساعة الآن الثانية عشرة وثمان وأربعون دقيقة . يجب أن نغادر في الواحدة إلا خمس دقائق . سننتظر سبع دقائق . "

جلسوا في صمت تام لم يخترقه شيء سوى صوت تساقط المطر على سقف السيارة . كان الشارع المرصوف بالحصى يمتد أمامهم مباشرة ، وقد ثبتت فيه مصابيح شوارع صغيرة كل مائة متر . لم يكن هناك أحد في الجوار . وفوقهم ، كانت السماء تضاء بالوميض الاصطناعي للمصابيح النيونية . وبين حين وآخر ، كان شعاع مصباح كشاف يومض فوق الرؤوس ثم يخبو .

الى اليسار بعيداً ، لمح ليماس ضوءاً متذبذباً فوق خط السماء ، يتغير بصورة مستمرة في شعاعه مثل انعكاس نار .

Amly نهضة العرب

سأل وهو يؤشر نحوه : " ما هذا ؟ "
أجاب الرجل : " دائرة المعلومات . منصة ضوئية تبث عناوين الأخبار الى برلين الشرقية . "
تمتم ليماس : " بالطبع " . كانوا قريبين جداً من نهاية الطريق .
قال الرجل : " ليس هناك من عودة . هل أخبرك بذلك ؟ ليست هناك فرصة ثانية . "
قال ليماس : " أعرف . "
ـ " إذا ما حدث مكروه ـ إذا ما سقطت أو جرحت ـ فلا تعد . يطلقون النار حال رؤيتك ضمن منطقة الجدار . يجب أن تعبر . "
كرر ليماس : " نحن نعرف . أبلغني هو بهذا . "
ـ " في اللحظة التي تنزل فيها من السيارة تصبح ضمن المنطقة . "
رد ليماس : " نحن نعرف . والآن ، إخرس . هل ستعيد السيارة ؟ "
أجاب الرجل : " حالما تنزلون من السيارة ، سأقودها مبتعداً . فأنا في وضع خطير كذلك . "
قال ليماس بجفاف : " سيء جداً . "
ساد صمت مرة أخرى . ثم سأله ليماس : " هل لديك مسدس ؟ "
قال الرجل : " نعم . " لكنني لا أستطيع أن أعطيه لك ، هو قال يجب أن لا أعطيك إياه . . . وقال إنك لا بد ستسأل عنه . "
ضحك ليماس بهدوء وقال : " بالتأكيد كان سيقول ذلك . "
سحب ليماس مشغل المحرك . وبضجيج بدا كأنه يملأ الشارع ، تحركت السيارة ببطء الى الأمام . قطعوا حوالي ثلاثمائة ياردة عندما همس الرجل بعصبية : " الى اليمين ، هنا ، ثم انحرف يساراً . " انحرفوا الى شارع جانبي ضيق . كانت هناك أكشاك فارغة على الجانبين بحيث مرت السيارة بصعوبة بينها . " والآن يساراً . "
استداروا مرة أخرى ، بين بنايتين عاليتين هذه المرة ، والى ما يشبه زقاقاً مسدوداً . كان هناك حبل غسيل عبر الشارع ، وراحت لز تتساءل إن كانوا سيمرون من تحته . وعندما أقتربوا مما بدا كأنه النهاية المسدودة ، قال الرجل : " الى اليسار مرة أخرى ـ عقب الطريق . " صعد ليماس الحاجز الحجري وعبر الرصيف وساروا في ممر واسع يحيط به سياج على يسارهم وبناية عالية بلا شبابيك على يمينهم . سمعوا صرخة من مكان ما فوقهم ، صوت امرأة ، وتمتم ليماس : " إخرسي ، " قال لها وهو يدور بعصبية حول انحناءة بزاوية قائمة في الممر ، ووصل في الحال الى طريق رئيسي تقريباً .

Amly نهضة العرب

سأل : " أي اتجاه ؟ "

ـ " الى الأمام ـ من أمام الصيدلية ـ بين الصيدلية ودائرة البريد ـ هناك ! " كان الرجل يميل الى الأمام كثيراً حتى أن وجهه كان بموازاة وجهيهما تقريباً . أشار بأصبعه ، ممرراً أصبعه من أمام ليماس ، وقد لمس بطرف أصبعه لوح الزجاج الأمامي .

همس ليماس : " إرجع الى الوراء . أبعد يدك . كيف أستطيع أن أرى بحق الجحيم وأنت تلوح بيدك بهذه الطريقة ؟ " وبعد أن حوّل ناقل الحركة الى الرقم واحد ، ساق بسرعة عبر الطريق العريض . وهو يلقي نظرة على يساره ، دهش لرؤية ظل صورة بوابة براندنبورغ على بعد ثلاثمائة ياردة ، والتجمع المريب لمركبات عسكرية على مقربة منها .

سأل ليماس فجأة : " الى أين نحن ذاهبون ؟ "

صرخ الرجل : " نحن على وشك الوصول . الآن ، خفف السرعة ، يساراً ، يساراً ، الى اليسار ، " وحوّل ليماس المقود في اللحظة الحرجة ، ومرّوا من تحت طريق مقنطر ضيق باتجاه فناء . بدت مداخل الأبواب الخاوية فاغرة أفواهها وهي تحدق بهم دون أن تنظر بعيونها . وعند الطرف الآخر من الفناء ، كانت هناك بوابة مفتوحة . جاء الأمر همساً ، عاجلاً في الظلام : " مر من خلالها ، الى أقصى اليمين . سترى مصباح شارع على يمينك . المصباح الذي وراءه مكسور . عندما تصل المصباح الثاني ، أوقف المحرك وانزل الى أن ترى فوهة إطفاء حريق . ذلك هو المكان . "

ـ " لِمَ لم تقد السيارة بنفسك بحق الجحيم ؟ "

ـ " هو الذي قال إنك يجب أن تقود السيارة . قال إن ذلك أكثر أماناً . "

مرّوا من خلال البوابة وأستداروا بحدة الى اليمين . وجدوا أنفسهم في شارع ضيق شديد الظلمة .

ـ " أطفىء المصابيح . "

أطفأ ليماس مصابيح السيارة ، وقادها ببطء نحو مصباح الشارع الأول . الى الأمام ، استطاعوا رؤية المصباح الثاني فقط ، وكان غير مضاء . وبعد أن أطفأ المحرك ، مرّوا بصمت بمحاذاة المصباح ، الى أن ميزوا ، على بعد عشرين ياردة أمامهم ، الشكل المعتم لخرطوم المياه . داس ليماس على الكابح ، فاندفعت السيارة الى أن توقفت .

همس ليماس : " أين نحن ؟ لقد أجتزنا شارع لينين ، أليس كذلك ؟ "

ـ " في شارع كريفزوالدر . ثم استدرنا شمالاً . نحن الآن شمالي شارع

Amly نهضة العرب

بيرناور . "

ـ " بانكو ؟ "

ـ " تقريباً . أنظر ، " أشار الرجل الى الأسفل الى شارع جانبي على اليسار . وعند الطرف البعيد شاهدوا امتداداً صغيراً لجدار بني كالح في ضوء المصباح النيوني الباهت . وعلى امتداد سطح الجدار كانت هناك جديلة ثلاثية من الأسلاك الشائكة .

ـ " كيف ستتمكن الفتاة من عبور السلك ؟ "

ـ " تجده مقطوعاً من مكان عبورك . هناك فجوة صغيرة . أمامك دقيقة واحدة للوصول الى الجدار . وداعاً . "

خرجوا جميعاً من السيارة . أمسك ليماس بـ لِز من ذراعها ، وقد جفلت منه كأنه أصابها بأذى .

قال الألماني : " وداعاً . "

همس ليماس : " لا تشغّل تلك السيارة الى أن نتسلق الجدار . "

نظرت لِز الى الألماني للحظة في الضوء الشاحب : تكونت لديها صورة موجزة عن وجه شاب قلق ، وجه فتى يحاول أن يكون شجاعاً .

قالت لِز : " وداعاً . " سحبت ذراعها وتبعت ليماس عبر الشارع ثم الى الشارع الضيق الذي كان يؤدي الى الجدار .

حال دخولهما الشارع ، سمعا صوت تشغيل السيارة خلفهما وهي تستدير وتبتعد مسرعة في الاتجاه الذي جاؤوا منه .

تمتم ليماس : " أوقفها أيها الوغد ، " ملقياً نظرة الى الوراء على السيارة المتراجعة .

وبالكاد سمعته لِز .

Amly نهضة العرب

٢٦ * هرباً من البرد

سارا بسرعة ، وليماس يلقي نظرات من فوق كتفه بين حين وآخر ليتأكد من أنها كانت تتبعه . وحين وصل نهاية الزقاق ، توقف ، والتجأ الى ظل مدخل بيت ونظر الى ساعته .

همس : " دقيقتان . "

لم تقل شيئاً . كانت تحدق مباشرة الى الأمام بالجدار ، والخرائب السود القائمة خلفه .

كرر ليماس : " دقيقتان . "

أمامهما ، كان هناك شريط من ثلاثين ياردة . وكان الشريط يجاري الجدار في الاتجاهين . وعلى بعد حوالي سبعين ياردة على يمينهما ، كان هناك برج مراقبة . وكان شعاع مصباحه الكشاف مسلطاً على طول الشريط . واستمر المطر الخفيف بالهطول بحيث كان الضوء الصادر من المصابيح المقوسة شاحباً وطباشيرياً يحجب العالم الذي خلفه . لم يكن هناك أثر لأحد ، ولا حتى لصوت . مسرح خالٍ .

بدأ مصباح برج المراقبة يتحسس طريقة بتردد على طول الجدار وباتجاههما . وفي كل مرة يتوقف فيها ، كانا يريان الطابور المنفصل والخطوط الكسولة لمدافع الهاون التي وضعت على عجل . وحالما لاحظا توقف الشعاع أمامهما مباشرة ، نظر ليماس الى ساعته .

سأل : " أأنت جاهزة ؟ "

أومأت برأسها .

أمسك بذراعها وبدأ بالسير بتأنٍ عبر الشريط . أرادت لز أن تركض ، بيد أنه أمسك بها بقوة بحيث لم تستطع الحركة . كانا في منتصف الطريق الى الجدار الآن ، تدفعهما شبه دائرة الضوء المشعّة الى الأمام ، والشعاع فوقهما

Amly نهضة العرب

مباشرة . كان ليباس عازماً على ابقاء لِز قريبة منه ، وكأنه كان يخشى أن لا يفي مندت بوعده ويختطفها بطريقة ما في اللحظة الأخيرة .

كان على وشك الوصول الى الجدار عندما زاغ الشعاع الى الشمال تاركاً إياهما برهة في ظلام تام . وهو يمسك بذراع لِز ، قادها على غير هدى ، مادّاً يده اليسرى أمامه الى أن شعر بالملمس الخشن والحاد لطوب الجدار . وصار بإمكانه الآن تمييز الجدار نفسه ، وبعد أن نظر الى الأعلى ، شاهد اللفة الثلاثية للسلك والشراك القاسية التي كانت تربطه . كانت هناك أوتاد معدنية تشبه رزات متسلقي الجبال ، قد دقت في طوب الجدار . وبعد أن أمسك بأعلى واحدة منها ، دفع نفسه الى أعلى بسرعة الى أن وصل قمة الجدار . تعلّق بقوة بالجديلة السفلى من السلك وسحبها باتجاهه فوجدها مقطوعة بالفعل .

همس مستعجلاً إياها : " هيا . إبدأي التسلق " . استلقى على الجدار في وضع انبطاح ، ثم أنزل يده وأمسك بيدها الممتدة الى أعلى وبدأ بسحبها ببطء الى أعلى بعد أن عثرت قدمها على أول السلالم المعدنية .

فجأة ، بدا كأن العالم كله قد اتقد لهباً من كل مكان ، فمن فوقهما وعلى جانبيهما ، سطعت أضواء هائلة ، منصبة عليهما بدقة وحشية .

أعمت الأضواء ليباس ، فأشاح برأسه ، وراح يسحب ذراع لِز بجنون . كانت تتأرجح في تلك اللحظة ، ظن أنها انزلقت وراح ينادي مسعوراً ، وهو لا يزال يسحبها الى الأعلى . لم يستطع رؤية شيء ، سوى تشوش ألوان مجنون يتراقص في عينيه .

ثم جاء العويل الهستيري لصفارات الانذار ، والصراخ بأوامر مسعورة . أمسك بيدها في يده وهو نصف جاثٍ منفرج الساقين على الجدار ، وبدأ بسحبها باتجاهه بوصة فبوصة ، وكان هو نفسه على وشك السقوط .

بعدها ، أطلقوا النار ـ طلقات فردية ، ثلاثاً أو أربع ، وأحسّ بها ترتعش ـ أنزلقت من بين يديه . سمع صوتاً بالانجليزية من الجانب الغربي للجدار :

ـ " إقفز أليك ، إقفز يا رجل ! . "

كان الجميع يصرخون في تلك اللحظة ، أصوات إنجليزية وفرنسية وألمانية مختلفة . سمع صوت سمايلي عن قرب :

ـ " الفتاة ، أين الفتاة ؟ "

وضع يديه حول عينيه ونظر الى أسفل الجدار ، وأخيراً تمكن من رؤيتها ، خامدة . تردد لحظة ، ثم هبط ببطء على نفس السلالم حتى وقف الى

Amly نهضة العرب

جانبها . كانت مبتلة . وكان وجهها ملتفتاً إلى الجانب وقد انتشر شعرها الأسود فوق خدها وكأنه بحميها من المطر .

بدوا مترددين قبل أن يطلقوا النار مرة أخرى : صرخ أحدهم آمراً ، ومع ذلك لم يطلق النار أحد . أخيراً أصابوه ، أصابتين أو ثلاثاً . فتوقف محملقاً فيما حوله مثل ثور معمي في الساحة . وفي لحظة سقوطه ، رأى ليماس سيارة صغيرة تسحق بين شاحنتين كبيرتين ، والأطفال يلوحون بفرح عبر الشباك .

Amly نهضة العرب

تحت إشراف ومراجعة وتدقيق الأستاذة/ أمل الشرقي
والأستاذ / سمير عزت نصار ، تقدم

دار النمر للنشر والتوزيع / عمّان
دار الشمس للنشر / بغداد

المشروع الثقافي المشترك ،
لترجمة روائع الروايات العالمية المعاصرة والفكر العالمي المعاصر :

١ ـ **لعبة البكاء** : رواية الكاتب البريطاني المعاصر : جون براين .
٢ ـ **مكان في القمة** : رواية : جون براين .
٣ ـ **الجاسوس المستجير من البرد** : رواية الكاتب البريطاني المعاصر : جون لوكاريه .
٤ ـ **المكوث** : رواية للكاتب البريطاني المعاصر بول سكوت .
٥ ـ **رابِت ، أركض** : رواية الكاتب الأمريكي المعاصر : جون أبدايك .
٦ ـ **رابِت مستعاداً** : الرواية الثانية من رباعية رابِت : جون أبدايك .

Amly نهضة العرب

الرواية

■«الجاسوس المستجير من البرد»ليست مجرد رواية ، انها كشف خطير عن واقع لم يعرف الا بعد صدورها بما يزيد عن عشرة اعوام .

«حين صدرت رواية (الجاسوس المستجير من البرد) عام ١٩٦٣ تصدرت قوائم افضل المبيعات لاكثر من عام من كل من انكلترا وامريكا وزادت مبيعاتها على مليوني نسخة كان السر في نجاحها انها كانت . كما جاء في شهادة الروائي الكبير غراهام غرين ، افضل رواية جاسوسية ظهرت حتى اليوم اما الان وبعد ما جرى في المعسكر الاشتراكي كله وليس في المانيا الشرقية وحدها حيث تدور احداث الرواية .

فان من حق القارىء ان يتساءل هل كان المؤلف يستلهم خياله إم ملفاته السرية في كتابة هذا العمل الفريد ؟ وهل كانت الرواية نبوءة ام وثيقة ؟

«الجاسوس المستجير من البرد» حولت الى فيلم سينمائي ناجح عام١٩٦٥ .

المؤلف :

■جون لوكاريه هو الاسم المستعار لديفيد كورنويل المولود في عام ١٩٣١ في بريطانيا عمل مدرسا للفرنسية واللاتينية في كلية ايتون ثم موظفا في السفارة البريطانية في المانيا للفترة ما بين ١٩٦١ - ١٩٦٤ .

حقق شهرة واسعة ككاتب لقصص الجاسوسية المستقاة من معرفة ضليعة بخفايا العمليات التجسسية من مؤلفاته الاخرى «حرب المراة» ١٩٦٥ و «مدينة صغيرة في المانيا» ١٩٦٨

دار النسر للنشر والتوزيع

تلفاكس : ٦٥٩٤٦٠ - ص.ب ٩١٠٥٨٦

عمان - الاردن (١١١٩١٠).

توزيع دار النسر للنشر والتوزيع